الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون –تيارت

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه L M D في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

الموانئ ودورها في العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس من القرن (3 إلى 6هـ/9 إلى 12م)

إعداد الطالبة:

أسماء خلوط

باشراف:

الأستاذ الدكتور عبد الحق شرف

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
عبيد بوداود	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون تيارت	رئيسا
عبد الحق شرف	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون تيارت	مشرفا ومقررا
قدور وهراني	أستاذ محاضر قسم أ	جامعة تلمسان	مناقشا
عبد الكريم طاهر	أستاذ محاضر قسم أ	جامعة الشلف	مناقشا
إلياس حاج عيسى	أستاذ محاضر قسم أ	جامعة ابن خلدون تيارت	مناقشا
محمد عليلي	أستاذ محاضر قسم أ	جامعة ابن خلدون تيارت	مناقشا

السنة الجامعية: 1442-1443هـ/2020-2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء:

إلى الوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما

إلى جميع أفراد عائلتي

إلى كل طالب علم محبّ للعلم، مجدّ ومثابر

أهدي هذا العمل.

شكر وتقدير:

الحمد لله الذي بعزّته وجلاله تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى ورسوله المرتضى سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

صدق الشاعر إذ قال:

الشكر أفضل ما حاولت ملتمسا به الزيادة عند الله والناس

أتوجّه بخالص شكري وامتناني للأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور شرف عبد الحق على ما قدّمه لي من نصح وإرشاد مستمرّ وصبره معي طوال هذه السنوات

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر والعرفان إلى كل من ساعدني في إتمام هذه الرسالة من قريب أو من بعيد.

قائمة المختصرات:

ت: توفي

تح: تحقيق

تخ: تخريج

تر: ترجمة

تع: تعليق

تق: تقديم

ج: جزء

الخ: إلى آخره

در: دراسة

شر: شرح

ص: صفحة

ط: طبعة

ع: عدد

غ: غرام

ق: قرن

م: ميلادي

مج: مجلد

مر: مراجعة

ه: هجري

مقدمة

جمعت بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس علاقات كثيرة، وذلك نظرا للطبيعة الجغرافية لكلا الإقليمين، وكذا وحدة الدِّين واللغة والعرق. فقد ساهم قُرب المسافة بينهما إلى سهولة الاتصال والتنقّل بين الضفّتين، ولهذا أطلق المؤرّخون والجغرافيون على كل من المغرب والأندلس اسم العدوة، اعترافا منهم بهذه العلاقة القوية والمتينة.

وقد أدّت طبيعة الأندلس البحرية والجغرافية إلى عزلها جغرافيا عن البلاد الإسلامية، حيث سعى الأندلسيون إلى توثيق صلتهم مع باقي البلاد الإسلامية عن طريق ربط سواحل الأندلس بسواحل المغرب الأوسط، أين يبرز دور الموانئ في ربط العدوتين بحريا وبشكل مباشر، وذلك ما ساهم في تنشيط الحركة التجارية بشكل كبير.

إنّ عدم وجود مسالك برية تصل بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، أدّى إلى توجّه السكان للتنقّل عبر البحر للوصول إلى الضّفة الأخرى، وهنا تبرز أهمية الموانئ باعتبارها بوابة نحو عالم البحر الأبيض المتوسط، ممّا أدّى إلى تطوّر وازدهار الأنشطة الاقتصادية خاصة الأنشطة التجارية.

وعلى ضوء هذا المعطى التاريخي جاء بحثنا موسوما بـ: "**الموانئ ودورها في العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس من القرن 3هـ-09م إلى القرن 6هـ-12م**" لبيان فصل مهمّ جدّا في الإحاطة بطبيعة العلاقات التجارية والاقتصادية بين المغرب الأوسط وبلاد الأندلس. حيث يكتسي هذا الموضوع أهمية بالغة في كونه يسلّط الضوء على النشاط التجاري في جزء من بلاد الغرب الإسلامي، وكذا دراسة العلاقات التجارية بين إقليمين لا تجمع بينهما الحدود البريّة وهما المغرب الأوسط والأندلس؛ إلا أنّ هذا لم يمنع التواصل بينهما. حيث اتخذا من الطرق البحرية وَصْلا بينهما، ليأتي دور الموانئ في تعزيز التواصل بين الضّفتين، أين جمعت أرض العدوتين علاقات اقتصادية متينة وفي فترة مبكّرة جدا، والتي تعود جذورها إلى القرن الثاني للهجرة، الموافق للقرن الثامن للميلاد.

إلّا أنّ اللّافت للانتباه؛ هو أنّ هذه العلاقات التجارية لم تبرز على أرض الواقع إلّا في العقدين الأخيرين من القرن الثالث للهجرة (9م)، أين شهدت الحياة التجارية في كل من المغرب

الأوسط والأندلس انفتاحا بحريا، مكّن الإقليمين من توسيع نشاطاتهم البحرية، لتشمل الكثير من البلدان المتوسطية.

إنّ سبر أغوار هذا الموضوع أمر ليس بالسهل؛ ذلك أنّ البحث فيه يتطلب إلماما بعديد الجوانب؛ التاريخية والجغرافية. وقد عنى به عديد الباحثين، ودرسوه من زوايا مختلفة أبانت عن أهميته الكبرى. ورغم ذلك، إلّا أنّ هاته الدراسات بقيت حبيسة العموميات، بل إنّها لم تخرج من طابع السطحية والعموم إلى التحليل والتخصّص، حيث جاء الكثير منها يعالج موضوع التاريخ التجاري للمغرب الأوسط في فترات متأخّرة من العصر الوسيط، خاصة تلك الفترة التي شهدت انفتاح دويلات المغرب الإسلامي على التجارة مع الإمارات النّصرانية في جنوب أوروبا. في حين تبيّن لنا أنّ الدِّراسات التي تناولت الحركة التجارية للمغرب الأوسط في فترة مبكرة قليلة؛ إن لم نقل نادرة، خاصة تلك التي تتحدّث عن العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس، فكان ذلك من جملة الأسباب التي دفعتنا لاختيار البحث والتنقيب في هذا الموضوع.

إنّ موضوع التجارة البحرية بين المغرب الأوسط والأندلس في الفترة قيد الدراسة، هو من المواضيع التي لم تدرس كثيرا، حيث كانت الدراسات الغربية وإلى عهد قريب السبّاقة في تناولها. ولذلك اخترنا البحث فيه لكن من زاوية مغايرة، حيث إنّ هذه الدراسات أهملت الدور الكبير لتجار الغرب الإسلامي، والتركيز على ما قام به التجار النصارى واليهود في هذا الجانب. وقد سعينا في ذلك كلّه لإبراز دور مسلمي الغرب الإسلامي في المساهمة في التجارة البحرية المتوسطية وتنشيطها، وذلك ببنائهم للموانئ وشقّهم لطرق بحرية جديدة، وتطويرهم لأساليب وتقنيات الملاحة البحرية، وكذا تأسيسهم لشبكة تجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، والتي سيستفيد منها الأوربيون فيما بعد.

ولقد تدارس الباحثون هذا الموضوع وتناقشوه على مرّ فترات زمنية مديدة، اهتموا من خلالها بالتاريخ الاقتصادي للمغرب الأوسط والأندلس، وتاريخ البحرية الإسلامية في الغرب الإسلامي بما فيها النشاط التجاري البحري. إلّا أنّ الملاحَظ على هذه الدراسات هو عدم تركيزها كثيرا على التجارة البحرية ودور الموانئ في تنشيطها وتطويرها. وبالرغم من ذلك؛ فإنّنا لا نبخسها حقها، إذ مكّنتنا من أخذ فكرة عن واقع التجارة في كل من المغرب الأوسط والأندلس، وساعدتنا في تحديد المادة المصدرية لموضوع أطروحتنا.

إنّ عملية حصر مصادر الموضوع ليست بالسهلة اليسيرة، ذلك أنّه وبعد بحث وتنقيب، تمكنّا من حصر مجموعة من الكتب والرسائل العلمية التي لها صلة مباشرة بموضوع بحثنا، والتي استطعنا من خلالها تكوين صورة واضحة المعالم حول موضوع أطروحتنا، ولعلّ من أبرزها تلكم الدراسة الوافية الكافية الموسومة بـ: **"بجاية ميناء مغاربي (1067–1510)"** للمؤلف الفرنسي دومينيك فاليرين (Dominique Vlerian). وبالرغم من كون الكتاب يركّز على ميناء واحد من موانئ المغرب الأوسط وهو بجاية، وعلى العلاقات التجارية بينها وبين الإمارات النصرانية في جنوب أوروبا، إلّا أنّه أفادنا كثيرا، خاصة فيما يتعلّق بالوصف الجغرافي لمدينة بجاية وميناءها، والطرق البحرية التي تربطها بالمدن الأندلسية، وكذلك ما يتعلّق بالقرصنة البحرية.

ومن الدراسات الرائدة كذلك؛ كتاب **"الموانئ الأندلسية في عصري الإمارة والخلافة (138–422هـ/756–1031م)"** لمؤلفه خليل خلف الجبوري، حيث يتقاطع موضوع هذا الكتاب وموضوعنا في تناوله للموانئ الأندلسية، وعلى الخدمات والتسهيلات التي قدمتها موانئ الأندلس لاستيعاب الحركة التجارية مع بلدان البحر المتوسط. وقد مكّننا هذا المرجع من التعرّف على بعض المنتوجات الزراعية والصناعية للأندلس، وكذا الوقوف على بداية سكّ النقود في الأندلس.

وفي خضمّ هذا البحث كذلك؛ أعانتنا الدراسات التي تخصّ تاريخ البحرية في الغرب الإسلامي مثل كتاب **"القوى البحرية والتجارية"** للمؤلف الأمريكي أرشيبالد لويس (Archibald Lewis)، وقد ساعدنا هذا الكتاب في أخذ صورة واضحة عن كيفية تشكّل البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، واستغلال المسلمين للمراسي والخلجان الملائمة لبناء الموانئ الكبيرة، وتأسيسهم لدور صناعة السفن واصلاحها.

ومن المراجع كذلك؛ كتاب **"البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس"** للمؤلفين السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، حيث مكّننا من معرفة بدايات تأسيس البحرية الأندلسية، ونشاط الأسطول الأندلسي على سواحل بلاد المغرب.

وبالإضافة لذلك كلّه؛ عزّزنا أطروحتنا بمجموعة من الرسائل العلمية، ومنها أطروحة دكتوراه موسومة بـ **"التوجّه البحري للمغرب الأوسط وأثره في طرق التجارة والمواصلات (2–**

10هـ/8-16م)" لعلي عشّي. هذه الدراسة ونظرا للمدّة الزمنية الطويلة التي تناولتها، تمكّن صاحبها من إبراز أثر الواجهة البحرية للمغرب الأوسط في تغيّير الأنماط الاجتماعية والاقتصادية لسكانه، خاصة في المناطق الساحلية والقريبة من الساحل. حيث تعتبر هذه الواجهة فضاء واسعا ومفتوحا، ومدخل البلدان. كما تعتبر في الوقت نفسه، محلّ تنافس وإغراء لمختلف الدول والقبائل المتنافسة، إذ مكّنتنا في الوقت ذاته من أخذ صورة نموذجية عن تاريخ بعض الموانئ القديمة للمغرب الأوسط وكيفية تشكّلها.

كما أنّ الأطروحة المعنونة بـ: **"التجارة والتجار في الأندلس"** للباحثة الأمريكية أوليفيا ريمي كونستبل (Olivia Reemy Constable)، أعطتنا صورة واضحة المعالم، بالرغم من معاناتنا من الترجمة الركيكة لها، عن تطور الحياة الاقتصادية في الأندلس وانعكاساتها السياسية. وتبرز القيمة الكبيرة لهذه الأطروحة في اعتمادها على مصادر متنوّعة، حيث استخدمت جميع الوثائق التجارية في مصر وجنوة وبيزا، وكذا المصادر العربية التقليدية، وقد استفدنا منه كثيرا، خاصة فيما يتعلّق بالمبادلات التجارية للأندلس.

كما كان للأطروحة الموسومة بـ **"التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط من القرن (6-9هـ/12-15م)"**، لخديجة بورملة، حضور وافر في عملنا هذا، حيث تتقاطع هذه الدراسة وموضوعنا في التركيز على التجارة البحرية للمغرب الأوسط، رغم اختلاف الإطار الزماني، وتعالج كذلك العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط ومختلف البلدان الإسلامية والنصرانية، بينما اقتصرت دراستنا على العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس فقط.

والحق يقال: إنّ هاته الدّراسات جميعها، قدّمت لنا معلومات قيّمة حول واقع البحرية في الغرب الإسلامي والتجارة البحرية. ورغم أنّها تتقاطع وموضوعنا في بعض الجوانب، إلّا أنّها لم تركّز كثيرا على دور الموانئ في تنشيط الحركة التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس في الفترة محلّ الدراسة.

تعدّ الموانئ مرافئا حيوية لاقتصاد الدولة، إذ هي المنفذ الاستراتيجي الذي تتمّ عبره التجارة الخارجية، والموانئ تعكس صورة الازدهار والنمو الاقتصادي الخارجي، فضلا عن أنّها تمثّل حلقة وصل ما بين المدن البحرية، تِلكم هي الإشكالية الرئيسة لموضوع أطروحتنا، والتي تهدف إلى

تسليط الضوء على الدور الكبير للموانئ في إنعاش التجارة البحرية ما بين المغرب الأوسط والأندلس خلال ق3-6هـ/9-12م، كما تبحث في إبراز دور موانئ المغرب الأوسط وموانئ الأندلس في ربط العدوتين المغربية والأندلسية، وتسهيل التواصل والتنقّل بينهما.

ونحن نعتبر أطروحتنا هذه إجابة عن هاته الإشكالية، وجملة أخرى من التساؤلات الفرعية التي من شأنها أن تميط اللثام عمّا خفي من حقائق تاريخية، تخصّ واقع التجارة البحرية في الغرب الإسلامي خلال القرون الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس، ولعل أهمّها: كيف أسهمت الموانئ في ازدهار العلاقات التجارية بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس خلال ق3-6هـ/9-12م؟ وما هو دورها في رسم خطوط الملاحة البحرية بين المغرب الأوسط والأندلس؟ وفيما تتمثّل المقومات الطبيعية والصناعية التي استندت عليها الحياة التجارية في كل من المغرب الأوسط والأندلس؟ وهل يعود الفضل للموانئ في النشاط التي شهدته الملاحة البحرية والحركة التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس؟

ولدراسة موضوع الموانئ والعلاقات التجارية تمّ الركون إلى جملة من المناهج التاريخية، كان المُعتَمَد فيها سرد النصوص التاريخية واستخلاص النتائج منها، ثم ترتيب الأحداث التاريخية وفق نسق كرونولوجي، وتفاعلها السياسي الجغرافي.

وإضافة لذلك؛ استعملنا المنهج الوصفي الذي يناسب هذا النوع من الدراسات، حيث يهتمّ بتحديد ودراسة خصائص الظاهرة التاريخية والجغرافية، ووصف طبيعتها ونوعية العلاقة بين متغيّراتها وأسبابها واتجاهاتها، وذلك للوصول إلى تفسيرات منطقية لتحديد نتائج البحث. ويستهدف الوصف في هذه الدراسة تحقيق عدد من الأهداف، والمتمثلة في جمع المعلومات والبيانات الدقيقة عن جغرافية الموانئ والمراسي والجانب الجيولوجي، مع وصف العوامل المؤثرة في تطوّر النشاط التجاري البحري لكل من المغرب الأوسط والأندلس، وأهم العلاقات التجارية التي جمعت بينهما.

كما تطلّب اعتماد المنهج المقارن لدراسة الأوضاع التجارية في كل من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، خاصة في الباب الأخير من الأطروحة، وذلك بعمل مجموعة من المقارنات بين المظاهر التجارية المختلفة، للتعرّف على وجه الشبه والاختلاف بينها، خاصة ما

تعلّق بالأوزان والمكاييل المتداولة في كل من المغرب الأوسط والأندلس، وكذا إبراز مظاهر التعامل التجاري بين موانئ العدوتين.

كما كان للمنهج التحليلي حضور وازن في عملنا هذا، وذلك من خلال عرض وتحليل المادة التاريخية المشتّتة التي جمعناها من مصادر مختلفة، لها علاقة بالتاريخ الاقتصادي وجغرافية كل من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، ككتب الجغرافيا والرحلات، وكتب التاريخ العام، والنوازل والتراجم وغيرها، لدراسة مختلف الإشكاليات المتعلّقة بالحياة التجارية ومقوماتها، وذلك بتصنيفنا إياها، وتقسيمنا لكل أجزاء المادة المتاحة، للوصول إلى نتائج وتحقيق أهداف الدراسة.

إنّ إنجاز أي بحث من هذا القبيل، لا يخل من الصعوبات والمتاعب الجمّة، ولعلّ من أكثر ما واجهنا منها، هو قلّة المصادر التي تتحدّث عن تاريخ الموانئ والملاحة البحرية التجارية، حيث إنّ التقليدية منها، كثيرا ما تهتمّ بالجانب السياسي والعسكري، وقليلا ما تلتفت إلى البحرية والنشاط التجاري البحري، باستثناء بعض الإشارات التي تركّز في معظم الأحيان على الأسطول الحربي، وعلى النشاط البحري العسكري.

ومن المعوّقات كذلك؛ إيجاد مصادر متخصصة تتحدّث عن الملاحة البحرية في البحر الأبيض المتوسط، والتي تعتبر نادرة إن لم نقل منعدمة، ممّا دفعنا إلى جمع المادة العلمية التي تتحدث عن الملاحة من كتب الجغرافيا والرحلات ما أمكننا ذلك.

كما أنّ الفترة المدروسة (ق3-6هـ/9-12م)؛ تعتبر فترة طويلة نسبيا، ضف إلى ذلك قلّة المادة التي تتحدث عن التاريخ التجاري في هذه الفترة، حيث إنّ معظم المصادر وحتى المراجع تتحدّث عن العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والإمارات النصرانية في جنوب أوربا، في فترات متأخرة عن الفترة محلّ الدراسة، بينما تُهمل العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس خاصة خلال القرون الستة الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس.

أُنْزِلت هاته الأطروحة في فصل تمهيدي وثلاثة فصول وخاتمة؛ استطعنا فيها، إلى حدّ ما، الإجابة عن الإشكالية وتساؤلاتها.

ففي الفصل التمهيدي تمّ الحديث عن جغرافية وحدود كل من المغرب الأوسط والأندلس، وكذلك الإشارة إلى الحالة السياسية بهما طوال الفترة الممتدّة ما بين القرن 3هـ و6هـ، فكان عنوان الفصل التمهيدي: "**المغرب الأوسط والأندلس: قراءة جغرافية وسياسية (ق 3هـ إلى 6هـ)**"، وقد ضّحنا فيه الحدود الجغرافية لكلّ من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، وتغيّرها من فترة إلى أخرى نظرا لتغيّر الحالة السياسية بهما طيلة القرون الثلاثة، ثم تحدثنا عن واقع الحياة السياسية في المغرب الأوسط والأندلس من القرن 3هـ/9م إلى غاية القرن 6هـ/12م، وأهمّ الدول التي قامت في كل من المغرب الأوسط والأندلس.

وأمّا الفصل الأول المعنون بـ: "**الموانئ ودورها في رسم خطوط الملاحة البحرية بين المغرب الأوسط والأندلس**" فقد قسمناه إلى ثلاثة مباحث، حيث خصّصنا المبحث الأول للتحدّث عن أصناف الموانئ بصفة عامة، كما قمنا بوصف كل من موانئ المغرب الأوسط، والموانئ الأندلسية المطلّة على البحر المتوسط، ثم تحدثنا عن أساليب وتقنيات الملاحة البحرية التي اعتمدها المسلمون في البحر الأبيض المتوسط، وفي المبحث الثاني من الفصل الأول تطرّقنا إلى الملاحة البحرية في البحر الأبيض المتوسط، فتحدثنا أولا عن الأساليب والتقنيات التي كان بحارة الغرب الإسلامي يستخدمونها في أثناء الرحلة البحرية، ثم تحدثنا عن تأثير المناخ والرياح على الملاحة، كما قمنا بذكر الأوقات المناسبة للملاحة خلال أشهر السنة، أمّا المبحث الثالث فقد خصصناه لذكر المسافات البحرية بين موانئ المغرب الأوسط والموانئ الأندلسية وكذا المسافات بين موانئ المغرب الأوسط نفسها.

وفي الفصل الثاني الذي وسمناه بـ: "**الحياة التجارية ومقوماتها بالمغرب الأوسط والأندلس**"، والمقسّم إلى مبحثين، ذكرنا فيهما كل ما تحتاجه الحياة التجارية بالمغرب الأوسط والأندلس من مقومات طبيعية وصناعية، فتحدثنا بداية عن ما تزخر به أرض المغرب الأوسط من ثروة زراعية وحيوانية ومعدنية، كذلك أوردنا ذكر أغلب الصناعات التي مارسها سكان المغرب الأوسط، أمّا فيما يخصّ بلاد الأندلس فقد ذكرنا اهتمام الأندلسيين بالفلاحة مبرزين أشهر المحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها الأراضي الأندلسية، ثم تطرّقنا إلى ذكر الثروات المعدنية الموجودة ببلاد الأندلس، لندرج أخيرا أهمّ الصناعات التي اشتهرت بها الأندلس.

وأمّا بالنسبة للفصل الثالث والأخير، المعنون بـ: **"دور الموانئ في تنشيط الملاحة البحرية والحركة التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس"**، والذي جاء كمحاولة منا لتوضيح دور الموانئ في تنشيط الملاحة البحرية، وكذا ذكر العلاقة بين الموانئ وحركة التجارة البحرية بين المغرب الأوسط والأندلس، فقمنا بتقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث، تطرقنا في المبحث الأول إلى النقل البحري، مبرزين أوّلا دور الأندلسيين في ربط موانئ الأندلس بموانئ المغرب الأوسط، لنتحدّث بعدها عن الطرق البحرية التي تربط العدوتين، ثم تحدثنا عن الأساليب والوسائل المستعملة في عملية النقل البحري، لنذكر في آخر المبحث العوائق والأخطار التي تعترض الرحلة البحرية من أهوال البحر والقرصنة وغيرها.

وقد خصّصنا المبحث الثاني من الفصل الثالث لذكر أسواق المغرب الأوسط والأسواق الأندلسية، ثم تعرّضنا أيضا لذكر آليات التعامل التجاري، كالسكّة والنقود في كل من المغرب الأوسط والأندلس، وكذا المكاييل والأوزان المستعملة بالعدوتين، مشيرين إلى اختلاف مقدارها من منطقة إلى أخرى، وفي المبحث الثالث والأخير من الفصل الثالث، أدرجنا إحصاء للسلع والبضائع المتبادلة بين المغرب الأوسط والأندلس، حيث ذكرنا أهمّ الصادرات المغربية الموجّة إلى الأندلس، لنذكر بعدها أهم السلع المستوردة من الأندلس، وفي الأخير ختمنا بحثنا بخاتمة ضمنّاها أهمّ النتائج التي أمكننا التوصّل إليها من خلال هذه الدراسة.

ولإنجاز موضوع بحثنا، اعتمدنا على مجموعة متنوعة من المصادر والمراجع، من بينها مصادر أساسية كان لها الفضل في هيكلة هذا الموضوع، حيث آثرنا أخذ المعلومة التاريخية من مصادرها الأصلية، بغرض تحليلها واستقرائها ومقارنتها للخروج ببعض الاستنتاجات التي تبرز الدور الاقتصادي للموانئ، كما لا يمكننا نكران فضل الدراسات الحديثة التي ساهمت في إثراء هذه الدراسة، لذا سنستعرض هذه المصادر ونرتبها حسب أهميتها بالنسبة لموضوعنا، لنعرض بعدها جملة من المراجع العربية والمعرّبة، والتي جاءت كالتالي:

كتب الجغرافيا والرحلات: تحمل كتب الجغرافيا والرحلات في طيّاتها مادة علمية غزيرة، تتضمّن كل الأوصاف التي شاهدها الجغرافي والرحّالة أثناء الرحلة، فما أكثر تلك المصادر الجغرافية التي تحدّثت ووصفت المغرب الأوسط والأندلس، والتي ركّزت كثيرا على المدن الساحلية للعدوتين،

ذاكرة ما تحتويه من موانئ ومراس، وما يقوم به السكان من أنشطة اقتصادية، وعلاقات التجارية، حيث ينبني بحثنا أساسا على ما تحتويه هذه المصادر من معلومات متنوعة.

يتصدّر هذه الكتب الجغرافية كتاب "**المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**"، لمؤلّفه الأندلسي الشهير **أبو عبيد البكري** (ت 487هـ/1094م)، الذي هو جزء من كتابه "**المسالك والممالك**"، ويعتبر أهمّ أقسامه فهو الجزء المتعلّق بالمغرب الإسلامي، ويعدّ كتاب البكري هذا من أغنى المصادر الجغرافية التي تضمّنت معلومات قيّمة عن جميع بلاد المغرب الأوسط، حيث استقى الكثير من الجغرافيين الذين جاؤوا من بعده معلوماتهم من كتابه هذا، وقد أفادنا هذا الكتاب كثيرا في التعريف بالموانئ والمدن الساحلية للمغرب الأوسط، وعن دور الأندلسيين في تأسيس المدن الساحلية، كما أفادنا في معرفة المسافات البحرية بين مدن المغرب الأوسط والمدن الأندلسية، وفي ذكره لبعض المكاييل والأوزان الخاصة ببعض مدن المغرب الأوسط.

ويلي كتاب "**المغرب**" في الأهمية بالنسبة لموضوعنا كتاب: "**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**" لمؤلفه **الشريف الإدريسي** (ت 559هـ/1166م)، حيث خصّص الإدريسي في كتابه هذا النصيب الأوفر من الوصف لبلاد المغرب الإسلامي وبلاد الأندلس، وتكمن قيمة معلوماته في كونه جغرافيّا رحّالة، حيث قدّم لنا مختلف الأوصاف الطبيعية والاقتصادية والبشرية التي شاهدها عيانا، وقد أفادنا هذا الكتاب في وصفنا لموانئ المغرب الأوسط ومدنه الساحلية، كما قدّم لنا الكثير من المعلومات عن الملاحة البحرية، وعن المسافات البحرية بين موانئ المغرب الأوسط والموانئ الأندلسية والمسافات بين سواحل المغرب الأوسط، كذلك قدّم لنا معلومات قيّمة عن واقع الحياة الاقتصادية في بلاد المغرب الأوسط.

وأفادنا الجزء المأخوذ منه والمسمّى: "**المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**"، في التعريف بالموانئ والمدن الساحلية للأندلس، وما تحتويه بلاد الأندلس من ثروات طبيعية وصناعية، وعن النشاط الاقتصادي بالأندلس.

كما تم استغلال النصوص الجغرافية للكثير من الجغرافيين الآخرين على غرار مؤلفات ابن حوقل، والمقدسي، واليعقوبي، والعذري، وابن خرداذبة، والحميري، وياقوت الحموي، والزهري، وصاحب كتاب الاستبصار، وابن سعيد المغربي، وأبو الفدا، والعمري وغيرهم، حيث أفادتنا هذه

النصوص في وصف الموانئ والمدن الساحلية المغربية والأندلسية، وفي التعرف على النشاطات الاقتصادية، وما تملكه بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس من ثروات طبيعية وصناعية، وقد ساعدنا الفارق الزمني بين كل جغرافيّ وآخر في تتبّع مراحل تطور الموانئ والمدن، وفي تتبّع مراحل نشأة العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس.

أمّا فيما يخصّ كتب الرحلات فقد اعتمدنا على بعض منها، كرحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ورحلة القلصادي ورحلة البلوي، فرحلة ابن جبير، وباعتبارها رحلة بحرية، فقد أمدتنا بمعلومات غزيرة عن الملاحة البحرية في البحر المتوسط، وعمّا يعترض الرحلة البحرية من أهوال البحر واعتراض العدو، أمّا الرحلات الأخرى فقدّمت لنا معلومات عن الطرق البحرية الرابطة بين المغرب الأوسط والأندلس، وعن بعض أنواع السفن، وإن لم تكن بالمعلومات الكثيرة.

كتب التراجم والأعلام: ترجع أهمية كتب التراجم في الترجمة لبعض الشخصيات المغربية والأندلسية المذكورة في البحث على غرار الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء والفقهاء وغيرهم، كما استطعنا من خلالها أن نستخرج بعض الإشارات التي تتعلّق بالنشاط الاقتصادي وخاصة التجاري، وعن المبادلات التجارية وتنقّل السفن والأشخاص بين المغرب الأوسط والأندلس، ولقد اعتمدنا في بحثنا على عدد لا بأس به من هذه المؤلفات من بينها: كتاب "**وفيات الأعيان**" لابن خلكان، كتاب "**الحلة السيراء**" لابن الأبّار، كتاب "**أعمال الأعلام**" للسان الدين بن الخطيب، كتاب "**عنوان الدراية**" للغبريني، كتاب "**بغية الملتمس**" للضبّي، كتاب "**سير أعلام النبلاء**" للذهبي وغيرها.

كتب الفقه والنوازل والحسبة: تحمل هذه الكتب في طيّاتها معلومات قيّمة جدّا عن واقع الحياة الاقتصادية، والمعاملات التجارية بين الأفراد والجماعات، فكتب النوازل هي مؤلفات تتحدّث عن مسائل وقضايا رفعت إلى الفقهاء والقضاة والمفتيّين من مختلف فئات المجتمع، وذلك لإيجاد حكم شرعي فيها، وتعتبر هذه النوازل مرآة تعكس مختلف قضايا المجتمع آنذاك، بما فيها الأمور الاقتصادية والتجارية، ومن بين كتب النوازل التي اعتمدنا عليها كتاب: "**المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**"، لمؤلفه أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، تمكّنا من خلال هذا الكتاب من استخراج معلومات حول السكّة والنقود والمكاييل

والأوزان في كل من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، كما أمدّنا بمعلومات تتعلق بالنشاط التجاري والمعاملات التجارية في الغرب الإسلامي.

وتمّ الركون كذلك إلى مصدر مهم في بابه؛ وهو كتاب "**أكرية السفن**" لمؤلفه أبو القاسم خلف بن أبي فراس القروي الإفريقي، ويعتبر هذا الكتاب أحد المصنّفات الفريدة التي خلّفها فقهاء الغرب الإسلامي في مضمار الفقه المقنّن للنقل البحري والملاحة التجارية، أفادنا الكتاب في معرفة كيف تتمّ عملية النقل البحري، وما يعترض الرحلة البحرية من أخطار، وغرق السفن وضياع السلع والبضائع.

أمّا كتب الحسبة فقد اعتمدنا على عدد منها، أوّلها: "**رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة**" لمحمد بن أحمد بن عبدون التجيبي، و"**رسالة ابن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحتسب**" لأحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف، وقد نشرت هاتان الرسالتان ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، أفادتنا الرسالتان في معرفة مختلف الحرف والصنائع المنتشرة في الأندلس، إضافة إلى الأسواق وأنواعها والسلع المعروضة فيها، كما اعتمدنا على كتاب "**أحكام السوق**" لمؤلفه يحي بن عمر الأندلسي، وتكمن قيمة هذا الكتاب في المعلومات التي يتضمّنها والمتعلّقة بالمعاملات التجارية اليومية للناس في الغرب الإسلامي، وما يعرض لهم في مرافقهم وأسواقهم وبيعهم وشرائهم، ممّا صوّر لنا الحياة العامة تصويرا حقيقيا، خاصة وأنّ مؤلفه نشأ في الأندلس واستقرّ بأفريقية.

كتب التاريخ العام: تتضمّن هذه المؤلفات مادة تاريخية غزيرة، خاصة تلك التي تتحدث عن تاريخ الغرب الإسلامي وعن الدول القائمة به، حيث تهتمّ بالأحداث السياسية والعسكرية التي صاحبت قيام هذه الدول، كما أنّها تحتوي أيضا في طيّاتها على بعض المعلومات الاقتصادية، وإن كانت شحيحة، حيث أعطتنا صورة عن التأثير المتبادل بين السياسة والاقتصاد، ودورهما في قيام الدول وتطوّرها إلى حين أفولها، كما استطعنا من خلالها معرفة الصراع القائم بين الدول المتوسطية، وسعي كل دولة إلى بسط نفوذها السياسي والاقتصادي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين (3-6هـ/9-12م)، وأثر هذه الأحداث السياسية والعسكرية على التجارة البحرية، خاصة بين المغرب الأوسط والأندلس.

ومن أبرز المؤلفات التاريخية التي اعتمدنا عليها كتابا "**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" و"**المقدمة**" لمؤلفهما عبد الرحمن بن خلدون، يحتوي هذان الكتابان على مختلف الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي صاحبت قيام الدول وسقوطها ببلاد الغرب الإسلامي، وقد استطعنا من خلالهما جمع الكثير من المعلومات التي تخصّ العلاقات بين المغرب الأوسط والأندلس سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية، إضافة إلى كتاب "**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**" لمؤلفه ابن عذاري المراكشي، وكتاب "**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**" لمؤلّفه عبد الواحد المراكشي، حيث يحتوي هذان الكتابان على المعلومات لا تقلّ قيمة عن ما كتبه ابن خلدون.

كما أفادتنا بعض المصادر المتخصّصة في تاريخ الدولة الرستمية وتاريخ الإباضية في المغرب الأوسط، في رصد بعض مظاهر الحياة اليومية لسكان المغرب الأوسط ونشاطاتهم الاقتصادية، على غرار كتاب "**أخبار الأئمة الرستميين**" لمؤلفه ابن الصغير المالكي، وكتاب "**سير الأئمة وأخبارهم**" لأبي زكريا الورجلاني، وكتاب "**طبقات مشايخ المغرب**" لمؤلفه أبي العباس الدَّرجيني، وأيضا المصادر التي أرّخت لتاريخ الفاطميّين ببلاد المغرب الإسلامي منها كتاب "**افتتاح الدعوة**" وكتاب "**المجالس والمسايرات**" لمؤلفهما القاضي النعمان، وكتاب "**أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**" لمؤلفه ابن حمّاد.

وفي المقابل أفادتنا بعض المصادر التاريخية الأندلسية في التعرّف على الحياة العامّة في الأندلس وعلى الأنشطة الحرفية والتجارية التي كان يمارسها الأندلسيون، كما أعطتنا صورة عن بعض المنتوجات الزراعية والصناعية الأندلسية، وأوّل هذه الكتب كتاب "**نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب**" لمؤلفه المقّري التلمساني، كذلك مؤلفات لسان الدين بن الخطيب منها: "**الإحاطة في أخبار غرناطة**"، "**مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس**"، "**معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**"، "**اللمحة البدرية في الدولة النصرية**".

كما أن **كتب الفلاحة والطِّبِّ والأعشاب**؛ ساعدت كثيرا في نضوج العمل، حيث يعتني هذا النوع من المؤلّفات بعلم الفلاحة وعلم الطب والأعشاب الطبيّة، وبالرغم من أنّ هذه المؤلفات لا تعنى بالتاريخ، إلّا أنّها تحمل في صفحاتها معلومات قيّمة، خاصة فيما يتعلّق بالفلاحة

والمنتوجات الزراعية، ومن أبرز المؤلفات التي ساعدتنا في بحثنا كتاب **"الفلاحة الأندلسية"** لمؤلّفه ابن العوام الإشبيلي، وقد أفادنا هذا الكتاب كثيرا خاصّة في التعريف بالمزروعات الأندلسية وأماكن زراعتها، إضافة إلى كتاب **"عمدة الطبيب في معرفة النبات"** لمؤلفه أبو الخير الإشبيلي، وكذلك كتابي الطب **"كشف الرموز في بيان الأعشاب"** لمؤلفه عبد الرزاق بن حمدوش، وكتاب **"الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"** لمؤلفه ابن البيطار المالقي.

كما ينبغي علينا أيضا ألّا نغفل فضل كتاب **"لسان العرب"** لمؤلفه ابن المنظور، حيث أفادنا هذا المعجم في التعريف بالكثير من المصطلحات، خاصة ما تعلّق بوحدات قياس المسافات، وكذا التعريف بالأوزان والمكاييل.

المراجع: لم يكن بحثنا ليكتمل لولا وجود عدد من المراجع التي عالجت بعضا من جوانب موضوعنا، ومن أكثر المراجع التي أفادتنا كتابي **"دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي"** و**"النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316هـ-483م)"** لمؤلّفهما عبد السلام الجعماطي، استفدنا من هذين الكتابين المعلومات المتعلّقة بتاريخ الملاحة البحرية في الغرب الإسلامي، وما يتعّلق بالملاحة من أساليب وتقنيات، وعملية النقل البحري، كذلك أفادنا الكتاب الأول في التعرّف على أنواع السفن وخصائص الرحلة البحرية.

أفادتنا بعض المراجع المتخصّصة في التاريخ الأندلسي والمتخصّصة في تاريخ المغرب الأوسط، في الفصل التمهيدي وذلك في التعرّف على مختلف الأحداث والتطوّرات السياسية في كل من المغرب الأوسط والأندلس، منها: **"كتاب تاريخ العرب في إسبانيا نهاية الخلافة الأموية"** لمؤلفه خالد الصوفي، وكتاب **"معالم تاريخ المغرب والأندلس"** لمؤلفه حسين مؤنس، كتاب **"دولة الإسلام في الأندلس"** لمؤلفه محمد عبد الله عنان، كما اعتمدنا على كتاب **"الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي"** لمؤلفه محمد عيسى الحريري، إضافة إلى المراجع التي أفادتنا عن كل ما يخصّ النشاط الاقتصادي سواء في المغرب الأوسط أو الأندلس، أهمّها كتاب **"الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3-4هـ/9-10م"** لمؤلفه جودت عبد الكريم يوسف، الذي اعتمدنا عليه بشكل كبير خاصة عن مقومات الحياة الاقتصادية بالمغرب

الأوسط، كذلك كتاب **"النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة"** لمؤلفه خالد بن حمود البكر.

وأخيرا وليس آخرا، نقول: إنّ موضوع البحث وصعوبته والجهد والوقت المبذول في إنجازه، قد يشفع لنا ما ناله من تقصير، ولا يسعنا في هذا المقام إلّا أن نذكّر بما أورده القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني حينما قال: "رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلّا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"[1].

وفي الأخير نسأل الله تعالى أن يكون عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم.

1- القنوجي صديق بن حسن، أبجد العلوم المسمى الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، ج1، أعدّه للطبع ووضع فهارسه: عبد الجبار زَكّار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط2، 1978، ص: 71.

الفصل التمهيدي:

المغرب الأوسط والأندلس: قراءة جغرافية وسياسية (ق 3هـ إلى 6هـ)

المبحث الأول: التحديد الجغرافي والوضع السياسي بالمغرب الأوسط

1-التحديد الجغرافي لبلاد المغرب الأوسط

2-الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط من ق3 إلى ق6ه

المبحث الثاني: التحديد الجغرافي والوضع السياسي بالأندلس:

1-التحديد الجغرافي لبلاد الأندلس

2-الأوضاع السياسية بالأندلس من ق3 إلى ق6ه

تمهيد:

تعتبر كل من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس من الأقاليم الإسلامية التي كان لها دور بارز في الساحة السياسية خلال العصر الوسيط، فقد شهدت منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط أحداثا سياسية جمّة، والتي أثّرت بشكل مباشر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية في بلاد الغرب الإسلامي، حيث اختلفت فيها الموازين بين القوّة والضعف، وبين الازدهار والركود، وبين التحضّر والانحطاط، وقد شهدت الفترة الممتدة ما بين القرن 3هـ/9م إلى غاية القرن 6هـ/12م تسارعا في الأحداث السياسية والتطورات الحضارية والاقتصادية، والتي كان للعاملين الجغرافي والسياسي الدور الأساسي في قلب موازين الأحداث، كما ساهم هذين العاملين في ربط العدوتين المغربية والأندلسية في عدّة مجالات خاصة في المجالين السياسي والاقتصادي.

المبحث الأول: التحديد الجغرافي والوضع السياسي بالمغرب الأوسط:

1-التحديد الجغرافي لبلاد المغرب الأوسط:

تطوّر مصطلح بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي، وأخذ تسميات ومحدّدات جغرافية مختلفة حسب تطوّر الأوضاع السياسية، حيث يذكر الأصطخري أنّ المغرب: "نصفان يمتدان على بحر الروم، نصف من شرقيّه، ونصف من غربيّه، فأمّا الشرقي فهو برقة[1]، وأفريقية وتاهرت[2]، وطنجة[3] والسوس وزويلة وما في أضعاف هذه الأقاليم، وأمّا الغربيّ فهو الأندلس"[4]، وكذلك نجد المقدسي

1- **برقة**: مدينة كبيرة قديمة بين الإسكندرية وأفريقية، بينها وبين البحر ستة أميال. ينظر: الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط2، 1984، ص: 91.

2 -**تيهرت**: مدينة جليلة من أرض المغرب الأوسط، كانت تسمى قديما عراق المغرب، أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي. ينظر: الحموي ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، م2، بيروت: دار صادر، 1977، ص ص: 7-8.

3- **طنجة**: مدينة بالمغرب قديمة على ساحل البحر، بينها وبين سبتة ثلاثون ميلا في البر. ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص: 395.

4- الأصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، مسالك الممالك، ليدن، 1927، ص: 36.

الذي أطلق مصطلح المغرب على من برقة وأفريقية وتاهرت وسِجلماسة[1] وفاس والسوس الأقصى جزيرة صقلية والأندلس[2].

وفي القرن الخامس للهجرة يوضّح لنا البكري حدود بلاد المغرب أو كما يسمّيها "أفريقية" بقوله: "وحدّ أفريقية طولها من بَرْقَة شرقا إلى مدينة طَنْجَة الخضراء غربا ...، وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان، وهي جبال رمال عظيمة متصلة من الغرب إلى الشرق"[3]، ويذكر المؤرخ المراكشي أنّ: "أول بلاد المغرب ممّا على ساحل البحر الرومي، مدينة أنطابلس المعروفة بِبَرْقَة، وآخرها ممّا على ساحل البحر الأعظم، مدينة طنجة، ومسافة ما بين ذلك على التقريب ست وتسعون مرحلة"[4].

وبالتالي فإنّ النطاق الجغرافي لبلاد المغرب يبدأ من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى بلاد السودان جنوبا، ولذلك أطلق مصطلح المغرب على كل البلاد الإسلامية الممتدّة من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي[5]، وقد قسّمت بلاد المغرب إلى ثلاثة أقسام كبيرة، بحسب قربها أو بعدها عن مركز الخلافة في المشرق، وهي: المغرب الأدنى ويسمّى أفريقية، المغرب الأوسط، والمغرب الأقصى[6]، والذي هو قيد دراستنا من هذه الأقسام الثلاثة هو إقليم المغرب الأوسط.

إنّ تحديد المعالم الجغرافية لإقليم المغرب الأوسط في العصر الوسيط، يعدّ إشكالية تضاربت حولها آراء الجغرافيين والمؤرخين، فمسألة الحدود ترتبط بالظروف السياسية والعسكرية، أين تخضع فيها الدولة للتمدّد والتقلّص تبعا لموازين القوّة والضعف، ثم إنّ التطورات السياسية هي وحدها التي

1- **سجلماسة:** مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب. ينظر: الحموي ياقوت، المصدر السابق، م3، ص: 192.

2- المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت: دار صادر، ط2، 1902، ص: 216.

3- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تح: حماه الله ولد سالم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2013 ، ص: 94.

4- المراكشي محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ليدن، 1881، ص: 254.

5- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة: دار الرشاد، ط 5، 2000، ص: 24.

6- عبد الرؤوف عصام، تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ص: 12.

تصنع حدود الدول والأقاليم، ولذلك فإنّ حدود المغرب الأوسط ظلت تتراوح بين المدّ والجزر حسب حالة جيرانها قوة أو ضعفا[1].

ويُعتبر البكري الجغرافي الأندلسي الشهير (ت 487هـ/1094م)، أوّل من أورد مصطلح المغرب الأوسط، بعد توضيحه لحدود بلاد المغرب الممتدة من برقة شرقا إلى طنجة غربا، حيث قسّمها إلى ثلاثة مناطق هي أفريقية، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، حيث يقول: "وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط "[2].

وكما أشرنا سابقا فإنّ التحديد الجغرافي لإقليم المغرب الأوسط قد تضاربت حوله آراء الجغرافيين والمؤرخين، فالبكري عند قوله إنّ تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، كان قد استند على أساس قبلي، فنراه يقول في تتمّة حديثه عن تلمسان: "وهي دار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر"[3].

وبالرجوع إلى مسألة الحدود فنجد الإدريسي (ت560هـ/1160م) يقول: "مدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بني حماد"[4]، وعن تلمسان يقول: "ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منها"[5]، ثم يذكر بعض مدن المغرب الأوسط منها بلزمة وسطيف وباغاية وبسكرة وتيفاش وقالمة وتبسة وطبنة وتاهرت وتنس والمسيلة ومليانة وشرشال وجزائر بني مزغنة...، إذن فالإدريسي اعتمد في توضيحه لحدود المغرب الأوسط على المعيار السياسي، باعتبار أنّ الدولة الحمادية (395هـ-547هـ/1005م-1153م) التي كان معاصرا لها قامت في المغرب الأوسط، وتوسعت شمالا لتشمل بونة شرقا إلى وهران غربا[6].

1- بوباية عبد القادر وآخرون، مصادر ومراجع تاريخ المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، الجزائر، 2014، ص: 28.

2- البكري، المغرب، ص: 164.

3- البكري، المصدر نفسه، ص: 164.

4- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، م1، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، ص: 260.

5- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 250.

6- بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص ص: 20، 102، 117.

ونجد صاحب كتاب الاستبصار –وهو من جغرافيّي القرن 6هـ– يقول عند ذكره للمغرب الأوسط: "وفيه مدن كثيرة ، وقاعدتها مدينة تلمسان، وحَدّ المغرب الأوسط من وادي مَجْمَع...، وفي العرض من البحر الذي على ساحل البلاد التي ذكرناها في البلاد الساحلية... إلى مدينة تِنْزَلْ، وهي مدينة في أول الصحراء، وهي على الطريق إلى سجلماسة"[1]، ثم يضيف إلى المغرب الأوسط مدينتي وجدة وأجرسيف التي تقع على نهر ملوية[2].

أمّا أبو الفدا (ت 732هـ/1331م) وهو من مؤرخي وجغرافيّي المشرق الاسلامي، فيقسم بلاد المغرب إلى ثلاث قطع هي: المغرب الأقصى، المغرب الأوسط، أفريقية، وعن حدود المغرب الأوسط يقول: "والقطعة الثانية تعرف بالمغرب الأوسط وهي من شرقي وهران عن تلمسان[3]... إلى حدود آخر مملكة بجاية من الشرق"[4]، وهو يضم تلمسان إلى المغرب الأقصى، ويبدو أنّه أخذ معظم معلوماته عن الإدريسي.

ويذكر عبد المنعم الحميري –من جغرافيّي القرن 8هـ/14م– في كتابه الروض المعطار أنّ مدينة بجاية هي قاعدة الغرب الأوسط، ويذكر كذلك أنّ تلمسان هي قاعدة المغرب الأوسط، ويبدو أنّه أخذ معلوماته عن البكري والإدريسي[5].

وفي القرن الثامن للهجرة (14م) يذكر ابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م) أنّ مدينة تلمسان هي قاعدة المغرب الأوسط، كما يعدّد بعضا من مدنه الساحلية كهُنَيْن ووهران والجزائر، كما يعدّ بجاية وقسنطينة من بلاد المغرب الأوسط، إضافة إلى أشير والمسيلة والزاب وبسكرة وجبل أوراس وتبسة، وصولا إلى بونة والتي يذكر أنّ في شرقيّها بلاد أفريقية[6]، فابن خلدون

1- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تع: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ص ص: 176-177.

2-مجهول، المصدر نفسه، ص: 177.

3-**تلمسان**: وهي مدينة أزلية لها سور حصين متقن الوثاقة، وهي من أجلّ البلاد قدرا وأكثرها خيرا ومالا. ينظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص: 248.

4- أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، بيروت: دار صادر، ص: 122.

5- الحميري، الروض المعطار، ص: 80، 135.

6- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2001، ص: 76.

لم يستند في تحديده للمغرب الأوسط على الحالة السياسية في عصره، وإنّما اعتمد في ذلك على توزيع القبائل البربرية في هذا الإقليم.

وفي القرن العاشر للهجرة (16م) يذكر الحسن الوزان أنّ مملكة تلمسان أو المغرب الأوسط يحدّه من الغرب "واد زَا" ونهر ملوية، وصحراء نوميديا جنوبا[1].

وخلاصة القول فإنّ مصطلح المغرب الأوسط ظهر مع القرن الخامس للهجرة، وأوّل من استعمله هو البكري الأندلسي، ثم إنّ معظم الجغرافيين والمؤرخين أجمعوا على أنّ نهر ملوية هو الحدّ الفاصل بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، أمّا الحدود الشرقية للمغرب الأوسط فلم تتّسم بالثبات، إذْ لم تحدّد بحاجز طبيعي كالحدود الغربية، فكانت بين مدّ وجزر بسبب التحولات السياسية والتنافس على الصراع والنفوذ.

2-الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط من القرن 3هـ إلى 6هـ:

عرفت بلاد المغرب الأوسط طوال الفترة الممتدّة من القرن 3هـ/9م إلى غاية القرن 6هـ/12م تغيرات وتقلّبات سياسية كان لها الأثر في تطوّر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقد تداوت عليه عدّة دول هي:

أ-الدولة الرستمية: (160-296هـ/777-909م)

تأسست الدولة الرستمية على يد عبد الرحمن بن رستم الفارسي بتيهرت سنة 160هـ/ 777م أو 162هـ/779م، بعد أن اتفق جمهور من الإباضية وأهل تيهرت على توليته إماما للإباضية[2]، وذكر بعض المؤرخين أنّه تمّت مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمارة أوّلا سنة 144هـ/761م [3]، وذلك بعد بناء مدينة تيهرت، حيث يذكر البكري أنّ في صفر سنة 144هـ هرب عبد الرحمن بأهله وما خفّ من ماله وترك القيروان التي كان واليا عليها، فاجتمعت إليه

1- الوزان الفاسي الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي و محمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983، ص: 07.

2- الورجلاني أبو زكريا يحي بن أبي بكر، سير الأئمة و أخبارهم، تح: إسماعيل العربي، الجزائر: المكتبة الوطنية، 1979، ص: 53.

3- يوسف جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص: 29.

الإباضية واتفقوا على تقديمه وبناء مدينة تجمعهم، فنزلوا موضع تيهرت وهو غيضة أشبّة، فبنوا بها مسجدها الجامع وبعض المساكن[1].

ثم إنّ عبد الرحمن بن رستم حَسُنت سيرته فآوى الأرملة والضعيف، "ولا يخاف في الله لومة لائم"[2]، فبلغت سيرته الآفاق، فأرسل إليه إباضية المشرق أموالا عظيمة ليصلح بها شأنه وشأن المسلمين[3]، فاستطاع بحنكته أن يخلق حالة من الاستقرار السياسي بين دولته الناشئة وبين سائر القوى السياسية الأخرى في بلاد المغرب، فأصبحت دولته مهابة قوية، وهاجر إليها الكثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس، وقصدها التجار والعلماء وأصحاب الحرف والصناعات[4]، فازدهرت تيهرت وأصبحت جليلة المقدار عظيمة الأمر، فنافست قرطبة وبغداد حتى سميت "بعراق المغرب"[5].

ب-إمارة بني سليمان:

أسّسها سليمان بن عبد الله الكامل أخو إدريس الأكبر، بعد فراره من العباسيين بالمشرق سنة (175هـ/791م)، حيث تمكن من إنشاء هذه الإمارة في تلمسان بفضل مساعدة بعض القبائل الزناتية بعدما علموا أنّه من بيت الأدارسة الذين يحكمون المغرب الأقصى، وتعتبر إمارة بني سليمان ولاية كبرى تابعة لدولة الأدارسة، لكنها تميّزت بالاستقلال الداخلي وبحرية التصرّف، وقد اتفق إدريس الثاني مع الأغالبة على جعل شَلف حدا فاصلا بين الدّولتين.

ثم إنّ أحفاد سليمان قد انتشروا في ربوع المغرب الأوسط، بدء من حدود بجاية شرقا، وحتى مدينة نمالتة (مغنية حاليا) غربا، حيث نافسوا بني الأغلب والرستميين، فنُسبت إليهم أماكنا ومدنا في المغرب الأوسط منها سوق حمزة نسبة إلى أمير هاز حمزة بن الحسن بن سليمان، وسوق إبراهيم نسبة إلى إبراهيم بن محمد بن سليمان[6]، ويذكر البكري أنّ مدينة حمزة بناها حمزة بن

1- البكري، المغرب، ص: 154.

4- المالكي ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين، تح وتع: محمد ناصر و إبراهيم بحاز، ص ص: 29-30.

3-ابن الصغير، المصدر نفسه، ص: 28.

4- الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160هـ-296هـ)، الكويت: دار القلم، ط3، 1987، ص: 107.

5- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، البلدان، ليدن، 1860، ص: 143.

6- الدراجي بوزياني، دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، الجزائر: دار الكتاب العربي، ص ص: 461-468.

الحسن بن سليمان، وأنّ الحسن بن سليمان هو الذي دخل المغرب، وكان له من البنين حمزة هذا وعبد الله وإبراهيم وأحمد ومحمد والقاسم، وكلهم أعقب وعقبهم هناك[1].

ج-الدولة الفاطمية:

كان المغرب الأوسط في القرن الثالث للهجرة مقسّما بين إمارات حفظت التوازن بين ذوي السلطان، وأرضت القبائل المتعادية باستقلال بعضها، فكان ذلك الانقسام مسكّنا للثورات ومنشّطا للحياة العلمية والاقتصادية، لكن في النصف الأخير من هذا القرن ساءت الحياة الاقتصادية، وارتفعت الأسعار وظهر قحط شديد عمّ المغرب والأندلس، فعانت بلاد المغرب من الضعف الاقتصادي والانقسام السياسي، فاستغل أئمة الشيعة الوضع وأرسلوا دعاتهم إليه لينشؤوا دولة به[2].

فأرسل الإمام جعفر الصادق[3] الحلواني وأبا سفيان إلى أرض المغرب "البُور" ليحرثاها حتى يجيء صاحب البذر، على حدّ تعبيره، فاستقرّا ببلاد كتامة ينشران مذهبهما، وفي سنة 270هـ /883م أرسل شهر بن حوشب الحسن بن أحمد المدعو "أبو عبد الله الشيعي" إلى بلاد المغرب لنشر الدعوة الشيعية الإسماعيلية[4]، وهكذا أخذ أبو عبد الله الشيعي في بثّ المذهب الإسماعيلي الرافضي بين الكتاميين، وبدأ يمهّد لظهور "المهدي"، ثم أعلن إمامة الفاطميين.

وفي جمادى الأخيرة من سنة 296هـ/909م هزم أبو عبد الله الشيعي الأمير الأغلبي زيادة الله في الأربس، ودخل رقّادة[5] في رجب 296هـ، ثم زحف بعد ذلك إلى سجلماسة لتحرير

1- البكري، المغرب، ص: 149.

2- الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، تق وتص: محمد الميلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص: 130.

3-**جعفر الصادق**: هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية، وكان من سادات أهل البيت ولقّب بالصادق لصدقه في مقالته وفضلُه أشهر من أن يذكر. ينظر: ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، م1، بيروت: دار صادر، ص: 327.

4- جمال الدين عبد الله محمد، الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، القاهرة: دار الثقافة، 1991، ص: 42.

5- **رقّادة**: وهي مدينة كبيرة تبعد عن القيروان بأربعة أميال، وهي من أكثر بلاد أفريقية بساتين وفواكه، بناها الأغالبة وأصبحت عاصمتهم ودار مملكتهم. الحميري، الروض المعطار، ص: 271.

عبيد الله المهدي الذي قبض عليه الأمير المدراري اليسع بن مدرار وسجنه، فهزم في طريقه زناتة، ودخل تيهرت وقتل اليقظان آخر أئمة الرستميين بها، ثم دخل سجلماسة وحرّر عبيد الله وابنه، ثم ارتحلوا جميعا إلى رقادة، وبويع بها عبيد الله البيعة العامة وتلقّب بالمهدي، وذلك في ربيع الثاني من سنة 297هـ/910م[1]، وهكذا أخضع أبو عبد الله الشيعي معظم بلاد المغرب الأوسط، بل وصل نفوذ الفاطميين إلى المغرب الأقصى غربا[2].

ج-الدولة الحمادية:

تعتبر الدولة الحمادية شعبة من دولة آل زيري، حيث أنّ المنصور بن بلكين بن زيري كان قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة، وكان هذا الأخير يتداولها مع أخيه يطوفت وعمّه أبي البهار، ثم استقل بها سنة 387هـ/997م أيام باديس بن أخيه المنصور، وكان باديس قد دفع عمه حماد لحرب زناتة سنة 395هـ/1005م بالمغرب الأوسط من مغراوة وبني يفرن، وشرط له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه، وأن لا يستقدمه، فأثخن حماد في زناتة القتل وظفر عليهم، ثم بعدها اختطّ مدينة القلعة (قلعة بني حماد) بجبل كتامة سنة 398هـ/1007م، ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة بعد أنّ خربهما، كما نقل إليها جراوة، وتمّ بناؤها وتمصيرها على رأس سنة 400هـ/1009م[3].

دام عمر الدولة الحمادية ما يقرب قرنا ونصف القرن، منذ اختط حماد القلعة إلى سقوطها بيد عبد المؤمن بن علي الموحدي (398هـ-547هـ/1007م-1102م)، بَيْدَ أنّ العمر الذي استقرت فيه الدولة كدولة ذات كيان سياسي محدّد معترف به في بلاد المغرب وغيرها، يمتدّ من سنة 408هـ/1018م إلى سنة 547هـ/1152م، إذ أنّ الفترة الممتدة من 395هـ إلى 408هـ كانت فترة صراع من أجل إرساء دعائم قيام الدولة، وقد حكم الدولة على امتداد هذه الفترة تسعة أمراء اختلفوا قوة وضعفا وفي أسلوب الحكم، وكان حماد مؤسس الدولة أول أمرائها، ثم خلفته ذريته من بعده إلى أن جاء يحي بن العزيز الحمّادي، فكان تاسع وآخر أمراء هذه الدولة،

1- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر، ص ص: 132-137.

2- جمال الدين عبد الله محمد، الدولة الفاطمية، ص ص: 86-87.

3- ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2000، ص: 227.

وفي عهده عزم عبد المؤمن بن علي على دخول المغرب الأوسط، فدخل بجاية في 24 جمادى الأولى 547هـ/ 27 أوت 1152م، وكان هذا التاريخ إيذانا بسقوط الدولة الحمادية[1].

د-دولة المرابطين: (462-541هـ/1070-1147م)

ظهرت دولة المرابطين في شكل دعوة دينية إصلاحية يقودها الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين الجزولي، والأمير يحي بن إبراهيم الجدالي، اللّذان استطاعا أن يجمعا كلمة الملثمين ويوحّدا قبائلهم، أمّا عن أصولهم ومواطن سكناهم فيذكر صاحب كتاب الحلل الموشية أنّ هؤلاء الملثمون ينتمون إلى لَمتونة، وهم من أولاد لَمَتْ وجدالة ولمط ومسطوف، ينتسبون إلى صنهاجة، وهم ظواعن في الصحراء، رحّالة لا يطمئن بهم منزل وليس لهم مدينة يأوون إليها، ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، وهم على دين الإسلام وأتباع السنة[2].

كان ابتداء أمر المرابطين أنّ أحد بني جُدالة وهو يحي بن إبراهيم الجدالي، كان قد توجه لأداء فريضة الحج ومرّ في إيابه على مدينة القيروان وذلك سنة 440هـ/1048م، فحضر بها مجلس الفقيه المدرّس أبي عمران الفاسي، فأخبره عن شأن قبيلته ووطنه، وطلب منه أن يرسل من يعلّم قومه أمور دينهم، فأرسله إلى فقيه من فقهاء المغرب الأقصى يدعى وَجَّاج بن زَلُّو اللمطي، فرحّب به وأكرمه وأرسل معه عبد الله بن ياسين الذي سار معه إلى قبيلة جدالة، فاجتمعت عليه القبيلة وأطاعته[3]، غير أنّ فئة من الزعماء والأسياد في القبيلة لم تعجبهم تعاليم ابن ياسين، فساءت العلاقة بينهم فانتهبوا داره وهدموها، فلم يكن لعبد الله بن ياسين بدّ سوى الارتحال إلى جزيرة منعزلة بنهر السنغال، وصحبه بعض مُريديه وعلى رأسهم يحي بن إبراهيم .

وفي الجزيرة أسّس عبد الله بن ياسين رباطا لتربية وتكوين أتباعه على المذهب المالكي، وتوافد عليه الناس بعد ذياع صيته، فكثر أتباعه وسمّاهم المرابطين، حينها أعلن عن ضرورة الأمر

1- عويس عبد الحليم، دولة بني حماد، القاهرة: دار الصحوة، ط2، 1991، ص ص: 102، 105، 109.

2- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط1، 1979، ص: 17.

3- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج4، تح ومر: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ط3، 1983، ص ص: 7-9.

بالمعروف والنهي عن المنكر، أين شرع في توحيد قبائل صنهاجة الصحراء، وفي سنة 447هـ/1055م توفي يحي بن إبراهيم الجدالي، فعيّن عبد الله بن ياسين مكانه يحي بن عمر اللمتوني، الذي واصل غزواته في المغرب الأقصى، بعد ذلك ترك القيادة لابن عمه يوسف بن تاشفين، وتوجه إلى الصحراء لمواصلة فتوحاته وذلك سنة 452هـ/ 1060م، ويعتبر يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين، فما إن حلّت سنة 467هـ/1074م، حتى كان قد أحكم قبضته على المغرب الأقصى[1].

بعد ذلك قرّر يوسف بن تاشفين المسير إلى المشرق بهدف القضاء على الزناتيين، فتوجه نحو تلمسان ودخلها وقتل صاحبها الأمير العباس بن بختي المغراوي، وولّى عليها محمد بن تينغمر وذلك سنة 475هـ/1080م، وبنى قربها مدينة تاجْرَرْت، ثم تتبّع زناتة شرقا فاستولى على وهران وتنس وجبل الونشريس ووادي شلف، حتى دخل مدينة الجزائر، وتوقّف عند حدود مملكة بجاية التي يحكمها بنو حماد فرع من صنهاجة الشمال، وقد آثر أنسباءه الحمّاديين على الزناتيين المعادين له[2]، وهكذا صار المغرب الأوسط في القرن 5هـ/11م مقسما بين دولتين، الدولة المرابطية في الجهة الغربية وقاعدتها تلمسان، والدولة الحمادية في الجهة الشرقية وعاصمتها بجاية.

هـ-الدولة الموحدية:

ظهرت دولة الموحدين في القرن السادس للهجرة وامتدّت لتشمل بلاد المغرب والأندلس، محقّقة بذلك إنجازا تاريخيا كبيرا في توحيد العدوتين المغربية والأندلسية تحت كيان سياسي واحد، أدّى إلى التطور السياسي والتمازج الحضاري بين العدوتين، ويعتبر محمد بن عبد الله بن تومرت مؤسس دعوة الموحدين وواضع أسس دولتهم، ولد بن تومرت حوالي عام (475هـ/1084م)، في قبيلة هَرْغَة إحدى قبائل المصامدة في السوس الأقصى[3]، كان أهل بيته أهل نسك ورباط، وشبّ

1- حسن إبراهيم حسن، الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، القاهرة: مكتبة الخانجي بمصر، ط1، 1980، ص ص: 20-26.

2- عباس نصر الله سعدون، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، ط1، 1985، ص ص: 50-51-50.

3- موسى عز الدين عمر، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص: 35.

محمد قارئا محبا للعلم، وكان يسمى "أَسَافو" ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها[1].

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت، فبعضهم قال بأنّه عربي، وينتهي نسبه إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن طريق ابنته فاطمة وزوجها علي –رضي الله عنهما–، والبعض الآخر يجعل نسبه بربريا صرفا، والبعض الآخر يجعله نسبا مختلطا بين البربر والعرب، هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أنّ المهدي عربي النسب قرشي الأصل من صلب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–[2]، إلا أنّ بعض المؤرخين والباحثين يطعنون في هذا النسب، ويرون أنّه منتحل بقصد تبرير المهدية التي ادّعاها أو نسبت إليه، والحقيقة أنّ مطاعن هؤلاء لا تقوم على حجج قطعية[3].

وفي سنة 500هـ/1106م ارتحل محمد بن تومرت إلى المشرق لطلب العلم، فمرّ أوّلا بالأندلس، ودخل قرطبة وهي إذ ذاك دار علم، ثم أجاز إلى الإسكندرية، وحجّ ودخل العراق، ولقي جملة من العلماء وفحول النظّار، فأفاد علما واسعا[4]، وحفظ الكثير من حديث النبي –صلى الله عليه وسلم–، ونبغ في علم الأصول والعقيدة، ولقي جملة من العلماء فأخذ عنهم العلم، وكان على رأسهم الشيخ الإمام أبو حامد الغزالي[5]، وعن لقاء ابن تومرت بالغزالي يورد ابن القطّان في كتابه نظم الجمان الحكاية بالتفصيل، ويذكر أنّ ابن تومرت غاب في رحلته لطلب العلم ما يقارب خمسة عشر سنة من سنة 500هـ إلى سنة 514هـ/1120م[6].

1- ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 301.

2- الصلابي علي محمد، دولة الموحدين، عمّان: دار البيارق، ص: 7.

3- النجار عبد المجيد، تجربة الاصلاح في حركة المهدي بن تومرت، فرجينيا-و.م.أ: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1995، ص: 56.

4- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص: 301-302.

5- الفاسي علي بن عبد الله بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 172.

6- ابن القطان أبو محمد الحسن بن علي الكتامي المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تق وتح: محمود علي مكي، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1990، ص ص: 62، 72-73.

وفي عام 510هـ/1116م كرّ راجعا إلى مسقط رأسه، في رحلة استغرقت أربع سنوات، كان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمرّ بها، يبثّ العلم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[1]، وببجاية نزل ضيعة يقال لها ملّالة، وبها لقيه عبد المؤمن بن علي[2]، الذي انضم إلى دعوته وصار من أقرب أتباعه، ومنها ارتحل المهدي إلى المغرب وهو في جملته، ولحق بالونشريس، وصحبه منها البشير من جملة أصحابه، ثم لحق بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره، واستمر على طريقه إلى فاس، ثم إلى مكناسة، ولحق بعدها بمراكش وأقام بها، فلقي بها الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين بالمسجد الجامع في صلاة الجمعة، فوعظه وأغلظ له القول[3].

وفي مراكش دخلت دعوته في طور جديد، فاتخذ مما اعتبره مفاسد الطبقة العليا مادة لوعظه، وهدفا لأمره ونهيه، فكثر أتباعه، ثم طلبه أمير المسلمين علي بن يوسف وجمع له الفقهاء للمناظرة، فلم يكن فيهم من هو ندّ له، ولم يفهموا حتى سؤاله فضلا عن الجواب، عدا رجل من أهل الأندلس واسمه مالك بن وهيب، الذي استشعر حدّة نفسه وذكاء خاطره واتساع عبارته، فأشار على أمير المسلمين بقتله[4] قائلا له: "اجعل عليه كبلا، كي لا تسمع له طبلا!"، لكن أمير المسلمين لم يقتله بل أمره بأن يخرج من بلاده[5].

فسار إلى أغمات، وفيها تبلور التحول في أسلوبه، فخلع بيعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه، وعندها دخل مرحلة الثورة، ثم سار إلى موطن قبيلة هرغة ونزل رباط إيجيليز سنة 514هـ/1120م، وقد وُفِّق في اختيار موضع ثورته، فالمصامدة هم عصبيته، وفيها انضم إليه الكثير من الأتباع، وفي رمضان 515هـ/1121م أعلن مهديته وبايعه أصحابه، ثم هاجر بعدها إلى تينْمَلَلْ وبسط نفوذه على مصامدة جبل درن، وسمّى أتباعه بالموحدين، وسمّى المرابطين المجسّمة والحشم والزَّراجنة، فوجّه إليه المرابطون جيوشا فهزمها، وكانت الحرب بينه وبينهم سجالا، وفي عام 524هـ/1130م وجّه جيشا إلى مدينة مراكش، لكنه مُنِيَ بهزيمة كبرى في معركة البُحيرة، فقد

1- النجار عبد المجيد، تجربة الإصلاح، ص: 62.

2- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، ص: 137.

3- ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 303.

4- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ص: 139-140.

5- البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971، ص ص: 27-28.

فيها جندا كثيرا وقادة عظماء، نجا منهم عبد المؤمن بن علي، ولم يلبث بعدها المهدي بن تومرت إلا قليلا حتى توفي سنة 524هـ[1].

بعد وفاة المهدي خشي الموحدون من تفرّق كلمتهم وتصدّع كيانهم، فأخفوا أمر وفاته، وبايع أصحابه المقربين عبد المؤمن بن علي الكومي في شهر رمضان من سنة 524هـ بيعة خاصة، واستمرت مدة ثلاث سنوات، وفي 20 من ربيع الأول عام 527هـ/1133م بايع الموحدون عبد المؤمن بن علي بيعة عامة بجامع تينملل، لما عرفوا من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه، وبعد بيعته شرع عبد المؤمن في إعادة الثقة إلى نفوس الموحدين وتجهيزهم للمعاركة المقبلة، فوجه أولى غزواته إلى تادلة في وادي درعة سنة 527هـ[2].

وهكذا بدأ الموحدون يسيطرون على حصون المرابطين حول أغمات ويبسطون نفوذهم على منطقة السوس، على الرغم من بلاء الجند الرومي المرابطي بقيادة الرُّبُرْتِير، ثم زحف عبد المؤمن بقواته غربا إلى وهران التي فر إليها تاشفين بن علي فدخلها سنة 539هـ/1144م، ثم إلى تلمسان من نفس السنة، وبعدها زحف إلى المدن المغربية التي استولى عليها الواحدة تلوى الأخرى، إلى أن دخل الحاضرة مراكش في شوال 540هـ/1145م، ووفدت إليه جميع قبائل المصامدة طائعة[3].

بعد استيلائه على المغرب الأقصى وقضائه على دولة المرابطين، وجّه عبد المؤمن بن علي أنظاره إلى المغرب الأوسط، وبالتحديد إلى الدولة الحمادية ببجاية، فخرج من مراكش قاصدا بجاية التي كان يحكمها يحي بن العزيز الصنهاجي، فحاصرها عبد المؤمن وضيّق عليها أشدّ التضيّيق، ففرّ يحي بن العزيز إلى بونة، ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بني حماد[4].

لمّا سمع سكان أفريقية بغزوات عبد المؤمن بن علي استنجدوا به لحمايتهم ضد اعتداءات النورمانديين، الذين احتلوا مناطق عديدة من أفريقية كجزيرة جربة والمهدية ووصلوا إلى مدينة تونس، فجهّز عبد المؤمن سنة 554هـ/1159م جيشا كبيرا برا وبحرا، وزحف به على مدينة

1- موسى عز الدين عمر، الموحدون في الغرب الإسلامي، ص ص: 38-41.
2- الصلابي علي محمد ، دولة الموحدين، ص ص: 98، 102.
3- موسى عز الدين عمر، المرجع السابق، ص ص: 41-43.
4- المراكشي، المعجب، ص: 152.

تونس فاستولى عليها عنوة، ومنها توجه إلى المهدية فحاصرها برا وبحرا مدة ستة أشهر، وتمكن من تحريرها سنة 555هـ/1160م، وفي نفس الوقت تمكّن من تحرير مدن قابس وصفاقس وقفصة وطرابلس وبايعه سكانها، وعيّن محمد بن فرج الكومي حاكما عليها، وهكذا تمكن عبد المؤمن من توحيد بلاد المغرب لأول مرة في تاريخها، وأصبح سيدا عليها[1].

المبحث الثاني: التحديد الجغرافي والوضع السياسي بالأندلس (3هـ و6هـ):

1-التحديد الجغرافي لبلاد الأندلس:

يطلق مصطلح الأندلس على ما ساده المسلمون من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، لأنّ المسلمين لما فتحوا الأندلس، فتحوه كله إلى جبال البرت في الشمال، وإلى خليج سكاي الذي يسميه العرب حائط الإفرنجة[2]، أمّا عن أصل تسمية الأندلس فقد اختلفت روايات المؤرخين والجغرافيين، ومن هذه الروايات التاريخية:

أنّ أصل تسمية الأندلس مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرماني، احتلت شبه الجزيرة الإيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع حتى الخامس للميلاد، فسميت البلاد باسمها فاندلسيا (Vandalusia) أي بلاد الوندال، ثم عُرِّبت التسمية لتصبح الأندلس، وصار المؤرخون والجغرافيون المسلمون يطلقونها على كل شبه الجزيرة الإيبيرية، والتي يسمونها أيضا الجزيرة الأندلسية، واستعمل للدلالة على كل المناطق التي سكنها المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الإيبيرية[3]، وأما هذه النسبة "الإيبيرية" فهي نسبة إلى أُمة عمّرت تلك البلاد، ولم يعرف قبلها هناك أمّة أخرى، وجميع الذين توطّنوا هذه الجزيرة إنما جاءوا بعد أمة الإيبير هذه[4]، ولا يزال لفظ أندالوسيا (أندالوثيا) Andalucia، يطلق على الثلث الجنوبي لإسبانيا إلى الآن، والذي يضمّ الولايات الجنوبية مثل قرطبة وغرناطة وإشبيلية[5].

1- عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، الجزائر: دار ريحانة، ط1، 2002، ص: 71.

2- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة: دار الرشاد، ط5، 2000، ص: 262.

3- حجي عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، بيروت: دار القلم، ط2، 1981، ص: 37.

4- أرسلان شكيب، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج1، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص: 31.

5- مؤنس حسين، المرجع السابق، ص: 263.

والرواية الأخرى هي ما أورده المؤرخون والجغرافيون المسلمون، منهم البكري الذي ذكر في كتابه "المسالك والممالك" أنّ: "اسمها في القديم إبارية من وادي أبرة، ثم سمّيت إشبانية نسبة إلى رجل ملكها في القديم اسمه أشبان، وقيل إنّما سميت بالإشبان، لأنّ الإشبان سكنوها في أول الزمان على مجرى النهر وما والاه، وقال قوم إنّ اسمها على الحقيقة إشبارية مسمّاة من بشيرى، الكوكب المعروف بالأحمر، وسمّيت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها"[1].

ويذكر الحميري أنّ اسم الأندلس في اللغة اليونانية إشبانيا، وأنّ أوّل من اختطّها هم بنو طوبال بن يافث بن نوح وسكنوها في أوّل الزمان[2]، ثم يورد رواية مشابهة لرواية البكري، ويبدو أنّه أخذها عنه فيقول: إنّ اسمها في القديم أبارية، ثم سميت باطقة، ثم سميت إشبانيا...[3].

وبالنسبة للتحديد الجغرافي للأندلس، فيصفها ابن عذاري بأنها جزيرة مركّنة ذات ثلاثة أركان، قريبة من شكل المثلث، الركن الواحد منها عند صنم قادس، والركن الثاني في بلاد جليقيّة، والركن الثالث بناحية الشرق[4]، ويقول ابن حوقل في وصفها أيضا أنّها من نفائس جزائر البحر، ومن الجلالة في القدر، بما حوته واشتملت عليه، طولها شهر في عرض نيّف وعشرين يوما، وفيها غامر وأكثرها عامر مأهول، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والأنهار العذبة، والرخص والسعة في جميع الأحوال[5].

وعن محاسن الأندلس يقول المقّري: "محاسن الأندلس لا تُستوفى بعبارة، ومجاري فضلها لا يُشق غباره، وأنّى تُجارى وهي الحائزة قصب السبق، في أقطار الغرب والشرق"[6]، وعن مناخها يضيف المقري أنّ الأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها:

1- البكري أبو عبيد، المسالك والممالك، تح وتق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992، ص: 890.

2- الحميري، الروض المعطار، ص: 32.

3- الحميري محمد بن عبد المنعم، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تص وتع: ليفي بروفنسال، بيروت: دار الجيل، ط2، 1988، ص ص: 1-2.

4- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج2، تح ومر: كولان وليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة، ط2، 1980، ص: 1.

5- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992، ص: 104.

6- المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1988، ص ص: 125.

أندلس غربي وأندلس شرقي، فالأندلس الشرقي ما صبّت أوديته إلى البحر الرومي المتوسط، والأندلس الغربي ما صبّت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط، فالشرقي منها يمطر بالريح الشرقية وبها صلاحه، والغربي يمطر بالريح الغربية وبها صلاحه[1].

وأجمل وصف قيل في الأندلس ما أورده صاحب كتاب تاريخ الأندلس نقلا عن الرازي: "الأندلس بلاد مباركة طيّبة الماء والهواء، وهي شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عرفها وذكائها، أهوازية في عظيم جبايتها وكثرة جبالها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها، وهي أخصب أرض الله تعالى وأعمرها وأكثرها بركة، وأغزرها نسلا، وأعمّها خيرا، طولها مسيرة ثلاثين يوما، وعرضها مسيرة تسعة أيام، يشقها أربعون نهرا كبارا"[2].

2-الأوضاع السياسية في الأندلس من ق3هـ إلى 6هـ:

استقر المسلمون في بلاد الأندلس ثمانية قرون ونيّفا، منذ أن فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة 92هـ/711م، إلى أن سقط آخر معقل للمسلمين وهي غرناطة في أيدي الجيوش القشتالية في 2 من ربيع الأول 897هـ/ 2 من جانفي 1492م، وكانت هذه الحقبة التاريخية الطويلة عامرة بالأحداث السياسية والتطورات الحضارية، مرّت خلالها الأندلس بعدّة عهود، تقلّبت خلالها بين القوة والضعف وبين النصر والهزيمة، كان أوّلها عهد الفتح الذي استمر حوالي أربع سنوات(92-95هـ/711-714م)، ثم تلاها عهد الولاة من 95هـ/714م إلى 138هـ/755م، وقد حكم الأندلس في هذا العهد –الذي استمر حوالي 42 سنة- عشرون واليا تقريبا، كانوا تابعين للخلافة في دمشق مباشرة أو إلى ولاية أفريقية[3]، ويهمّنا في دراستنا العهود التي شملتها الفترة الممتدة من القرن 3هـ إلى 6هـ، وهي عهد الدولة الأموية، ملوك الطوائف، وعهد المرابطين ثم الموحدين، ويمكن تلخيص هاته العهود الأربعة فيما يلي:

1- المقري، نفح الطيب، م1، ص ص: 131-132.

2- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، تح: عبد القادر بوباية، الجزائر: مؤسسة البلاغ، 2013، ص ص: 42-43.

3- الحجي عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي، ص: 39.

أ-الدولة الأموية:

شهدت الأندلس خلال هذه المرحلة قيام دولة مركزية قوية، كان لها الدور البارز في ترسيخ الوجود الإسلامي بالأندلس، وتحقيق الازدهار الحضاري في مختلف المجالات، وقد تأسست هذه الدولة على يد أحد الأمويين الفارين من المشرق من بطش العباسيين، حيث استطاع إحياء أمجاد الدولة الأموية بالأندلس، وترسيخ كيانهم بها، ويمكننا تقسيم مراحل هذه الدولة إلى عهدين مختلفين هما عهد الإمارة وعهد الخلافة.

-عهد الإمارة: (138هـ-316هـ /755م-929م)

بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق على يد العباسيين، فرّ الكثير من وجوه بني أمية من بطش العباسيين الذين لاحقوهم قتلا وحبسا، فهربوا في الآفاق وكانوا يسمعون الرويّة أنّ مستراحهم بالمغرب، فنزع أكثرهم إلى أفريقية، وكان من النفر القليل الذي نجا من سيوف العباسيين من أمراء بني أمية، أمير شاب هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المولود سنة 113هـ/731م، حيث تخلّص هذا الأمير من موت مؤكّد على أيدي عمال العباسيين بطريقة فذّة اعتمدت على الذكاء والدهاء وروح المغامرة أيضا، ففرّ من قرية على ضفة الفرات إلى فلسطين، وبها لحقه غلاماه بدر وسالم، فتوجهوا نحو البلاد المصرية، ثم خرج قاصدا القيروان، ثم عبر بعد ذلك إلى أراضي البربر، فجال بها بعض الوقت، وبعد خمس سنوات من مواجهة الأخطار والتحديات، اتجه إلى مدينة طنجة لينزل فيها بين أهله وأقاربه، إذ كانت أمه من قبيلة نفزة البربرية الضاربة في أحواز هذه المدينة، مطمئنا إلى حياته بصورة تامّة بعد طول خوف وفزع[1].

وفي طنجة علم عبد الرحمن بأخبار الأندلس وما آل إليه أمر البلاد من اضطراب، وفي أواخر سنة 136هـ/753م تطلّع إلى استغلال القلائل في الأندلس، والعمل على استرداد ملك بني أمية فيها، وانتهز فرصة الخلاف الشديد بين القيسية واليمنية، وأرسل مولاه بدر لنشر دعوة بني أمية بين أهل الشام وأنصار الأمويين، وكانت رياسة الأمويين بالأندلس لزعيمين من موالي بني

1- نعنعي عبد المجيد، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس: التاريخ السياسي، بيروت: دار النهضة العربية، ص ص: 136-138.

أمية، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد، واتفق معهما بدر على بثّ الدعوة بين اليمنية، الذين كانوا يتمنون الخلاص من الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري[1].

وهكذا بدأوا في نشر الدعوة وجمع الأنصار من مواليهم، واتصلوا بالزعماء الذين كانوا يتوقعون تأييدهم، من أبرزهم الصُّمَيْل بن حاتم الكلابي الذي كانت تربطه مع موالي بني أمية علاقات حسنة، إلا أنّ هذا الأخير تردد وأبدى تحفظه من الدعوة ريثما يطلع شريكه في الأمر يوسف الفهري، لكنّه سرعان ما رفض ورأى في مجيء عبد الرحمن ذهاب ملكه ونفوذه[2]، ولما تيقّنوا من كثرة أنصار بني أمية، أرسلوا إلى عبد الرحمن بن معاوية يطلبون منه القدوم إلى الأندلس[3].

وفي سنة 138هـ/755م دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، فنزل قرية طُرْش بكورة إلْبِيرَة[4]، فأقبل الناس من كل مكان إليه، وفي طريق عودة يوسف الفهري والصميل بن حاتم من سرغوسة بعد أن تمّ القضاء على المتمردين فيها، وصلتهما أخبار بنزول عبد الرحمن وتحلّق الجموع حوله، وهكذا وفي "مسارة" على ضفة الواد الكبير التقى الجمعان، وانهزم الفهري وأصحابه، واستولى عبد الرحمن على الملك، وتمّت له بيعة العامة بقرطبة يوم العاشر من ذي الحجة من عام 138هـ/ 15 ماي 756م، وهو ابن خمس وعشرين سنة[5].

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالدَّاخل أميرا على الأندلس، وقد جمع صفات كثيرة، منها السيادة والحزم والكياسة وبعد الهمّة وحسن التدبير، تمكّن خلالها من إرساء قواعد دولته بالأندلس بمساعدة رجال من موالي بني أمية[6]، وقد تداول على حكم الأندلس من مبايعة عبد الرحمن الداخل حتى مبايعة عبد الرحمن الناصر بالخلافة سبعة أمراء هم:

1- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، ص ص: 60-61.

2- مصطفى خزعل ياسين، بنو أمية في الأندلس ودورهم في الحياة العامة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في فلسفة التاريخ الإسلامي، إشراف: صالح ناطق مطلوب، جامعة الموصل، 2004، ص: 26.

3- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص: 61.

4- **إلبيرة:** وهي من أشرف كُوَرِ الأندلس، تقع في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الإيبيرية، أشهر مدنها غرناطة وبجّانة والمرية. ينظر: ابن غالب محمد بن أيوب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس، اعتنى به: لطفي عبد البديع، مجلة المخطوطات العربية، م1، عدد1، جامعة الدولة العربية، ص: 12.

5- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج2، ص ص: 46-48.

6- حسين مؤنس، معالم، ص: 299.

1-عبد الرحمن الأول بن معاوية حكم من 138هـ/756م إلى سنة 172هـ/788م.
2-هشام الأول بن عبد الرحمن بن معاوية، حكم من سنة 172هـ/788م إلى سنة 180هـ /796م.
3-الحكم الأول بن هشام الأول، حكم من سنة 180هـ/796م إلى سنة 206هـ/822م.
4-عبد الرحمن الثاني بن الحكم الأول، حكم من سنة 206هـ/822م إلى سنة 238هـ/852م.
5-محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني، حكم من سنة 238هـ/852م إلى سنة 273هـ/886م.
6-المنذر بن محمد الأول، حكم من سنة 273هـ/886م إلى سنة 275هـ/888م.
7-عبد الله بن محمد الأول شقيق المنذر بن محمد، حكم من سنة 275هـ/888م إلى سنة 300هـ/912م[1].

-عهد الخلافة: (316هـ-422هـ/ 929م-1031م)

بعد مضي زهاء قرن منذ أن استقر ملك بني أمية بالأندلس، وتوطّدت أسس الدولة الجديدة، وأخذت تزهو وتزدهر في عهد عبد الرحمن بن الحكم، ولكنّ عوامل الانتقاض والتفكّك سرت فجأة إلى هذا الصرح القوي، ولبثت بالأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجري، أواخر القرن التاسع الميلادي، تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن، حتى لاح مدى لحظة أنّ ملك بني أمية أضحى على وشك الانهيار.

توفي الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس في مستهل ربيع الأول من سنة 300هـ/912م بعد حكم طويل عاصف، فخلفه في نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد، وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره[2]، وكان والده محمد قد قتله أخوه المطرّف بن عبد الله في صدر دولة أبيهما عبد الله، وترك ابنه عبد الرحمن هذا وهو ابن العشرين يوما، فتولى الإمارة وهو شاب، وبالحضرة جماعة أكابر من أعمامه وأعمام أبيه، فلم يعترض معترض واستمر له الأمر، وكان شهما صارما[3].

1- ج.س.كولان، الأندلس، تر: إبراهيم خورشيد وآخرون، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1980، ص ص: 118-120.
2- مؤنس حسين، دولة الاسلام في الأندلس، ص: 373.
3- الحميدي، جذوة المقتبس، ص: 12.

تابع الأمير عبد الرحمن بن محمد العمل الذي بدأه جده في إخماد الثورات والتمردات، إلّا أنّه اصطنع لذلك وسيلة أخرى، فاستبدل بسياسة عبد الله الرجعية الملتوية سياسة تتسم بالصدق والجرأة والإقدام، فصارح الثوار من الإسبان والبربر والعرب أنّ ليست الجزية هي غاية ما يطلبه منهم، بل أنّه يطلب أيضا حصونهم ومدنهم، ووعد الذين يخضعون له بالعفو الشامل، وهدّد من يمتنع منهم بالعقاب الشديد، وخيّل للناس أنّ هذه المطالب لابد وأن تدفع بالأندلس كلّها إلى التكاتف ضده، لكن لم يحدث شيء من ذلك أبدا، فلم تجر شدّته المتاعب عليه بل كبحت الجماح، وهكذا تمكن عبد الرحمن الثالث من القضاء على الثورات والتمردات[1]، فقضى نهائيا على حركة ابن حفصون[2]، كما قام بالكثير من الغزوات إلى الدول النصرانية في الشمال، فألقى الرعب في القلوب، فاضطروا للصلح ودفع الجزية في بعض السنوات، هذا وقد تمكن أيضا من رد الخطر الفاطمي عن الأندلس[3].

وبعد أن أخضع الأمير عبد الرحمن الأندلس ووحدها تحت سلطانه، رأى أن يعلن نفسه خليفة، ويلقب بأمير المؤمنين بدلا من لقب "أمير" الذي ورثه عن أسلافه الأمراء الأمويين، وفي يوم الجمعة من مستهل ذي الحجة من عام 316هـ/929م تسمّى عبد الرحمن الثالث بأمير المؤمنين، وتلقّب بأحد الألقاب السلطانية وهو "الناصر لدين الله"، وذلك حين ضعفت الخلافة العباسية في المشرق، وظهرت الدولة التركية والدَّيلمية، فصارت إمرة المؤمنين لائقة بمنصبه وكلمة باقية في عقبه[4].

ومجمل الأسباب التي جعلت عبد الرحمن الثالث يعلن نفسه خليفة هي: أنّ الخلافة العباسية قد ضعفت بسبب ازدياد نفوذ الأتراك، وعدم مقدرة الخلفاء على السيطرة على بلدان الدولة وضعف نفوذهم وسلطانهم، وفي نفس الوقت قيام الخلافة الفاطمية في المغرب، التي لا

1- رينهارت دوزي، المسلمون في الأندلس، ج1، تر وتع وتق: حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص: 219.

2- **عمر بن حفصون**: هو ثائر أندلسي ثار على بني أمية في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن في بُبُشْتَر سنة 267هـ، فظهر أمره واستفحل حتى ملك ما بين الجزيرة وتُدمير، ولم يتم القضاء على حركته إلّا في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. ينظر: ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، تاريخ افتتاح الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط2، 1989، ص ص: 102-105.

3- الصوفي خالد، تاريخ العرب في إسبانيا نهاية الخلافة الأموية، حلب: مكتبة دار الشرق، ط1، 1963، ص: 50.

4- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 157.

تعترف بالعباسيين، حيث كانوا هم أوّل من جزّء الخلافة، وهذا ما شجّع عبد الرحمن على إعلان الخلافة في الأندلس، فبعد أن شهدت الأندلس فتنا وانقسامات داخلية، كان لابد لحكومة قرطبة من أن تحوّل الإمارة إلى خلافة، حتى يكتسب حكم عبد الرحمن هيبة دينية وسياسية أمام رعاياه، وتضفي على الدولة قوة ومهابة[1].

فصار جميع أقطار الأندلس في طاعته، ثم اتصلت ولايته إلى أن مات في صدر رمضان سنة 350هـ/962م، ولم يبلغ أحد من بني أمية في الولاية مُدّته فيها، ثم ولي بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن، ولُقِّب بالمستنصر بالله، وكان له من العمر حين ولي الحكم سبع وأربعون سنة، وكان حسن السيرة محبّا للعلم والكتب، كما كان مواصلا لغزو الروم ومن خالفه من المحاربين، فاتصلت ولايته إلى أن مات في صفر سنة 366هـ/976م[2]، ثم ولي بعده ابنه هشام المؤيد، وذلك في صبيحة الاثنين لخمس خلون من صفر سنة ست وستين وثلاث مائة[3]، وكان عمره إذ ولي الحكم عشرة أعوام، وأمّه أم ولد تسمى صبح، فلم تزل متغلّبة عليه لا يظهر ولا ينفّذ له أمر، وتغلّب عليه محمد بن أبي عامر ، فكان يتولى جميع أموره إلى أن مات، فصار مكانه ابنه عبد الملك بن محمد الملقب بالمظفر فجرى على ذلك إلى أن مات، فصار مكانه أخوه عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (شنجول) الملقب بالناصر[4].

فساءت أحوال البلاد في أيام عبد الرحمن شنجول وأصبحت على وشك الانهيار، وحدثته نفسه بالاستيلاء على الخلافة، وهذا أمر لم يجرأ عليه أبوه وأخوه، وكان هشام ضعيفا يوافقه على كل ما يطلب منه، وطلب منه عبد الرحمن شنجول أن يعهد إليه بولاية العهد فوافقه هشام، فكبر على الناس ضياع الخلافة من قريش، وثارت البلاد، وانتهز المعارضون فرصة غياب عبد الرحمن ببعض الغزوات في الشمال، فخلعوا هشاما من العرش، وولوا رجلا من أحفاد الناصر هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر، ولقبوه بالمهدي بالله، فعاد عبد الرحمن مسرعا من الشمال، ولكن جنوده انفضوا من حوله، وهاجمه الثوار وقتلوه سنة 399هـ/1008م[5]، ولكن

1- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، ص: 197.

2- الحميدي، جذوة المقتبس، ص: 36.

3- الأزدي عبد الله، تاريخ علماء الأندلس، مر: يخلف شلحة، البليدة: استوديو الترقية، ص: 14.

4- الحميدي، المصدر السابق، ص ص: 33، 36-37.

5- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، ص: 255.

الخليفة الجديد كان سفّاكا قاسيا استبدّ بالبربر لتأييدهم بني عامر، وحاول إذلالهم وإخراجهم من قرطبة، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين في عاصمة الخلافة، وهي ما عرفت بالفتنة الكبرى أو الفتنة القرطبية[1].

فسادت الفوضى واضطربت البلاد ولم يستطع الخلفاء الاستمرار في الحكم إلا لفترات محدودة، واشتد النزاع بين الصقالبة وأهل قرطبة والبربر، فاستغل النصارى الفرصة لاسترداد ما أخذه الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وتوسّعوا على حساب ملك المسلمين، ثم انتقل بنو حمود من سبتة إلى الأندلس واستقروا بقرطبة، وحاولوا السيطرة على الأندلس ونازعوا الأمويين السلطة والنفوذ فيها، وفشل الجميع في استعادة وحدة البلاد وقوتها، وانتهت بموت آخر خلفائها المعتدّ بالله، وبموته أعلن الوزير أبو محمد بن جهور انتهاء الخلافة لعدم وجود من هو جدير بها، وأنّه سيحكم البلاد جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري عرف بحكم الجماعة، وتبع سقوط الدولة الأموية انقسام الأندلس إلى دويلات متنازعة[2].

تولّى خلافة الأندلس بعد هشام المؤيد وزمن الفتنة الكبرى إلى انتهاء الخلافة ثمانية خلفاء هم: محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدي بالله، ثم سليمان بن الحكم المستعين، ثم علي بن حمود الناصر، ثم القاسم بن حمود المأمون، ثم يحي بن علي المعتلي، ثم عبد الرحمن بن هشام المستظهر، ثم محمد بن عبد الرحمن المستكفي، ثم هشام بن محمد المعتد[3].

-الأسرة العامرية:

أدّى انشغال الخليفة الحكم المستنصر بالعلم والمعرفة، وابتعاده عن الحكم وشؤون الخلافة إلى ازدياد نفوذ رجال الدولة وارتقائهم إلى المناصب الهامة في الدولة وإدارة شؤون البلاد، وقد برز من هؤلاء الرجال الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي[4]، والقائد غالب[1] قائد الثغر الأعلى في

1- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص: 410.

2- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، ص ص: 225-226.

3- الحميدي، جذوة المقتبس، ص ص: 38-47.

4- **الحاجب المصحفي**: هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر الحاجب المعروف بالمُصحفي، وزير ومن كبار الكتاب، أصله من بربر بلنسية، استوزره الحكم المستنصر إلى مات، كان من أهل العلم والأدب البارع، وله شعر كثير رائع، يدل على طبعه وسعة أدبه، وكان الوزير الناظر في الأمور قبل المنصور بن أبي عامر، ثم قوي المنصور بصبح وتعويلها عليه وتغلب، فنكّب

الأندلس، ومحمد بن أبي عامر[2]، إضافة إلى السيدة صبح زوجة الحكم المستنصر، والتي كانت لها مكانة عالية لديه وأمّ الخليفة المستقبلي هشام المؤيد، لتؤول شؤون الدولة في عهده إلى حاجبه محمد بن أبي عامر الذي تلقّب بالمنصور.

وكان سبب اتصال محمد بن أبي عامر بخدمة الحكم المستنصر، هو أنّ الحكم المستنصر طلب من حاجبه جعفر بن عثمان المصحفي وكيلا لولده عبد الرحمن، فذكر له جعفر ابن أبي عامر بخير، ووصف لصبح أم عبد الرحمن جماعة اختارت منهم محمد بن أبي عامر، فنصّبه الحكم لخدمتها وخدمة ابنها عبد الرحمن، فلمّا مات عبد الرحمن بقي في خدمة أمه، وكانت قد ولدت هشام بن الحكم، فصرف ابن أبي عامر لوكالته وذلك سنة 359هـ/969م، وقد تقلّد ابن أبي عامر عدّة مناصب في عهد الخليفة الحكم أهمها الإشراف على خطة المواريث، وعيّن قاضيا على إشبيلية ولبلة، ثم أصبح صاحب الشرطة الوسطى، ثم قاضي القضاة بغرب الأندلس، ليتولّى أخيرا وليس آخرا النظر في الحشم عندما مرض الحكم في علته التي مات فيها[3].

ولم تزل حاله تعلو حتى أصبح وكيلا على السيدة صبح أم الخليفة هشام المؤيّد، والنظر في أموالها وضياعها، فزاد أمره في التّرقي معها إلى أن مات الحكم المستنصر، وكان هشام صغيرا،

جعفرا، ومات في تلك النكبة، ويقال أنه قتله سنة 372هـ/982م. ينظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ص: 267. الضبّي، بغية الملتمس، ج1، تح: ابراهيم الأبياري، ص: 314. الزركلي، الأعلام، ج2، ص: 125.

1- **القائد غالب**: وهو غالب بن عبد الرحمن، مولى الخليفة عبد الرحمن الناصر، لقّب بشيخ الموالي وفارس الأندلس وقائد جيش الثغر، ولي مدينة سالم في عهد الخليفة الحكم المستنصر، كانت بينه وبين محمد بن أبي عامر صحبة ومصاهرة. ينظر: الشنتريني ابن بسام، الذخيرة، م1-ق4، ص ص: 63-66.

2- **المنصور بن أبي عامر**: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، وعبد الملك جدّه هو الذي دخل الأندلس مع طارق بن زياد في أول الداخلين من العرب، وهو وسيط في قومه، أصله من الجزيرة الخضراء، قدم قرطبة شابا، فطلب بها العلم والأدب وسمع الحديث، وكانت له همة ترمى به المرامي، ويحدث نفسه بإدراك معالي الأمور، كان حازما، بطلا، شجاعا، غزّاء، عادلا، سايسا، محبا للعلم، مؤثرا للأدب، افتتح فتوحا كثيرة، وأثر آثارا حميدة، حيث غزا نيفا وخمسين غزوة، توفي مبطونا بمدينة سالم سنة 393هـ، وكانت مدته في الإمارة بضعا وعشرين سنة. ينظر: ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق4-م1، ص ص: 59-60. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص: 268. الضبي، بغية الملتمس، ج1، ص ص: 152-153. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص: 199. ابن عماد الدمشقي، شذرات الذهب، م4، ص ص: 499-500. الصفدي، الوافي في الوفيات، ج3، ص: 253. الزركلي، الأعلام، ج6، ص: 226.

3- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 252.

وخيف الاضطراب، فضمن ابن أبي عامر لصبح سكون الأحوال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها، وكان قوي النفس، فساعدته صبح وأمدته بالأموال[1]، فعندما توفي الخليفة الحكم المستنصر سنة 366هـ/976م، حاول الخادمان الصُّقْلُبيان فائق وجؤذر، أخذ البيعة من بعده لأخيه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، مخالفين بذلك رغبة الحكم في تولية ابنه من بعده، إلّا أنّ الحاجب المصحفي وبمساعدة عدد من الوجهاء وكبار الموظفينن استطاعوا أن يحبطوا تدبير الصقالبة، وعمد محمد بن أبي عامر إلى المغيرة فقتله، أخذوا البيعة لهشام وذلك قبل أن يكمل الثانية عشر من عمره[2].

بعد ذلك عهد هشام إلى المصحفي بالحجابة كما كان الحال أيام أبيه، ورقّى محمد ابن أبي عامر إلى مرتبة الوزارة، بدلا من خطة الشرطة، لكن الحاجب المصحفي كان يخشى على نفوذه من ابن أبي عامر، ولا يستريح لبلوغه مرتبة الوزارة، خاصة مع تأيّيد صبح له[3].

كان لابد لابن أبي عامر التخلّص من كل الشخصيات التي تعترضه في تحقيق طموحه، فبعد أن تخلص من المغيرة بن عبد الرحمن، رأى ضرورة التخلص من الصقالبة، فصادر أموالهم واستأثر بأكثرها، وقتل من قتل منهم، ثم جاء الدور على الحاجب جعفر المصحفي الذي كان لا يزال من الناحية الرسمية الرجل الأول في الدولة، وكان على ابن أبي عامر العمل على الإطاحة به، فحصل أنّ النصارى بالشمال أغاروا على أهل الثغور لمّا سمعوا بوفاة الحكم المستنصر، فطلب هؤلاء العون والمدد من قرطبة، لكن الحاجب المصحفي أبى نصرتهم، فكانت هذه من سقطاته المأثورة، فأنف محمد بن أبي عامر لذلك، وأشار عليه بتجهيز الجيش للجهاد، وسار على رأسه إلى جلّيقية وكان له النصر، فعظم السرور وخلص الجند له، واستهلكوا في طاعته لما رأوه من كرمه [4].

لم يكتف ابن أبي عامر بهذه الحملة بل أعاد الكرّة ثانية بالاشتراك مع قوات غالب بن عبد الرحمن قائد الجبهة الشمالية، فخرجا من مجريط وتوغلا بقواتهما في أراضي مملكة قشتالة،

1- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص: 31.

2- الصوفي خالد، تاريخ العرب في اسبانيا، ص: 61.

3- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، ص: 215.

4- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق4-م1، ص: 61.

فأصابا كثيرا من الغنائم والسبي، ثم عادت القوات إلى قواعدها الأصلية، وبذلك استطاع ابن أبي عامر كسب القائد غالب إلى جانبه، خاصة وأنّ الحاجب المصحفي لم يكن في وفاق مع غالب[1].

سعى محمد بن أبي عامر للرفع من شأن غالب أمام الخليفة والسيدة صبح، حتى خرج مرسوم برفعه إلى خطة "ذي الوزارتين"، ونتيجة لانتصاراته الكبرى بالشمال إلى جانب القائد غالب زادت مكانة ابن أبي عامر في قرطبة واتسع نفوذه على حساب المصحفي، فأمر ابن أبي عامر بالقبض على المصحفي بمرسوم استصدره من الخليفة، اتّهمه فيه بتبديد أموال الدولة، فصادر أمواله ونكّب بأهله، وبذلك تخلص محمد بن أبي عامر من أحد أقوى خصومه[2].

وهكذا تخلّص محمد بن أبي عامر من جميع منافسيه واستتبّ له حكم الأندلس، فخلا له الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة، فرجع إلى الجند واستدعى أهل العدوة المغربية من رجال زناتة والبربر، فرتّب منهم جندا واصطنع أولياء، وعرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وغيرهما، فتغلّب على هشام المؤيّد وحَجَره واستولى على الدولة، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته، مع تعظيم الخلافة والخضوع لها وردّ الأمور إليها ومواصلة الغزو والجهاد، كما قدّم رجال البربر من زناتة، وأخّر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتمّ له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وابتنى لنفسه مدينة فنزلها وسماها الزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك وتَسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والأوامر والمخاطبات باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر، وكتب اسمه في السكّة والطرز[3]، وذلك بعد أن أشاع أنّ الخليفة فوّض إليه النّظر في أمر الملك وتحلّى بعبادة ربّه، وبثّ في الرعية وأثبته في النفوس مع قوة ضبطه وسرعة بطشه[4].

غزا المنصور بن أبي عامر اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، سيّرها إلى ممالك النصارى في الشمال، حيث كان يقوم بحملتين كل عام، حملة في الصيف وأخرى في الشتاء، وأنّ

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط1، 2004، ص ص: 194-195.

2- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، ص ص: 216-217.

3- ابن خلدون، العبر، ج4، ص ص: 189-190.

4- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص: 65.

جميع هذه الحملات كانت تحت قيادته المباشرة، وحقّق فيها انتصارات باهرة، لم يخسر معركة واحدة من معاركها[1].

توفي المنصور أثناء رجوعه من بعض غزواته بمدينة سالم وذلك في رمضان سنة 392هـ /1002م، ودفن بها بعد أن قضى 27 سنة من ملكه[2]، ويذكر ابن بسام الشنتريني نقلا عن ابن حيان أنّ المنصور بن أبي عامر لما أيقن بالوفاة خلا بابنه عبد الملك يوصيه ويودّعه ويقبض على يده، حيث أمر بالنفوذ إلى قرطبة وأن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر، ولما ورد النّبأ بموت المنصور ركب عبد الملك إلى الخليفة هشام ونعى إليه المنصور أباه، فكتب له بالحجابة مكان أبيه[3].

تولّى عبد الملك الحجابة وعمره 28 عاما، وتلقّب بالمظفّر بالله، وقد أظهر منذ مطلع ولايته حزما وحسن تدبير، وتواضعا وشجاعة وصفات أخرى تُنبِّئ بأنّه سيكون نظير أبيه في الحكم، ولم يطل عبد الملك أكثر من ستة أعوام وبضعة أشهر، مرض بعدها أثناء غزوته السابعة، وحمل إلى الزاهرة أين توفي في 16 صفر 399هـ/1008م، وقيل أنّ أخاه عبد الرحمن دسّ له سمّا في الشراب فتناوله ومات على إثره، دون أن يثبت ذلك صورة قطعية[4].

ولمّا توفي عبد الملك خلفه أخوه عبد الرحمن، الذي لم يكن مثل أبيه وأخيه في قوة الإرادة، حيث قضى حياته في اللهو والعبث، وساءت أحوال البلاد في أيامه، وأصبحت البلاد على وشك الانهيار، وحدثته نفسه بالاستيلاء على السلطة الشرعية، وهذا أمر لم يجرأ عليه أبوه وأخوه، وكان هشام ضعيفا يوافقه على كل ما يطلب منه، وطلب منه عبد الرحمن أن يعهد إليه بولاية العهد فوافقه هشام، وهذا ما أدّى إلى ظهور الثورات والتمردات، أو ما عُرف بالفتنة القرطبية، وقد قتل عبد الرحمن من قبل الثوّار سنة 399هـ/1008م[5]، فاشتعلت بعد موته نار الفتنة في قرطبة وذلك

1- السامرائي خليل، تاريخ العرب، ص: 198.

2- ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 190.

3- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق4-م1، ص ص: 77-78.

4- الصوفي خالد، تاريخ العرب في إسبانيا، ص ص: 68-69.

5- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، ص: 225.

في 16 جمادى الآخرة من سنة 399هـ، لنقمة الثائرين من السِّقال والبربر الذين انقلبوا على أهلها[1].

ب-ملوك الطوائف:

عاشت الأندلس بعد سقوط الخلافة وانتهاء حكم الأسرة العامرية سنوات صعبة من الفرقة والتنافس، وحاول عدد من المسؤولين المخلصين استمرار البلاد ووحدتها وإعادة الخلافة، وبذلوا في ذلك الجهود الكبيرة دون جدوى، فانتابت الأندلس حالة من التفكّك والتشتّت، وتصدّع بنيان ذلك الصرح الشامخ، فأعلن أهل قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور[2] إلغاء الخلافة، وأسند القرطبيون أمرهم إلى شيخ الجماعة الوزير أبو الحزم بن جهور في منتصف ذي الحجة سنة 422هـ/1031م، الذي أدار حكومة قرطبة ببراعة ونباهة أثنى عليها المؤرخون، عاونه في ذلك صفوة من الرجال، لتقوم بعدها في عدد من مناطق الأندلس ممالك أو دويلات مستقلة، يحكم كلا منها أمير مستقل عن غيره من الأمراء[3].

ويأتينا صاحب كتاب المعجب بأفضل وصف لحال الأندلس في تلك الفترة، حيث يقول: "وأمّا حال سائر بلاد الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية، فإنّ أهلها تفرّقوا فِرقا، وتغلّب في كل جهة منها متغلّب، وضبط كل متغلب منهم على ما تغلّب عليه، وتقسّموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى بـ"المعتضد"، وبعضهم تسمى بـ"المأمون"، وآخر تسمى بـ"المستعين"، والمقتدر، والمعتصم، والمعتمد، والموفق، والمتوكل، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية، وفي ذلك يقول أبو الحسن بن رشيق:

1- سالم عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1997، ص: 109.

2- **أبو الحزم بن جهور:** هو جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحي بن عبد الغافر بن أبي عبدة أبو الحزم الوزير، الكلبي مولى بني أمية، يقال أنّ أصله فارسي، وهو من بني جهور أهل بيت وزارة مشهور في الأندلس، دخلوها قبل عبد الرحمن الداخل، وأبو الحزم هذا هو أمجدهم، حيث كان من وزراء الدولة العامرية، قديم الرئاسة، موصوفا بالدهاء والسياسة، وهو الذي صار إليه تدبير قرطبة بعد خلع هشام بن محمد المعتد بالله، فدبّرها بالجد والعزم، وضبطها ضبطا أمّن خائفها، توفي في صفر سنة 435هـ. ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ج1، ص: 319. ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح: محمد علي شوابكة، دار عمار- مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983، ص: 180-183. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج1، تح و تع: شوقي الضيف، دار المعارف، ط4، القاهرة، ص: 56. الزركلي، الأعلام، ج2، ص ص: 142-143.

3- الحجي عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي، ص ص: 323-324.

مِمَّا يُـزَهِّــدُنِي فِي أَرضِ أندلسٍ **** سَمَــاعُ مُــقْتَــدِرٍ فيهــا و مُعْـتَضِدِ
أَلْقابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا **** كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأسدِ!"[1].

قامت في البلاد عدة دويلات صغيرة مستقلة، أطلق عليها المؤرخون اسم "دويلات الطوائف"، ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف، وهم ما بين زعيم قبيلة، أو صاحب نفوذ، أو حاكم لإحدى الكور، أو وزير سابق، أو شيخ قضاء، وقد استغل هؤلاء حالة البلاد السياسية فبسطوا نفوذهم على المناطق التي تواليهم، وعملوا جميعا على تأسيس هذه الكيانات والحفاظ عليها في أسرهم، فانقسمت الأندلس إلى عدة مناطق قامت فيها أهم دويلات الطوائف في البلاد[2]، وهي:

1-دولية بني جهور في قرطبة وأحوازها من المدن والمناطق الوسطى:

اجتمع كبار أهل قرطبة بعد إلغاء الخلافة وأسندوا الأمر إلى ابن جهور، وقد كان مشهورا عندهم جميعا بجدارته وكفايته لتقلّد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم، ولكنّهم لم يكادوا يعرضون عليه قرارهم حتى رفض في البداية، ثم قبله بعد أن ألحّ عليه في ذلك جمهرة من منتخبيه، ولكنّه اشترط عليهم أن يكون إلى جانبه في الحكم زميلان له في مجلس الشورى، وهما محمود بن عباس وعبد العزيز بن حسن، وكانا من أعضاء أسرته[3]، واستمرت حكومة هذه الجماعة برئاسة ابن جهور تدير أمر قرطبة وما يتبعها قرابة اثنتي عشرة سنة، سادت فيها السكينة والأمن وبدأت الحياة الاقتصادية في الانتعاش "فأبهج سعيه وألمّ الشعث في المدة القريبة، فنعش الرفات وأحيا منها الموات، ودافع بحسن تدبيره البرابرة، وأحسن الجوار والمعاملة"[4].

ظلّ ابن جهور على حكم قرطبة حتى وفاته سنة 435هـ/1044م، فصار الأمر إلى ابنه أبي الوليد محمد بن جهور الذي اعتمد سياسة أبيه في تدبير أمور قرطبة، ولكن أبا الوليد اضطر إلى الابتعاد عن ممارسة السلطات وقدّم ولده عبد الملك، هذا الذي لم يكن كفؤا لها، ما جعل

1- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص: 59.
2- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 224.
3- دوزي رينهارت، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، تر: كامل كيلاني، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2012، ص ص: 12-13.
4- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص: 143.

أخاه عبد الرحمن ينافسه في السلطة[1]، الأمر الذي حزّ في نفوس أهل قرطبة وكثر خوضهم في ذلك، فتشجّع صاحب طليطلة[2] واستولى على حصن المدوّر، ثم زحف إلى قرطبة للاستيلاء عليها، فاستنجد عبد الملك ببني عباد أصحاب إشبيلية، فخلّصوا قرطبة من حكام طليطلة، لكن بني عباد عادوا واستولوا على قرطبة سنة 460هـ/1068م، وقبضوا على عبد الملك بن جهور وسائر أهل بيته، ونفوهم في جزيرة شلطيش، فمات عبد الملك بعد أربعين يوما من نكبته[3]، وبذلك انتهى حكم بني جهور بعد أن استمر قرابة الأربعين سنة.

2-دويلة بني عبّاد في إشبيلية وما يلحق بها من مناطق غرب الأندلس:

تأتي دويلة إشبيلية[4] في مقدمة دويلات الطوائف، من حيث سعتها وتفوّقها السياسي، وكان لها شأن في أحداث هذه الفترة، لاسيما في غرب الأندلس حيث تقوم هذه المملكة، كما كان لها شأن وافر أيضا في النشاط العلمي، وقد حكم بنو عباد هذه المملكة وحاولوا إلحاق مناطق وممالك أخرى إلى مملكتهم، وقد خضعت قرطبة في وقت ما لهذه المملكة[5].

بدأت جذور مملكة إشبيلية في فترة مبكرة، منذ انهيار الدولة العامرية في نهاية المائة الرابعة، وفي الوقت الذي كانت تضطرم فيه عاصمة الخلافة قرطبة بالفتن والخلافات المتعاقبة، كان قاضي إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عبّاد يعمل في هدوء وصمت على جمع خيوط الرياسة في يده، وعلى الاستئثار بحكم المدينة العظيمة، حيث كان يتولى خطة القضاء بإشبيلية منذ أيام المنصور بن

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 226.

2- **طليطلة**: هي مدينة بالأندلس عظيمة القطر، كثير البشر، حصينة الذات، كانت فيما سلف دار مملكة القوط. ينظر: الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس: مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، ليدن: مطبع بريل، 1863، ص: 187.

3- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق4-م2، ص ص: 609-611.

4- **إشبيلية**: مدينة تقع في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة الأندلسية، وهي من كبريات المدن الأندلسية وأجلّها، وهي كثيرة الجنات والبساتين والخيرات. ينظر: الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، الجعرافية، تح: محمد حاج صادق، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ص: 88.

5- الحجي عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي، ص: 387.

أبي عامر، وكان فضلا عمّا يمتاز به من العلم والحكمة والورع، ينتمي إلى بيت من أعظم البيوتات العربية الأندلسية[1].

عند إلغاء الخلافة وجد إسماعيل بن عبّاد الفرصة السانحة للاستبداد بأمر إشبيلية، لأنّ أهلها قدّموه للرياسة حتى تنجلي الفتنة[2]، وفي عهده ادّعى أنّ هشام المؤيد على قيد الحياة، وأنّه قدم من المشرق وهو عنده في القصر، وذلك رغبة في إبعاد بني حمود عن قرطبة، فبايعوه هو وجميع أهل إشبيلية، وتابعهم على ذلك بلاد كثيرة، ولم يزل بنو عبّاد بدعوة المؤيد إلى سنة 456هـ /1064م، فأظهروا موته وقالوا مات المؤيد، فقطعوا دعوته واستبدوا بدعوتهم لأنفسهم مما قوّى ملكهم، وبعد أن توفي القاضي محمد بن إسماعيل سنة 433هـ/1042م، ولي من بعده ابنه عبّاد بن محمد[3]، الذي كان في السادسة والعشرين من عمره، ولقّب بحاجب هشام الثاني، حسب دوزي، وعُرف في التاريخ باسم المعتضد، ولم يلقّب بهذا اللقب إلا بعد زمن طويل من حكمه[4].

وفي عهد المعتضد ظلت مملكة إشبيلية تتسع حتى أصبحت أكبر دولة من دول الطوائف، فقد استولى المعتضد على لبلة وعلى حصون بني الأفطس، وعلى ولبة وجزيرة شلطيش وشنتمرية الغرب، ثم مدينة شلب التي ولّى عليها ابنه محمد بن عبّاد، وبذلك أصبحت الدولة تمتدّ من شرقي الوادي الكبير حتى المحيط الأطلسي غربا والجزيرة الخضراء جنوبا، إلّا أنّ المعتضد كان كغيره من ملوك الطوائف يدفع الجزية للنصارى[5].

توفي المعتضد سنة 461هـ/1069م ليخلفه ولده أبو القاسم محمد بن عبّاد المعروف بالمعتمد[6]، وفي عهده تمّ ضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية سنة 462هـ/1070م، ودخل المعتمد في

1- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، ق1، ص: 32.

2- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ص: 426-427.

3- مجهول، تاريخ الأندلس، ص: 261.

4- دوزي، المسلمون في الأندلس، ص: 48.

5- عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي –عصر الطوائف و المرابطين–، عمّان: دار الشروق، ط2، 1997، ص: 13.

6-**المعتمد بن عبّاد**: هو أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمي الأندلسي، حيث يرجع نسبه إلى المنذر بن ماء السماء الملك، وعطاف هو الداخل منهم في طالعة بلج بن بشر القشيري، الذي نزل إحدى قرى إشبيلية، ولد محمد بمدينة باجة سنة 431هـ في بيت عز و جاه وسيادة، منذ أيام جده إسماعيل بن قريش وهو القاضي المشهور بالفضل والدهاء، بويع محمد بالإمارة بعد أبيه المعتضد سنة 461هـ ولقّب بالمعتمد والظافر والمؤيد، كان ملكا جليلا، وعالما ذكيا، وشاعرا محسنا، وبطلا شجاعا، وجوادا ممدّحا، بقي في المملكة

صراع عنيف مع مملكة غرناطة، واضطر كلا الطرفين إلى الاستعانة بالملوك النصارى لقاء مبالغ مالية كبيرة، ولقاء تنازلات إقليمية، وكان من نتائج ذلك تعرض مدينة غرناطة إلى هجمات مدمرة قام بها ألفونسو السادس، والذي قام بمهاجمة طليطلة سنة 478هـ/1085م، فدخلها غازيا دون أن تحرّك دويلات الطوائف ساكنا، وبعد استيلائه عليها تطلع إلى غزو بقية مدن الأندلس، الأمر الذي دفع العديد من ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عبّاد إلى الاستنجاد بالمرابطين، وكان المعتمد قد تعهّد بالتنازل عن الجزيرة الخضراء للمرابطين، الذين نزلوها سنة 479هـ/1086م، ومع دخول المرابطين تم توحيد الأندلس والقضاء على دويلات الطوائف بما فيها دويلة بني عباد التي سقطت سنة 484هـ/1091م[1].

3-دويلة بني الأفطس في بطليوس:

كانت هذه الدويلة تجاور مملكة إشبيلية في الشمال، تفصلها عنها جبال الشارات الكبرى، وكانت مملكة بطليوس تشمل رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطلة، عند مثلث نهر وادي يانة غربا حتى المحيط الأطلسي، إلى مدينة باجة في الجنوب، وكانت العاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة الكبيرة التي تشمل عدا العاصمة، عدة مدن هامة أخرى مثل ماردة، ويابرة، وأشبونة، وشنترين، وشنترة، وقُلُمرية، وبازو وغيرها، وقد حكم بنو مسلمة، أو بنو الأفطس، كما اشتهر اسمهم، هذه الدويلة أكثر من سبعين عاما، وسطع بلاطهم أيام الطوائف[2]، وعميد هذه الأسرة هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، أصله من قبائل مكناسة، حيث نزل بفحص البلوط من جوفي قرطبة[3]، بينما ينسبه ابن الأبّار إلى تُجيب القبيلة اليمنية، ثم يذكر قول ابن حيان في نسبه، حيث يقول: "ومن النادر الغريب انتماؤه في تجيب، وبهذه النسبة مدحته

نيفا وعشرين سنة، إلى أن قبض عليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، لما غلبه إشبيلية وسائر بلاد الأندلس، وسجنه بأغمات حتى مات في شوال سنة 488هـ. ينظر: ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق2/م1، ص: 14. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص: 52، لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص: 108. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص: 151. ابن عماد الدمشقي، شذرات الذهب، م5، ص: 383. ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص: 169. ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص: 194. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص: 51.

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص ص: 230-231.

2- عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس، العصر الثاني، ص: 81.

3- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص: 180.

الشعراء إلى آخر وقته!"[1]، وكان عبد الله هذا من أهل المعرفة التامة والدهاء والسياسة، وكانت بطليوس قبل اضطرام نار الفتنة تحت حكم أحد عبيد الحكم المستنصر يدعى سابور الفارسي، فلما وقعت الفتنة وتفرّقت الجماعة وانشقّت عصا الأمة، استبد سابور هذا بحكمها، كما فعل غيره من حكام الأقاليم، وكان وزيره عبد الله بن الأفطس هو من يدبّر له أمره ويخدم دولته خدمة سياسية إلى أن هلك سنة 413هـ/1022م، وقد ترك ولدين لم يبلغا الحلم، فاستأثر ابن الأفطس بالحكم واستقام له أمره، إلى أن مات سنة 437هـ/1046م، ليخلفه ابنه محمد الذي تسمّى بالمظفّر[2].

سار محمد المظفّر على سياسة أبيه في الدفاع عن الدولة وحفظ سيادته، ودخل من أجل ذلك في قتال مرير وطويل مع المعتضد بن عبّاد[3]، وكان بنو الأفطس كغيرهم من ملوك الطوائف يدفعون الجزية لفرناندو الأول ملك قشتالة، مقدارها خمسة آلاف دينار مقابل ترك مدينة شنترين، والتي تعرضت لأخطار الغزو مرّات عديدة[4]، كان محمد المظفر عالما فاضلا، وشجاعا فارسا، توفي سنة 460هـ، ليخلفه ولداه يحي بن محمد على بطليوس وتسمى بالمنصور، وعمر بن محمد المتوكل ببابرة وما إليها من الثغر الغربي، ثم استوثق للمتوكّل الأمر بموت أخيه يحيى، بعد منافسة طويلة بينهما كادت تفسد حالهما[5].

كان المتوكل ملكا عالي القدر، مشهور الفضل، مثلا في الجلالة والسير، ومن أهل الرأي والحزم والبلاغة، وصارت بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم[6]، وفي عهده صارت طليطلة تحت حكمه زهاء عشرة أشهر، قبل أن يعود إليها أميرها يحي بن ذي النون، هذا الأخير

1- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص: 97.

2- ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص: 236.

3- البشري سعد عبد الله، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف: دراج أحمد السيد، 1985-1986م، ص: 85.

4- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص ص: 231-232.

5- ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص ص: 97-98.

6- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص: 182.

الذي لم يستطع الدفاع عنها لتسقط يد ملك قشتالة ألفونسو السادس في محرم من سنة 487هـ/1085م[1].

وبسقوط طليطلة شعر ألفونسو بأنّه أضحى قادرا على القضاء على دول الطوائف جميعا، وكان من أثر ذلك أن أرسل إلى المتوكل يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه، وأن يؤدي له الجزية، ويتوعّده بشر العواقب إذا رفض، لكن المتوكل أبى أن يستجيب إلى الوعيد وردّ عليه برسالة قوية حازمة، ثم أرسل قاضيه أبا الوليد الباجي، ليطوف بحواضر الأندلس ويتصل برؤسائها، لتوحيد الكلمة ومدافعة العدو، ليصل الأمر في النهاية إلى استدعاء المرابطين[2]، وليستولي المرابطون في الأخير على دويلة بني الأفطس أواخر سنة 488هـ/1095م بعد أن قتلوا المتوكل بن الأفطس وبنيه[3].

4-دويلة بني ذي النون في طليطلة:

كانت طليطلة من المدن المشهورة في الأندلس، فهي قاعدة الثغر الأوسط وبمثابة الحاجز أمام قوات ممالك النصارى في الشمال، وقد وقعت وما يلحق بها في حوزة بني ذي النون[4]، وبنو ذي النون هؤلاء قبيل من البربر الذين كانوا يخدمون الدولة العامرية، وأنّ اسم جدّهم الحامل لهذا الاسم إنما هو زنّون فتصحّف بطول المدّة فصار ذو النون، ولم يكن لبني ذي النون نباهة قديما ولا ذكر إلّا في دولة ابن أبي عامر، فإنّهم تقدموا في دولته واشتهروا، وكان منهم من يقود الجيوش ويلي الأعمال والبلاد[5]، فلما وقعت الفتنة بالأندلس كان الوالي بمدينة طليطلة وذواتها عبد الرحمن بن مَنِيوَه إلى أن أدركته المنية، ليخلفه ابنه عبد الملك بن عبد الرحمن بن منيوه هذا الذي أساء في الرعية[6]، فخلعه أهل طليطلة واتفقوا على أن حملوا إلى عبد الرحمن بن ذي النون لتوليته عليهم، فوجّه إليهم ابنه إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذنون[7].

1- عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس، العصر الثاني، ص: 90.

2- عنان محمد عبد الله، المرجع نفسه، ص: 91.

3- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص: 183.

4- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 232.

5- ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص: 276.

6- مؤنس حسين، موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1996، ص: 51.

7- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 176.

شغلت طليطلة أهمية كبيرة بين دويلات الطوائف، حيث كانت هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة في قلب الأندلس، تمتد من شرقي مملكة بطليوس، من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقي، حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق، جنوب مملكة بني هود في الثغر الأعلى، وتمتدّ شمالا بشرق فيما وراء نهر التاجه متاخمة لقشتالة القديمة، وجنوبا بغرب حتى حدود مملكة قرطبة، عند مدينتي المعدن والمدوّر، وتتوسطها عاصمتها طليطلة، ومن أهم أعمالها مدينة سالم، ووادي الحجارة، وقونقة، ووبذة، وإقليش، ومورة، وطلبيرة، وترجالة وغيرها[1].

تولّى إسماعيل بن ذي النون حكم المدينة لأوّل مرة سنة 427هـ/1036م، وتمادى ملكه بها، واعتمد في تدبير الأمور على كبير الجماعة بطليطلة أبي بكر الحديدي، وكان عالما وافر العقل والدهاء، يحظى بتأييد الكثرة الغالبة من أهل المدينة، فكان إسماعيل لا يقطع أمرا دون رأيه ومشورته إلى أن مات إسماعيل سنة 435هـ/1044م[2]، ليخلفه من بعده ولده أبو الحسن يحي بن إسماعيل الذي تسمّى بالمأمون، وسار على سنة أبيه في تقديم الوزير الحديدي، فاتسع ملكه، ولم يكن في ملوك الطوائف أقوى من مملكته، ولا أعظم قدرا منه لأنّه كان كريما شجاعا[3]، كما تميز عهده بكثرة الحروب والمنازعات بينه وبين حكام دويلات الطوائف كبني عبّاد وبني هود، فكان من نتائج تلك الحروب خسائرا كبيرة في الأرواح والمعدّات، وتدمير مدن وحصون الأطراف المتنازعة، وكان لا يتوانى كل طرف من أطراف النزاع في التحالف مع أمراء وملوك النصارى مقابل مبالغ كبيرة من المال، أو مقابل التنازل عن بعض المناطق المهمة، مما أدّى إلى إضعاف هذه الدويلات جميعا، وتطلع النصارى إلى القضاء عليها جميعا، لكن بالرغم من تلك الحروب والنزاعات التي خاضها المأمون بن ذي النون إلّا أنّ عهده شهد اهتماما بالعلم والعمران[4]، حيث بنى بطليطلة قصرا عظيما تغنّى به الشعراء وأطنب في وصفه المؤرخون والأدباء[5].

توفي المأمون بن ذي النون في ذي القعدة من سنة 467هـ/1075م، وولي الأمر بعده حفيده وسميّه يحي بن ذي النون وتلقّب بالقادر بالله، لكن هذا الحفيد كان مُضعفا كثير الحيلة،

1- عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 95.

2- عنان محمد عبد الله، المرجع نفسه، ص: 97.

3- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، ص: 347-348.

4- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص ص: 232-233.

5- مجهول، المصدر السابق، ص: 348.

خبيث الفكرة، حيث أغرته طائفة بابن الحديدي فقتله، وسجن طائفة من أهل طليطلة[1]، فثار عليه أهلها وأخرجوه، وبعثوا إلى عمر بن الأفطس صاحب بطليوس فبايعوه –كما أشرنا سابقا–، ودخل طليطلة فوليها تسعة أشهر، وعجز عن حمايتها فانصرف عنها وتركها، فبعث أهل طليطلة إلى القادر بن ذي النون فأتاهم وملكها ثانية[2]، لكن الأوضاع لم تهدأ حيث عمّت الفوضى وانقسمت العامة إلى مؤيد ومعارض، وفي ظل هذه الظروف انتهز ألفونسو السادس الفرصة وحاصر مدينة طليطلة سنة 477هـ/1085م، وحاول القادر بشتّى الطرق فكّ الحصار عنها لكنّه لم يفلح، لتعلن طليطلة استسلامها أمام تعنّت ألفونسو ويأسها من مساعدة دويلات الطوائف لها، فدخلها ألفونسو سنة 478هـ/1086م[3].

وكان لسقوط طليطلة وقع شديد بين دويلات الطوائف، وعَدّهُ رؤساؤها إيذانا بسقوط معاقلهم التي يعتصمون بها، فاتجهوا صوب المغرب يطلبون نجدة المرابطين ضد القوى النصرانية، كما سيأتي.

5-دويلة بني زيري في غرناطة:

كان انهيار الخلافة الأموية والسلطة المركزية وما اقترن بذلك من الفوضى العارمة، فرصة سانحة لظهور الزعامات البربرية في ميدان النفوذ والسلطان، وقد ظهر البربر في الواقع منذ أيام المنصور بن أبي عامر، واحتلوا مراكز الصدارة في الجيوش الأندلسية، واتخذهم المنصور له عضدا وسندا، ولما سقطت الخلافة الأموية والدولة العامرية، قامت عدة دويلات بربرية من بينها دويلة بني زيري في غرناطة[4].

وكان عميد صنهاجة في الفتنة البربرية زاوي بن زيري بن مناد الذي أجاز إلى الأندلس عهد المنصور، ولما سقطت الخلافة نزل غرناطة واتخذها دارا لملكه، وذلك بعد أن هزم الخليفة الأموي المرتضى والفتيان العامريين سنة 420هـ/1029م، ثم ما لبث أن رحل إلى القيروان بعد أن

1- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص: 178.

2- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، ص: 349.

3- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 234.

4- عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 160-161.

استخلف ابن أخيه ماكسن بن زيري بن مناد[1]، الذي تلقّب بالحاجب المظفر سيف الدولة، فاستوطن غرناطة وأخلى إشبيلية، وبقي إلى أن توفي في رمضان سنة 429هـ/1039م، فولي ملكه بعده ولده باديس بن حبّوس[2].

تولّى باديس بن حبّوس مقاليد الحكم، وتلقّب بالحاجب المظفر بالله والناصر لدين الله، وكان باديس هذا رئيسا يَبِسا، طاغية، جبّارا، شجاعا، داهية، حازما، جلدا، شديد الأمر، سديد الرأي[3]، فكان أقوى ملوك البربر في جنوبي الأندلس وأعظمهم شأنا، ولم ينازعه في الملك أخوه بلقين بن حبوس، ولكن كان له في الملك منافس من قومه، هو ابن عمه يدّير بن حبّاسة بن ماكسن، وكان يدّير ومن ورائه بعض شيوخ غرناطة يحاول منذ أيام عمّه حبّوس أن ينتزع السلطة لنفسه، فلما فشل أيام حبّوس حاول أن يعيد الكرة في أوائل عهد باديس[4]، لكنّ مؤامرته باءت بالفشل بعد أن فطن باديس لها وذلك بمساعدة إسماعيل بن نغرالة اليهودي له، ومنذ ذلك الوقت أخذ باديس يثق بابن نغرالة ويشاوره في أكثر أموره[5].

وكان ابتداء أمر ابن نغرالة اليهودي أنّ مولى أبي القاسم بن العارف والي مالقة، طلب من ابن نغرالة أن يكتب له طلبا ليقدمه للوالي، فكتب له الطلب ولما عرض على الوالي أعجب بالخط الذي كتب به، وسأل كاتبه فدلّه المولى عليه، فطلب الوالي ابن نغرالة وعيّنه كاتبا له وكان يستشيره في بعض أمور الولاية، فذاع صيته بين يهود مالقة وعيّنوه رئيسا لهم، وقبل موت أبي القاسم قدمه إلى حبّوس بن ماكسن أمير غرناطة، وقد أعجب حبّوس بذكاء اليهودي وكياسته وجعله مسؤولا عن جباية الضرائب في إمارته، ولمّا مات حبّوس وحدث خلاف فيمن يليه في الحكم ناصَرَ ابن نغرالة باديس، ولم ينسَ له باديس جميله وعينه وزيرا في الإمارة، وبذلك أصبح ابن نغرالة أوّل يهودي يصل إلى درجة الوزارة في الأندلس[6]، ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين في مذكراته أنّ سبب تولية جدّه باديس لليهودي ابن نغرالة أنّه كان من الكيس والمداراة ما طابق الزمان الذي كانوا فيه

1- ابن خلدون، العبر، ج4، ص: 206.
2- مجهول، تاريخ وجغرافية الأندلس، ص: 343.
3- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص: 435.
4- عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 127.
5- طويل مريم قاسم، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1994، ص: 121.
6- عبد المجيد محمد بحر، اليهود في الأندلس، القاهرة: المكتبة الثقافية، 1970، ص: 40.

والقوم الذي يرمونهم، فاستعمله لذلك استيحاشا من غيره، ولما كان يرى من طلب بني عمّه له، ولأنّ هذا يهودي ذميّ، لا تَشْرَهُ نفسه إلى ولاية، ولا هو أندلسي، فيُتقى منه إدخال داخلة من غير جنسه من السلاطين، ولم يكن له تسلّط على مسلم في حق ولا باطل[1].

وجريا على نهج حكام دويلات الطوائف فقد دخل باديس بن حبّوس في حرب ضروس مع زهير العامري صاحب المرية بعد أن اختلّت العلاقات الطيبة بين الطرفين، نتيجة لتضارب مصالح كلتا الدولتين، وتمكّنت قوات باديس من تدمير قوة زهير العامري وقتله في ميدان المعركة سنة 429هـ/1038م، وكان من نتائج هذه المعركة سيطرة باديس على معظم أملاك دويلة زهير العامري المتاخمة لدويلة غرناطة ومنها جيّان وأعمالها، وقسما من أراضي كورة قرطبة الجنوبية، كما ظلّ بنو زيري وبنو عبّاد في صراع وتسابق لكسب مناطق النفوذ كلّما اضمحلّت قوة الحموديين، ممّا سبب خسائرا فادحة للطرفين، وتعرّض الكثير من مناطق الأندلس للخراب والدمار[2].

بعد أن قطع باديس في الحكم ثلاثون عاما، وأصبحت مملكته تمتدّ من بسطة شرقا، حتى رُندة غربا، وجيّان شمالا إلى البحر جنوبا، وكان قد شاخ وأخلد إلى الراحة، وانهمك في الشراب، وترك مقاليد الأمور كلّها لوزيره يوسف بن إسماعيل بن نغرالة، وكان يوسف قد حلّ في المنصب مكان أبيه إسماعيل بن نغرالة وزير حبّوس ثم باديس[3]، وقد كان يوسف هذا في الحقيقة ملكا فوق المِلك، وكان هو المسيطر المتسلّط على باديس لعكوفه على شرابه، وانغماسه في لهوه وبطالته، ولكي يستمر نفوذه وسلطانه على المملكة كان قد أحاط باديس بجواسيس وعيون من نساء وفتيان قصره، استغلهم بالمال وغمرهم بالإحسان، فلا يكاد باديس ينبس أو يتنفّس إلّا وهو يعلم ذلك[4]، ولم يكتف عند هذا الحد بل سوّلت له نفسه قتل الأمير بلكين بن باديس المرشّح لولاية العهد بعد أبيه، حيث أنّ هذا الأخير أراد قتل ابن نغرالة لما رآه من نفوذ أمره وتسلّطه في الحكم، فسبقه اليهودي إلى الأمر، حيث دعاه إلى تناول الشراب معا كعادتهما، وكان قد دسّ له السمّ في

1- ابن بلكين عبد الله، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحر: علي محمد، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2006، ص: 48.

2- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص ص: 235-236.

3- عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس، العصر الثاني، ص: 133.

4- دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في الإسلام، ص: 77.

الشراب، فمات بلكين بعد يومين من تسميمه[1]، وصرف اليهودي التهمة عنه إلى طائفة من فتيان بلكين وجواريه، فعاث فيهم باديس قتلا وإبادة، وعظم تسلّط ابن نغرالة، فضاق الناس من ذلك ذرعا، فصنع الشيخ الفقيه الصالح أبو إسحاق الإلبيري قصيدة يوبّخ فيها باديس على تقريبه لليهود، ويعرّفه بما هم عليه، وبما نال المسلمين من ذلّهم، فرفعت القصيدة إليه، فأمر بقتل ابن نغرالة وعمّاله من اليهود[2]، فقُتل وصلب على باب المدينة، وسمعت العامة بذلك فأحلّوا السيف في اليهود، حيث قُتل منهم الآلاف وذلك في سنة 465هـ[3].

وبعد وفاة باديس سنة 465هـ/1073م تولّى الحكم من بعده حفيده عبد الله بن بلكين الذي كان حدثا لم يقْوَ على إدارة البلاد، ففقدت الدويلة استقرارها وعاد بنو عباد يهاجمونها، ممّا أجبر عبد الله على محالفة ألفونسو السادس وترضيته بأموال طائلة، وبدأت أحوال مملكة غرناطة في التفسّخ عندما بدأ الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها، فاستقلّ تميم بن باديس بحكم مالقة وما جاورها، وبدأ الصراع بينه وبين عبد الله، ممّا أهدر قوة مملكة غرناطة وأضعفها، واستمرّ حكم عبد الله حتى دخول المرابطين غرناطة سنة 483هـ/1090م[4].

6-دويلة بني هود في سرقسطة:

كانت مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى أعظم ممالك الطوائف وأهمّها، ليس فقط بضخامة رقعتها، ولكن بموقعها الدقيق الخطر بين الدول الإسبانية النصرانية، بين قطلونية من الشرق، ونافارا من الشمال الغربي، وقشتالة من الجنوب والغرب، وكانت في الوقت نفسه أقدم الدول الأندلسية المستقلة، ذلك أنّها كانت بموقعها المنعزل النّائي في شمال شرقي الجزيرة، وابتعادها بذلك عن مجموعة الدول الأندلسية الأخرى، تضطر دائما إلى مضاعفة الجهود للذّود عن حياتها، والدفاع عن استقلالها ضد مختلف الأطماع المضطرمة من حولها[5].

1- ابن بلكين، التبيان، ص ص: 56-57.

2- مجهول، تاريخ وجغرافية الأندلس، ص: 344.

3- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص: 212.

4- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص ص: 236-237.

5- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص ص: 264-265.

تولّى حكم هذا الثغر يحي بن عبد الرحمن التُّجيبي سنة 379هـ/989م بإقرار من المنصور بن أبي عامر، وظلّ حاكما عليه حتى وفاته سنة 408هـ/1017م فخلفه ولده المنذر الذي يعدّ أول حاكم لدويلة سرقسطة، حيث تلقّب كغيره من حكام الدويلات بالألقاب السلطانية فتسمّى بذي الرياستين ولقّب بالمنصور، واشتركت دويلة سرقسطة في الأحداث الجارية على الساحة الأندلسية، حيث دخل في صراع مع زاوي بن زيري الصنهاجي، كما تطلّع لأخذ مدينة بلنسية، لكنّ مجاهد العامري صدّه عنها، وكانت تربطه علاقات مع ملوك النصارى ممّا أسخط العامة عليه، فرمته بشتّى أوصاف الخضوع والخيانة، إلى أن مات سنة 414هـ/1023م، وتناوب على حكم دويلة سرقسطة بعده اثنان من بني تجيب أوّلهما يحي بن المنذر الذي تلقّب بالمظفّر، وثانيهما ابنه المنذر بن يحي الذي تلقّب بمعزّ الدولة، إلى أن اغتيل سنة 430هـ/1039م، وباغتياله ينتهي حكم أسرة بني تجيب، لتبدأ حكم سرقسطة وما والاها أسرة بني هود[1].

وكان عميد هذه الأسرة هو سليمان بن محمد بن هود الجذامي، الذي كان من كبار الجند بالثغر الأعلى إلى حين وقوع الفتنة الكبرى، فغلب على مدينة لاردة وسائر أنظارها، وقتل القائم بها يومئذ وهو أبو المطرّف التُّجيبي، فلمّا اغتيل المنذر بقيت سرقسطة دون أمير يدبّر أمرها، فبعث أهلها إلى سليمان بن هود وهو بمدينة لاردة فولوه على أنفسهم، ونزل دارة الإمارة بسرقسطة وبقي أميرا عليهم وتلقّب بالمستعين إلى أن مات سنة 438هـ/1047م، ولما مات ابن هود ترك خمسة أولاد ذكور كان قد قسّم عليهم في حياته بلاده، فولي أحمد بن سليمان مدينة سرقسطة بعد أبيه، وولي يوسف مدينة لاردة، وولّى محمدا قلعة أيوب، وولّى لُبًّا ابنه مدينة وشقة، وولّى المنذر بن سليمان مدينة تطيلة[2].

استبدّ هؤلاء الإخوة جميعا بأعمالهم بعد أبيهم ودعا كل منهم إلى حوزته، فلم يزل أحمد بن سليمان الملقّب بالمقتدر يحتال على اخوته حتى أخرج بعضهم من مواقعهم واحتال عليهم وسجنهم وقتل بعضهم بالنّار، غير أنّ الوالي على مدينة لاردة يوسف حسام الدولة والذي كان أكبرهم استطاع أن يحمي حوزته منه، ولـمّا رأى أهل الثغر ما صنعه أحمد كرهوه لذلك وخلعوا

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، المرجع السابق، ص ص: 241-242.

2- ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص: 222.

طاعته، وصيّروا أمرهم إلى أخيه يوسف وقاموا بدعوته، ولم يبق لأحمد إلا سرقسطة[1]، فاستعان بملوك النصارى للاستيلاء على لاردة لكنّه فشل، وفي أيام المقتدر وقعت مأساة مدينة بربشتر سنة 456هـ/1064م[2]، التي تقع شرق سرقسطة وكانت تحت حكم أخيه يوسف حسام الدولة المظفر، حيث دخلها النصارى وأنزلوا بأهلها مذبحة بشعة بقيادة فارس نورماندي يسمى دي مونتوري[3]، فسار إليها المقتدر واسترجعها من النورمنديين سنة 457هـ/1065م، وفي سنة 474هـ/1081م مات المقتدر بعد أن قسّم دويلة سرقسطة بين ولديه، فخصّ يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها، وخصّ ولده المنذر بلاردة وطرطوشة ودانية، مرتكبا بذلك نفس الخطأ الذي اقترفه والده من قبل، حيث دخل الاخوان في صراع واستعان كل طرف على الآخر بمرتزقة الممالك النصرانية بالشمال[4].

ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام، إذ توفي في سنة 478هـ/1085م، فخلفه في حكم سرقسطة وأعمالها ولده أحمد، وتلقّب بالمستعين (الأصغر)، وبقي الشقّ الآخر من مملكة سرقسطة بيد عمّه المنذر، وما كاد المستعين يبدأ حكمه حتى وجد نفسه أمام أطماع ألفونسو السادس الذي اعتزم على احتلال سرقسطة بعد أن احتل طليطلة، وضرب عليها الحصار، ولم تثنه محاولات المستعين وإغرائه له بالأموال الطائلة، واستمرّ في حصارها حتى جاءته الأنباء بمقدم المرابطين فاضطر أن يرفع الحصار عنها[5].

وفي رجب من سنة 503هـ/1110م استشهد أحمد المستعين في حربه ضد مملكة أرغون النصرانية ليخلفه ولده عبد الملك الملقّب بعماد الدولة، وبعد دخول المرابطين الأندلس دخلت سرقسطة في طاعتهم، لكنّ أمراء سرقسطة بعد المستعين لم يخلصوا للمرابطين بل آثروا الدخول في طاعة ملوك أراغون، الذين تضاعفت حدود مملكتهم على حساب مملكة سرقسطة[6].

1- مؤنس حسين، موسوعة تاريخ الأندلس، ص: 22-23.
2- الحجي عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي، ص: 356.
3- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص: 424.
4- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 244.
5- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 287.
6- مؤنس حسين، معالم، ص: 425.

ولما رأى أهل سرقسطة أنّ أميرهم عماد الدولة يوالي النصارى ولا يستجيب إليهم بتسريح القوات النصرانية من المدينة، كتبوا إلى أمير المسلمين علي بن تاشفين وهو في مراكش، يناشدونه خلع بني هود، وتسلّم سرقسطة، فبعث إلى قائده محمد بن الحاج والي بلنسية أن يسير إلى سرقسطة، التي غادرها عماد الدولة لما سمع بقدوم المرابطين، ودخلت القوات المرابطية بقيادة ابن الحاج سرقسطة في سنة 503هـ، لينهوا حكم أسرة بني هود الذي استمرّ أكثر من سبعين سنة[1].

7-دويلة بلنسية:

كانت بلنسية، وهي أعظم القواعد الشرقية، مركز التجاذب في معركة السلطان التي اضطرم لظاها في تلك المنطقة، حيث كانت هذه المعركة في البداية متواضعة محدودة المدى، ثم لم تلبث أن انسابت إلى شرقي الأندلس كله، من طرّكونة شمالا حتى مرسية ولورقة جنوبا.

ولـمّا انهارت الدولة العامرية، واستطاع محمد بن عبد الجبار المهدي أن ينتزع الخلافة لنفسه من هشام المؤيد، كان على بلنسية فتى من الفتيان العامريين هو مجاهد العامري، فثار به عبدان من العبيد العامريين أيضا هما مبارك ومظفّر، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة، فغادر مجاهد بلنسية إلى دانية، وتربّع العبدان مكانه في حكم المدينة[2]، ويذكر ابن بسام الشنتريني نقلا عن ابن حيان القرطبي قوله عن تولي هذان العبدان حكم بلنسية: "فمن غرائب هذه الليالي والأيام، اللّاعبة بالأنام، أنّ مباركا ومظفرا المذكورين كانا وليا أولا وكالة الساقية ببلد بلنسية، ثم بلغ من سياسة هذين العبدين في مدة إمارتهما إلى أن تقارضا من صحة الألفة فيها طول حياتهما، وكان يجمعهما في أكثر أوقاتهما مائدة واحدة، ولا يتميّز أحدهما عن الآخر في عظيم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفراش ومركوب وآلة، ولا ينفردان إلا في الحرم خاصة، مع أنّ لمبارك كان التقدم في المخاطبة هنالك في حقيقة رسوم الإمارة"[3]، واستمر مبارك ومظفر في حكم بلنسية بضعة أعوام، ثم توفي مظفر، واستمر مبارك من بعد فترة يسيرة فتوفي في ذي الحجة سنة 408هـ/1017م[4].

1- عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 292.

2- عنان محمد عبد الله، المرجع نفسه، ص: 217.

3- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق3-م1، ص: 15.

4- عنان محمد عبد الله، المرجع السابق، ص: 219.

انتهت دولة هذين الفتيين سنة 408هـ لتحكم من قبل لبيب العامري ومجاهد العامري، ولكن الأمور لم تستو لهما، فعندما دبّ النزاع بينهما واشتدّ الخلاف حسم الأمر بتقديم عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول سنة 411هـ/1021م[1]، على أنّ هذه البيعة لم تلبث طويلا دون منازع. ذلك أنّ خيران العامري، وكبير الفتيان العامريين، صاحب ألميرية ومرسية وأوريولة، لم يكن على وفاق مع عبد العزيز، والظاهر أنّه خشي على سلطانه من هذه الزعامة الجديدة، فقدّم للزّعامة في شرقي الأندلس مرشحا جديدا من بني عامر، هو محمد بن عبد الملك المظفر بن المنصور، وهو ابن عمّ عبد العزيز، فنادى له بالزّعامة ونزل له عن حكم مرسية وأوريولة، ولقّبه بالمؤتمن ثم المعتصم، ولم يمض وقت حتى تنكّر خيران لمرشحه الجديد محمد المعتصم، حيث زحف بقواته إلى مرسية، وضيّق على المعتصم حتى اضطره إلى الخروج عنها سنة 413هـ/1022م، واستقرّ عبد العزيز المنصور في حكم بلنسية دون منازع، وانضوى تحت لوائه مجاهد العامري حينا، ثم اختلفا وناصبه العداء[2].

وكانت تطورات الحوادث في مملكة المريّة، أهم ميدان لجهود عبد العزيز السياسية والعسكرية، حيث كانت المرية تحت حكم الفتى خيران العامري، وهو في نفس الوقت صاحب مرسية وأوريولة، فلمّا توفي خيران في سنة 419هـ/1028م، خلفه في رياسة مملكة المرية نائبه الفتى زهير العامري، هذا الذي حدثته نفسه –كما ذكرنا سابقا- بالسير إلى غرناطة لضمّها إلى حكمه، لكنه لقي مصرعه في المعركة التي نشبت بينه وبين باديس بن حبّوس صاحب غرناطة، وذلك سنة 429هـ/1039م، وهنا لاحت لعبد العزيز المنصور الفرصة السانحة لتوسيع مملكته، وكتب إليه أهل المرية يدعونه لرياستهم، وبعث وزيره وصهره زوج أخته معن بن صمادح إلى باديس يحثه على إعدام الأسرى من وزراء زهير وقادته، خشية أن يعود أحد منهم إلى مناوأته في حكم المرية، فكان له ما أراد، وخلصت له المرية وأعمالها، ماعدا جيّان التي انتزعها باديس لنفسه عقب مصرع زهير[3].

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 237.

2- عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص ص: 220-221.

3- عنان محمد عبد الله، المرجع نفسه، ص ص: 221-222.

وإزاء هذه التطورات قرّر مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية مهاجمة دويلة بلنسية، وفي سنة 433هـ/1041م، وقعت حرب بين القوتين، تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة، وانجلى الموقف أخيرا عن دخول عبد العزيز مدينة شاطبة وتعزيز سلطانه في مدن شرق الأندلس، واستمرّت دويلته آمنة الجانب حتى وفاته سنة 452هـ/1061م، فولي بعده ولده عبد الملك الملقّب بنظام الدولة وبالمظفّر، وفي عهده آل أمر بلنسية للمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وأصبحت ضمن أملاكه سنة 457هـ/1065م[1].

واستمرت بلنسية تحكم من قبل ذي النون حتى وفاة المأمون سنة 467هـ/1075م، فاستقل بها أبو بكر محمد بن عبد العزيز الملقب بابن روبش –الذي كان نائبا عن ذي النون في حكمها–، فحكمها دون منازع حتى إذا استولى ألفونسو السادس على طليطلة، فأخرج ابن روبش هذا وصار الأمر إلى يحي القادر بن ذي النون في حماية فرسانه النصارى الذين كان يرأسهم ألبرهانس ابن أخ الفارس النصراني السيد الكمبيادور، هذا الأخير الذي انفصل عن ألفونسو السادس وكوّن جماعة من المرتزقة، وتجمّعت إليه أعداد منهم، ووجد أنّ بلنسية مملكة ضعيفة في حماية ألفونسو، فأخذ يغير على أراضيها وهي عاجزة عن الدفاع[2].

ومع دخول المرابطين إلى الأندلس انسحبت قوات ألفونسو من مدينة بلنسية، وحاول القادر بن ذي النون التقرّب من المرابطين لكنّه لم يحظ بطائل، فعادت أمور بلنسية إلى الاضطراب، عندها استغل المنذر بن هود الفرصة وحاصر بلنسية سنة 481هـ/1008م، فاستعان حاكمها القادر بن ذي النون بحليفه ألفونسو السادس، وبالمستعين بن هود حاكم سرقسطة ومنافس المنذر، وعندما وصلت القوات قرر المنذر فك الحصار ومغادرة مواقعه، لتحل محلّه قوات المستعين وحليفه السيد الكمبيادور الذي سبق له أن خدم والد المستعين وجدّه من قبل، ومع محاولة كل طرف العمل لصالحه تمكن القادر من إجراء محالفات سرية بين الطرفين كل على حدى للإيقاع بينهما، فانفض حلفهما، وبدأ الكمبيادور يجوب مدن شرق الأندلس ويفرض على

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 238.

2- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ص: 422-423.

حكامها المبالغ الطائلة، وأصبحت بلنسية تدفع له سنويا مبلغا طائلا يقارب مئة ألف دينار لقاء حماية المدينة نيابة عن القادر[1].

اضطربت أمور بلنسية وساءت أحوالها الاقتصادية وعمّت الشكوى جميع السكان، فعندها قرّر قاضيها أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحّاف، استدعاء القائد المرابطي محمد بن عائشة، فقاد معه ثورة ضد القادر بن ذي النون الذي فرّ من المدينة، لكن ابن جحّاف قبض عليه، فقتله وحمل رأسه على عصا يطاف به الأسواق والسكك، واحتوى ابن جحّاف على ما كان معه، وتبوّأ الرياسة وأظهر أبّهة الملك، ثم إن ابن جحّاف هذا استثقل المرابطين، وتحالف مع الكمبيادور في اخراجهم من بلنسية، وأن يستبدّ بالملك لنفسه وليقيم الكمبيادور معه كما فعل ابن ذي النون، يحمي حوزته ويقاتل عنه، فطمع في ذلك[2]، وكان ابن جحّاف قد اتفق مع الكمبيادور على شروط هي: أن يغادر المرابطون المدينة دون أن يعترضهم أحد، أن يسلّم ابن جحاف أموال القادر للسيد، أن تسلّم له الأموال التي كانت مقرّرة له سابقا كجزية سنوية، أن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد، أن يرتد الجيش القشتالي إلى جباله[3].

ودخل السيد الكمبيادور وجنده بلنسية، وفي الحال احتلوا أبراجها خلافا لشروط المعاهدة، ونزل السيد بالقصر، ووعد أهالي بلنسية بحمايتهم، وتسلّم من ابن جحاف أموال القادر وذخائره، وهدّده أن يستبيح دمه إن أبقى شيئا من أموال القادر عنده، وأبقاه في منصبه قاضيا للمدينة، وشاءت الأقدار أن يقع السيد بعد ذلك بقليل على مخبئ للحُلى والذخائر التي انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله، فكان ذلك نذيرا بنكبته المروعة، فأمر السيد بالقبض عليه وأفراد أسرته وعذّبه عذابا شديدا، ثم أمر بإعدامه حرقا في ساحة المدينة، وأمر كذلك بإحراق جماعة من أعلام بلنسية، فمال على أهلها وأذلّهم، وعاث فسادا في المدينة[4].

وروّعت الأندلس لسقوط بلنسية في أيدي النصارى، كما روعت من قبل بسقوط طليطلة، وتوالى على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صريخ الأندلس ورسائل أعيانها، فتجرّد أمير المسلمين

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص ص: 239-240.
2- ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص ص: 32-33.
3- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، المرجع السابق، ص: 240.
4- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص ص: 245-246.

لمّا بلغه هذا النبأ الفظيع، واتصل به هذا الرزء الشنيع، وشُغل يده ولسانه، يسرّب إليها الرجال والأموال، والحرب هنالك سجال، والحال بين العدو وبين عساكر أمير المسلمين في ذلك إدبار وإقبال، حتى رَحَض عارها، وغسل شنارها، وكان آخر أمراء أجناده، الأمير أبو محمد مزدلي، ففتحها الله عليه، وأذن في تخلّصها على يديه، في رمضان سنة 495هـ/1099م[1]، وهكذا عادت بلنسية إلى حظيرة العروبة والإسلام .

8-دويلة دانية والجزائر الشرقية:

تتميّز مملكة دانية بموقعها المنعزل في شرقي الأندلس، وتمتدّ رياستها عبر البحر إلى الجزائر الشرقية، فكانت بذلك تغلب صفتها البحرية على صفتها البرية، ثم كانت بهذا الموقع المنعزل الحصين أبعد من أن تنزلق إلى معترك الحرب الأهلية، التي كانت تنحدر إليه دويلات الطوائف الأخرى، وأبعد عن عدوان مملكة قشتالة، الذي كان يهدد سائر الطوائف[2].

وعند اندلاع الفتنة القرطبية وسقوط الدولة العامرية، انتزى مجاهد العامري على مدينة دانية، وكان مجاهد من فحول فتيان بني عامر، قدمه المنصور بن أبي عامر على دانية، وكان عند وقوع هذه الفتنة مقدّما على الجزائر الشرقية الثلاثة، فلمّا صحّ عنده وقوعها خرج إلى دانية وضبطها وجميع أعمالها، وتسمّى بالموفّق بالله[3]، ويصفه ابن بسام الشنتريني نقلا عن ابن حيان فيقول: "كان مجاهد فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن، عنِيَ بذلك من صباه وابتداء حاله، إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن التّزيُّد عظيم ما مارسه من الحروب برا وبحرا، حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمّة، وكانت دولته أكثر الدول خاصّة، وأسراها صحابة، لانتحاله العلم والفهم، فأمّه جملة العلماء، وأنسوا بمكانه، وخيّموا في ظل سلطانه..."[4].

وبحكم الموقع الجغرافي لدانية من الأندلس فقد تخلصت هذه المدينة من المنازعات والصراعات التي شغلت ملوك الطوائف، وقامت سياسة مجاهد العامري على بناء وتحصين قواعد

1- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق3-م1، ص ص: 100-101.
2- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص ص: 187-188.
3- ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص: 155.
4- ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ص: 23.

دويلته والاهتمام ببناء قوات عسكرية برية وبحرية، أعدّت منذ البداية لمهمات تتعدّى حدود الأندلس، وكانت أولى تلك المهمات تتحدّد في تنفيذ مخططاته الرامية للسيطرة على جزر البحر المتوسط، ومنها جزيرة سردينيا، وكذا التعرض للمدن الإيطالية جنوة وبيزا التي أصابتها قواته البحرية مرات عديدة[1].

ولمّا توفي مجاهد سنة 436هـ/1044م، خلفه من بعده ولده علي بن مجاهد الذي أسره الروم في صباه، فتلقّب بإقبال الدولة، ونهج سياسة أبيه في الحكم، وفي عهده ضمّ بنو هود دانية إلى مملكة سرقسطة[2]، حيث جرت بينه وبين ابن هود حروب وصراعات استولى فيها على دانية، وحاصر علي بن مجاهد إلى أن سأله أن يسلمه في نفسه وولده، فكان له ذلك، ونقله إلى سرقسطة وأقطعه إقطاعا بها، وكان ذلك سنة 468هـ/1076م[3].

أمّا الجزائر الشرقية والتي تعدّ ميورقة أهم جزرها فقد كانت تحت حكم ابن أخ مجاهد العامري، وهو عبد الله المرتضى، وكانت الجزائر الشرقية من أهم أعمال مجاهد، وبها كانت مرافئ معظم أساطيله، لأنّ مياه دانية لا تصلح لرسوّ السفن الكبيرة[4]، وبعد وفاة المرتضى سنة 468هـ خلفه مساعده في حكم الجزيرة مبشّر بن سليمان، وفي عهده تعرّضت ميورقة لهجوم الأساطيل الغربية المتحالفة بيزا وبرشلونة وفرنسا، فسقطت ميورقة سنة 508هـ/1115م بعد أن صمدت صمودا رائعا، وقتل النصارى جميع المدافعين عنها، وانتهبوها وعاثوا فيها فسادا حتى حررها المرابطون سنة 509هـ/1117م[5].

ج-دولة المرابطين في الأندلس:

بعد جهاد دام ربع قرن جنى يوسف بن تاشفين ثمرة أتعابه، وبسط سيطرته على المغرب ونشر الأمن في ربوعه، واختارت قبائل الملثمين المناطق الخصبة وسكنتها، ومع ذلك ظلت محافظة على قوتها وتراثها البدوي، ودفعها طموحها إلى البحث عن مناطق جديدة تنشر فيها المبادئ التي

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 245.
2- ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص: 157-158.
3- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2، ص: 206.
4- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 197.
5- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، المرجع السابق، ص: 247.

اعتنقتها لأنّها لم تؤمن بانتهاء دعوة عبد الله بن ياسين[1]، وقد قدّر ليوسف بن تاشفين القيام بدور آخر وهو الانطلاق إلى الأندلس، وتحمّل أعباء الكفاح المسلّح ضد النصارى ووقف الزحف الصليبي، وكان هذ الانطلاق أيضا بداية صفحة جديدة في علاقة المغرب بالأندلس، التي ستصبح بعد ذلك تابعة للمغرب الأقصى في ظل المرابطين والموحدين فيما بعد[2].

فعقب استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة ومملكة بني ذي النون سنة 478هـ /1075م، وتهديده لجميع ملوك الطوائف بالويل والفناء، رأى الأندلسيون وجوب الاستنصار بإخوانهم في عدوة المغرب، وإرسال صريخهم المتوالي إلى يوسف بن تاشفين، لينهض إلى نجدتهم وإغاثتهم، وقد اختلفت الروايات في تفصيل مقدمات هذا الصريخ وظروفه، والقول المشهور في ذلك هو أنّ سقوط طليطلة كان العامل الجوهري الذي حمل ملوك الطوائف على أن يتّجهوا إلى الاستنصار بالمرابطين[3]، حيث أنّ ألفونسو لمّا استولى على طليطلة طمح في الاستيلاء على مملكة اشبيلية بهدف ضرب القوة الرئيسية لدى المسلمين باعتبارها أكبر ممالك الطوائف وأقواها، وبعد ذلك يتمكن بكل سهولة من إخضاع باقي الدويلات الأخرى، لكن وبموجب الشروط والمعاهدات التي كانت بينه وبين المعتمد، اختار أن لا يهاجمه مباشرة، فسأله أن يتخلّى له عن معاقل وحصون على الحدود، كان الموت عند المعتمد أولى من إعطائها له، وإمعانا في الإذلال والتجنّي طلب منه السماح له بإدخال زوجته إلى جامع قرطبة لتلد فيه بناء على نصيحة الأساقفة، لأنّه كان من قبل كنيسة قوطية قديمة[4].

وكان السبب المباشر في استنجاد ملوك الطوائف بالمرابطين، أنّ ألفونسو السادس أرسل سفيره اليهودي ابن شالب ومعه خمسمائة فارس إلى إشبيلية، لقبض مال الجزية على عادتهم في كل سنة، فنزلوا خارج إشبيلية، فأرسل إليهم المعتمد المال والسبائك، لكن ابن شالب تجرّأ على المعتمد، واتّهمه بإعطائه نقودا مزيفة قائلا: "والله لا آخذ منه هذا المعيار، ولا آخذ منه إلا مشحّرا، ولا يؤخذ منه في هذا العام إلّا أجفان البلاد"، وزاد في كلامه وأساء الأدب، فصلب المعتمد اليهودي وقتل من كان معه، فلما بلغ ألفونسو ذلك أقسم أن لا يرفع يده عنه، وأن يحشد له

1- عباس نصر الله سعدون، دولة المرابطين، ص: 57.

2- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية، ص: 28.

3- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 315.

4- عباس نصر الله سعدون، المرجع السابق، ص: 64.

الروم، ويصل بهم إلى بحر الزقاق[1]، فنصح المعتمد وزراؤه بأن يعتذر لألفونسو وأن يعوضه، لكن كان للمعتمد رأي آخر، حيث قام باستدعاء ابنه الرشيد، وأفضى إليه بأنّه يستحيل عليه التصدي لألفونسو، وبأنّه يعتزم أن يستدعي المرابطين إليه، وأنّه يؤثر أن يؤول ملكه لإخوانه في الدين على أن يصير للنصارى[2]، وقال مقولته الشهيرة: "لأن يرعى أولادنا جمالهم في المغرب أحبّ إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج"[3]، ثم أرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، وبعثوا سفارتهم الرسمية إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، على يد أبي بكر عبيد الله بن أدهم قاضي قرطبة، وأبي إسحاق بن مُقانا قاضي بطليوس، وأبي جعفر القليعي قاضي غرناطة، وأبي بكر بن زيدون وزير المعتمد، وعبر السفراء البحر إلى المغرب وقصدوا أمير المسلمين في مراكش، وقد وقعت بين هاته السفارة وأمير المسلمين مفاوضات أسفرت عن عهود متبادلة، خلاصتها أن يتعاون أمير المسلمين وملوك الطوائف على محاربة النصارى، وأن يؤمن ملوك الطوائف في ممالكهم، وأن يسلم ثغر الجزيرة الخضراء إلى أمير المسلمين، وقد كان يومئذ من أملاك المعتمد، لكي يكون قاعدة أمينة لعبور جيشه، وقد نزل ابن عباد عند هذه الرغبة، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيد الراضي بإخلائها، لتكون رهن تصرّف أمير المسلمين[4].

جوّز أمير المسلمين جيشه للجهاد، فاستقروا بساحل الجزيرة الخضراء، فالتقاه أهل الأندلس مستبشرين بقدومه، واتصل خبر قدومه بألفونسو وهو محاصر سرقسطة، فتراجع عنها، وبعث إلى ملوك النصارى، فأتاه من تلك البلاد من حشود الروم أمم لا تحصى، فارتحل إلى لقاء أمير المسلمين، وكان يوسف بن تاشفين قد قدّم قائده داوود بن عائشة، وتقدّم المعتمد أمام ابن عائشة مع أمراء الأندلس وجيوشهم، وكتب يوسف إلى ألفونسو يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فلما وصل الكتاب إلى ألفونسو أدركته الأنفة وداخله الكبر، وقال للرسول: قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك، فارتحل ألفونسو حتى نزل قرب مدينة بطليوس، وارتحل أمير المسلمين بموضع يعرف بالزلّاقة من أحواز بطليوس، ونزل المعتمد وأمراء الأندلس بربوة ترهيبا للعدو، وبين

1- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط1، 1979، ص: 42.

2- أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس فب عهد المرابطين والموحدين، ج1، تر وتع: محمد عبد الله عنان، تق: سليمان العطار، القاهرة: المركز القومي للترجمة القاهرة، 2014، ص: 78.

3- ابن خلكان، وفيات الأعيان، م7، ص: 115.

4- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 318.

الفريقين وعسكر الروم نهر بطليوس، فأقاموا ثلاثة أيام والرسل تختلف بينهم إلى أن اتفق رأيهم أن تكون الملاقاة بينهم يوم الاثنين 14 رجب 479هـ/26 أكتوبر 1086م، لكن المعتمد أدرك أن في الأمر خدعة، ودعاه بأن يجهّز جيشه وأن يستعدّ للقتال، وأخبره جواسيسه وعيونه أن جيش ألفونسو في حالة استعداد، وفي فجر يوم الجمعة وبينما المعتمد في صلاة الصبح أقبلت إليه خيل العدو مسرعة[1]، وفي سهل الزلاقة اشتبك الجيشان في صراع عنيف وفي معركة رهيبة عامة، هجمت فيها مقدمة النصارى بقيادة ألبارهانس على مقدمة المسلمين التي يقودها المعتمد بن عباد يسانده داوود بن عائشة بفرسانه المرابطين[2].

ونظرا لكثافة الهجوم وكثرة النصارى لم يثبت المعتمد بن عباد وفرسان إشبيلية إلّا بصعوبة شديدة وصبر كبير، بعد أن فرّ أكثر جند الأندلس الذين تبعهم جند الروم، فأعلم أمير المسلمين بانهزام أمراء الأندلس، وأنّ أكثرهم قد أسر وقتل، فرأى أنّه قد آن الأوان أن يفترس العدو إذ تباعد عن محلّته، فسار إليهم بجيشه فتغلّب على محلة ألفونسو، وقتل فيها نحو عشرة آلاف فارس، فتفرّق جيش النصارى وأثخن فيهم المسلمون القتل، وفرّ ألفونسو إلى جبل منيع مع نحو ثلاثمائة فارس من رجاله، مثخنا بجراحه، بعد كان قوام جيشه أكثر من ستين ألفا، ثم ابتدر المسلمون بقطع رؤوس المشركين، وبنوها كالصوامع، وقام المؤذنون في أعلاها بالآذان ثلاثة أيام[3]، واستبشر المسلمون بالعدوتين بهذا النصر المبين.

بعد معركة الزلّاقة رجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن ترك حاميات مرابطية في الأندلس، تساعد القوات الأندلسية في التصدي لهجمات النصارى التي بدأت تشنّ غاراتها على الأندلس انتقاما لهزيمتها في الزلاقة، وازداد عبث النّصارى الموجودين في حصن لِيِّط شرقي الأندلس، والذين كرّروا هجماتهم على مدن لورقة ومرسية، فاستنجد المعتمد بن عباد وبعض فقهاء الأندلس بالمرابطين مرة أخرى، فعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية عام 481هـ/1088م وسار صوب حصن لِيِّط، وبعد حصار لمدة أربعة أشهر انسحبت القوات

1- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص: 146-147.

2- الخليفة حامد محمد، انتصارات يوسف بن تاشفين، الشارقة-الإمارات، مكتبة الصحابة، ط1، 2004، ص: 146.

3- ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، تح: أحمد مختار العبادي، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1971، ص ص: 94 -95.

النصرانية من الحصن بمساعدة ألفونسو إلى طليطلة، وهكذا تخلّصت القوات الإسلامية من خطر حصن ليِّيط دون الدخول في معركة حاسمة، ثم رجع أمير المسلمين إلى المغرب بعد أن اكتشف الخلافات العميقة بين ملوك الطوائف، والتعاون السري بين بعضهم وبين ألفونسو، وأدرك أنّه للمحافظة على الأندلس يجب خلع ملوك الطوائف، ومواصلة الجهاد بالاعتماد على نفسه فقط[1].

وأقام يوسف بن تاشفين ببلاد المغرب إلى سنة 483هـ/1090م، ثم جاز إلى الأندلس برسم الجهاد وهو الجواز الثالث، فسار حتى نزل طليطلة وحاصرها وألفونسو بها، ولم يأته أحد من أمراء الأندلس فغاظه ذلك، فلمّا رجع من غزو طليطلة سار إلى غرناطة فنازلها، وحاصر عبد الله بن بلقين بها مدة شهرين، فسلّمها بعد أن أمّنه يوسف[2]، ثم سيطر على إشبيلية عام 483هـ بعد قتاله للمعتمد، ثم على مملكة المرية ومملكة مرسية 484هـ/1091م، ثم مملكة بطليوس عام 488هـ/1095م، ثم مملكة سرقسطة عام 503هـ/1110م، وقد تمّت هذه السيطرة بعد جهود كبيرة قامت بها القوات المرابطية في مقاومة الخطر النصراني المساعد لملوك الطوائف أولا، وبمقاومة ملوك الطوائف الذين تصدّوا للقوات المرابطية ثانيا، أمّا مملكة بلنسية ومملكة الجزائر الشرقية فقد دخلتها القوات المرابطية بعد استنجادها بهم من هجمات الكمبيادور وأساطيل النصارى المتكررة لها وكان ذلك عامي 508هـ و509هـ/1116م[3].

د-دولة الموحدين بالأندلس:

تضافرت عوامل متعدّدة في إضعاف المرابطين، سواء في بلاد المغرب أو في الأندلس، ولعلّ ضعف الأمراء الذين تولوا الحكم بعد علي بن يوسف بن تاشفين (500هـ-537هـ /1107-1143م) كان في مقدمة الأسباب، بالإضافة إلى ظهور نشاط الموحدين في عدوة المغرب[4]، وهذا ما عجّل في سقوط دولة المرابطين.

ويمكن لنا أن نعرض بإيجاز عوامل سقوط دولة المرابطين، والتي ترجع إلى عدّة عوامل كان في مقدمتها ضعف القيادة العليا للبلاد، وذلك منذ تولي علي بن يوسف بن تاشفين الحكم ممّا

1- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص: 254.
2- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص ص: 153-154.
3- السامرائي خليل ابراهيم وآخرون، المرجع السابق، ص ص: 256-257.
4- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، المرجع نفسه، ص: 263.

دعا كثيرا من الأمراء إلى الاستبداد، ويعبّر عنه عبد الواحد المراكشي بقوله: "واختلّت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالا شديدا، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرّح بأنّه خير من علي أمير المسلمين، وأحقّ بالأمر منه!"[1]، وقد ساعدهم على ذلك انصراف الأمير إلى العبادة، كذلك تخاذل الجند وتخلّيهم عن روح التقشّف والجهاد التي تربّوا عليها، وذلك لتأثرهم بحياة الترف الأندلسية، كما أنّ الحروب المستمرّة في جبهة الأندلس استنفذت جزء كبيرا من طاقة المرابطين الحربية، ممّا أسهم في هزائمهم المتكررة أمام الموحدين، كذلك كثرة الإنفاق على المجهود الحربي الذي استنزف كثيرا من المال ممّا أدى إلى التدهور الاقتصادي الذي عانته البلاد في أواخر أيامها[2]، كما قام أهل الأندلس بالثورات على المرابطين في أواخر دولتهم وانتشرت هذه الثورات بسرعة في معظم قواعد الأندلس[3]، والعامل الرئيسي الذي أدّى إلى سقوط دولة المرابطين هو ظهور الدعوة الموحدية بقيادة المهدي بن تومرت ثم خليفته عبد المؤمن بن علي.

نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الحروب والصراع المرير، استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض، وبعد دخول الموحدين مراكش عاصمة المرابطين، أصبح عبد المؤمن بن علي سيد المغرب الأقصى كله، فكان لابدّ من توطيد أركان دولته الجديدة في الأندلس والمغرب الأوسط والأدنى[4].

لم يتكلّف الموحدون كثيرا في السيطرة على الأندلس ما عدا شرقي الأندلس والجزائر الشرقية، فلم يجدوا صعوبة تذكر في هذا الاحتلال، فقد تمّ احتلال معظم الأندلس بسهولة إلى حد ما وبسرعة في بعض الأحيان، فلم تنشب معركة كبيرة تذكر ولا مقاومة طويلة[5]، فمنذ أن انتشرت دعوة الموحدين بالمغرب، تشوّف إليهم أعيان الأندلس، فجعلوا يفدون في كل يوم عليهم،

1- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص: 135.

2- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية، ص ص: 43-44.

3- أبو رميلة هشام، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الأندلس، عمّان: دار الفرقان، ط1، 1984، ص: 69.

4- الصلابي علي محمد، دولة الموحدين، ص: 112.

5- هشام أبو رميلة، المرجع نفسه، ص: 89.

ويتنافسون في الهجرة إليهم[1]، ومن أوائل المتصلين بعبد المؤمن بن علي أمير البحر علي بن عيسى بن ميمون المنتزي على المرابطين في قادش، وقد قدم على عبد المؤمن أثناء حصاره لفاس في أوائل عام 540هـ/1145م وقدّم إليه الطاعة[2]، ثم عاد إلى الأندلس وخطب للموحدين في جامع قادش، وهي أول خطبة خطبت للموحدين بالأندلس[3].

وتوالت الوفود الأندلسية إلى عبد المؤمن لأخذ البيعة له وكان في مقدمة من وفد من زعماء الثورة ضد المرابطين، أبو الغمر بن السائب بن عزون زعيم شريش وأركش والرندة، وأبو جعفر بن حمدين[4] زعيم ثورة قرطبة المعزول، حيث وفدا عليه في أوائل سنة 541هـ/1146م وهو محاصر لمراكش، وذلك لنجدتهم ضد المرابطين، ثم وفد عليه زعيم ثورة المريدين في غرب الأندلس أحمد بن قسي[5]، وفي أوائل سنة 542هـ/1146م وعقب افتتاح مراكش، وفد عليه وفد كبير من إشبيلية وعلى رأسه القاضي أبو بكر بن العربي[6] وعدّة من زعماء إشبيلية، يحملون إليه بيعة أهل إشبيلية، وذلك على إثر افتتاح الموحدين لها، وفي أواخر سنة 545هـ وأوائل سنة 546هـ، وفد على عبد المؤمن وهو بسلا وفود أندلسية عديدة من مختلف حواضر الأندلس، ومن بينها رجالات الأندلس البارزين، من الفقهاء والقضاة والزعماء والقواد، بلغوا نحو خمسمائة، وشرح له خطباؤهم خطورة عدوان النصارى على الأندلس، واستطالتهم على قرطبة[7].

1- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص: 156.

2- دندش عصمت عبد اللطيف، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين: عصر الطوائف الثاني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988، ص: 104.

3- ابن عذاري، البيان المغرب: قسم الموحدين، تح: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1985، ص: 34.

4- **أبو جعفر حمدين**: هو القاضي أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين الثعلبي، قاضي الجماعة بقرطبة، صارت إليه رئاسة قرطبة عند اختلال أمر المرابطين وقيام ابن قسي عليهم بالأندلس، توفي سنة 548هـ. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ق20، ص: 244.

5- **ابن قِسّي**: هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي، متصوّف أندلسي قاد ثورة المُريدين في غرب الأندلس أواخر أيام دولة المرابطين، متخذا من قلعة مِيرْتُلَة في غرب الأندلس قاعدة له، ثم لحق بعد ذلك بالموحدين في المغرب. ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص: 197-199.

6- **ابن العربي**: هو القاضي الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعافري المعروف بابن العربي، كانت له رحلة إلى المشرق، وكان من أهل التفنّن في العلوم والاستبحار فيها. ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ص: 692.

7- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثالث، ص: 325- 326.

وكان أوّل جيش أرسله الموحدون إلى الأندلس في عام 540هـ، وذلك من أجل إزالة ما بقي فيها للمرابطين من سلطان، فسيّر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس جيشا بإمرة قائده أبي عمران موسى بن سعيد، فجاز إلى شبه الجزيرة في أواخر سنة 540هـ/1146م واستطاع بعد جهود عنيفة وبمؤازرة قوة من فرسان الغرب بقيادة ابن قسي، أن ينتزع حصن الجزيرة الخضراء من يد المرابطين، ودخله الموحدون في محرم من سنة 541هـ/1146م، ثم فتح جبل طارق وشريش أبوابهما للموحدين طوعا واختيارا، وبايعتا عبد المؤمن على الطاعة، وسار الموحدين بعدها ومعهم قوات ابن قسي إلى إشبيلية التي كانت فيها الحامية المرابطية، وانضم إليهم القاضي ابن حمدين وعاونهم في الاستيلاء على تلك المدينة الهامة، وذلك في شعبان من سنة 541هـ/1147م، ولجأ المرابطون إلى حصون قرمونة المنيعة، ودُعِيَ لعبد المؤمن في مساجد إشبيلية، ثم دعي له بعد ذلك بقليل في مالقة، وكان بغض الأندلسيين للمرابطين ورغبتهم في الانتقام منهم، هو ما ساعد على تقدّم الموحدين بسرعة[1].

ثم تمرّدت بعد ذلك مدينة إشبيلية ومعظم مدن غربي الأندلس، فأرسل إليهم عبد المؤمن جيشا جديدا أعاد السيطرة على غربي الأندلس، ثم بدأت القوات الموحدية بإرسال سراياها إلى المدن والحصون المجاورة وسط الأندلس، فسيطرت على مدينة أبدة وبيّاسة، وعلى حصن شُلّير وأركش وبرشانة، وبقيت غرناطة آخر معاقل المرابطين في الأندلس التي كان يحكمها المرابطي ميمون بن بدر اللمتوني، هذا الذي رفض الاستسلام للموحدين حتى عام 551هـ/1156م، أين سلّم غرناطة للموحدين بعد أن حصل على الأمان من عبد المؤمن بن علي، أمّا مدينة المرية التي كان قد استولى عليها النصارى سنة 542هـ، فقد أصرّت القوات الموحدية على استرجاعها، فجهّزت قواتها البرية وأساطيلها البحرية وحاصرتها، وبعد حصار دام سبعة أشهر فتح الموحدون مدينة المرية ودخلوها في أواخر عام 552هـ/1157م، بعد أن فشلت جهود الممالك الاسبانية وأعوانها من القوات الأوربية في استرجاع المدينة[2].

1- أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس، ج1، ص: 231-232.

2- السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب، ص ص: 265-266.

الفصل الأول:

الموانئ ودورها في رسم خطوط الملاحة البحرية بين المغرب الأوسط والأندلس.

المبحث الأول: الموانئ واتصالها بضفتي المغرب الأوسط والأندلس:

1-أصناف الموانئ
2-موانئ المغرب الأوسط
3-الموانئ الأندلسية

المبحث الثاني: الأساليب الملاحية والتأثيرات المناخية على الملاحة البحرية

1-أساليب وتقنيات الملاحة البحرية

2-التأثيرات المناخية على الملاحة البحرية

المبحث الثالث: قياس المسافات البحرية بين موانئ العدوتين

1-المسافات البحرية بين بعض موانئ المغرب الأوسط والأندلس
2-المسافات البحرية بين موانئ المغرب الأوسط

تمهيد:

تميز ? بلا?? لمغر ??لأ?سط وبلاد الأندلس منذ العصور القديمة بموقعيهما الاستراتيجي الهام الذي جعل لكليهما مكانة مرموقة في مجرى النشاط التجاري في عالم البحر المتوسط، بفضل ما تتمتّع به الأولى من طول الشواطئ على البحر المتوسط بينما تعتبر الثانية شبه جزيرة محاطة بثلاث جهات بحرية أهمّها الساحل المتوسطي، وقد ساهم المسلمون منذ الفتح الإسلامي في بعث وإنعاش التجارة العالمية في البحر المتوسط، فأنشأوا الموانئ وأعادوا تنشيط المسالك البحرية من جديد[1]، مستندين في ذلك على مؤهلات طبيعية مواتية لبناء هاته المراسي.

المبحث الأول: الموانئ واتصالها بضفتي المغرب الأوسط والأندلس

1-أصناف الموانئ:

تحتوي كل من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس على واجهة بحرية كبيرة مطلّة على البحر الأبيض المتوسط، وقد ساعدت التضاريس الجغرافية الناس على اتخاذ المراسي وبناء الموانئ إنّ استخدام الشواطئ المتوسطيّة، سواء في المغرب أو الأندلس، في القرنين الخامس والسادس الهجريين وما قبلهما، ساعد على تطوير موانئ تلك السواحل باتخاذ الخلجان والجبال والجزر وأودية الأنهار ستارا من الرياح، أو اتخاذ مرسيين واحد للسفن الكبيرة والآخر للسفن الصغيرة، أو حفر الموانئ. فضلا عن ذلك فإنّ الملاحة في البحر المتوسط كانت ميسّرة، لأنّ حركة الرياح الشرقية والغربية تساعد السفن على الإبحار، على عكس الوضع في المحيط الأطلسي، فإنّ السفن لا تتحرك إلا مع الرياح الغربية في موسم العواصف والأمطار[2].

صُنّفت مرافئ الغرب الإسلامي تبعا للفصل الّذي تستقبل خلاله المراكب والقوارب، والملاحظ أنّ السنة الملاحية في عُرف البحارة والجغرافيين والرحّالة، قد قسّمت إلى فصلين فقط هما

1- مزاري توفيق، النشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين، ج1، الجزائر: الجسور، ط1، 2011، ص ص: 240-241.

2- ذنون طه عبد الواحد، **"التبادل التجاري بين الموانئ الجزائرية والأندلس في القرنيين الخامس والسادس للهجرة"**، ضمن أعمال الملتقى الدولي "الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا"، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر) إلى نهاية العهد العثماني، جامعة الجزائر، ص ص: 410-411.

الشتاء والصيف، حيث كان يُعبَّر عن الفصل الذي ينطلق خلاله النشاط الملاحي بـ"الإبّان"[1]، أو "طياب البحر والحين الذي يركب الناس فيه"[2]، بينما يُعبّر عن موسم توقف الملاحة أو انحصارها على نطاق محدود بأوقات امتناع ركوب البحر، أو "ارتجاج البحر وكَلَب الشتاء"[3]، أي أوقات اشتداد الشتاء وهيجان البحر.

وقد صنّف الجغرافيون المراسي إلى قسمين: قسم من المراسي التي كان باستطاعتها استقبال وإيواء السفن طيلة السنة، خاصة في فصل الشتاء الذي شكّل خطرا عليها بسبب ارتفاع حدّة هيجان البحر وهبوب الريّاح القوية[4]، والذي أطلق عليه جغرافيو الغرب الإسلامي لفظ المرسى "الشتوي" أو "المَشْتى"، كما دعيت بنفس الاسم تلك المراسي التي تقضي فيها المراكب فصل الشتاء بمنأى عن المخاطر الطبيعية، فيقال في هذه الحالة إنّها تَشْتي فيها السفن[5]، وعلى سبيل المثال، يصف البكري مرسى جزائر بني مزغنّى بأنّه "مرسى مأمون شتوي"[6].

أمّا القسم الثاني من المراسي، فإنّ ولوجها اقتصر على موسم الملاحة في فصل الصيف، في حين كانت تتعطل حركة الرسوّ بها في باقي فصول السنة، بسبب انكشافها أمام أمواج البحر العاتية والعواصف الهوجاء، وعدم قدرتها على حماية السفن من العطب في هذه الظروف[7]، وتوصف في الغرب الإسلامي بأنّها مراسي صيفية أو غير مأمونة، أي مكشوفة أمام الرياح وأمواج

1- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج8، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف: حجي محمد، وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981، ص: 298.

2- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2012، ص: 43.

3- القروي أبو القاسم خلف بن أبي فراس الإفريقي، أكرية السفن، در وتح: عبد السلام الجعماطي، الرباط: دار الأمان، ط2، 2017م، ص: 62.

4- الجعماطي عبد السلام، النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316هـ-483م)، الرباط: دار الأمان، ط1، 2010، ص: 78.

5-الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة، ص: 44.

6- البكري، المغرب، ص: 171.

7- الجعماطي عبد السلام، النقل والمواصلات بالأندلس، ص: 78.

البحر[1]، ومن بين مراسي المغرب الأوسط الصيفية أو غير المأمونة مرسى الدجاج الذي هو "صيفي غير مأمون"[2].

ثم إنّ الغالب على المراسي الشتوية أن تكون مُكِنَّة، أي أنّها أكثر أمانا على السفن التي يمكن أن تمكث فيها دون أن تتعرّض لخطر الرياح والأمواج العاتية، لذلك نلاحظ أنّ وصفها بالشتوية كثيرا ما يقترن بكونها مأمونة، وهو ما يتعذّر إيجاده من بين المراسي الصيفية إلّا في حالات نادرة، وقد استعمل مصطلح "مُكِنٍّ" المشتقة من كلمة "الكِنُّ"[3]، كناية عن الموضع الذي يحمي من آفات الطبيعة القاسية، ويدعى كذلك "مرسى حسن"، ويحمي هذا الصنف من المراسي المراكب من العطب ومن تعرضها لخطر الرياح العاتية والأمواج القوية، ممّا قد يتسبب في تحطمها أو عطبها [4]، أمّا المكان الذي يُعبر منه إلى البحر أو النهر فيدعى بالفَرْضَة، والفَرْض لغة هو الحزُّ في الشيء والقَطع[5]، ومنه اشتقت كلمة الفرضة والتي هي الثُّلمة في النهر أيضا[6]، ونذكر على سبيل المثال مدينة المرية التي كانت فرضة مدينة بجّانة[7]، قبل أن تتمصّر وتصبح من كبريات مدن الأندلس، أو يطلق عليها كذلك تسمية الكَلَّاء التي تعني كل مكان تَرْفأُ فيه السفن وهو ساحل كل نهر[8].

وتختلف مراسي المغرب الأوسط والأندلس من حيث اتساعها أو صغرها، ومن حيث أمانها من الرياح والعواصف، وذلك حسب طبيعتها الجغرافية وتكوينها الجيولوجي، فهناك من المراسي من يتوفر فيها عامل الاتساع والأمان كما هو الحال بالنسبة لمرسى وهران الذي هو "مرسى كبير شتوي سكن من كل ريح"[9]، وكذا مرسى بجاية الذي يعتبر واحدا من أحسن موانئ بلاد المغرب،

1- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة، ص: 45.

2- البكري، المغرب، ص: 171.

3- **الكِنُّ**: هو كل شيء وَقَى شيئا وستره، وهو أيضا البيت. ينظر: ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي الرويفعي، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ص: 3942.

4- الجعماطي عبد السلام، المرجع السابق، ص: 45.

5- **الفَرْضَة**: الحزُّ في الشيء والقطع، وهي أيضا الثلمة في النهر. ابن منظور، المصدر السابق، ص: 3388.

6- الحموي ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص: 243.

7- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 111.

8- الحموي ياقوت، المصدر السابق، ص: 472.

9- البكري، المصدر السابق، ص: 170.

وذلك يعود إلى طبيعته الجغرافية حيث أنّ الجبل المطلّ عليه يشكّل نتوء على بقية الساحل في الشمال، ويحمي بفعالية الميناء، في حين أنّ الأراضي المرتفعة لقعر الخليج تضع الجون[1] في مأمن عن الرياح الجنوبية، ويوفّر خليج بجاية إذن حماية مثالية ضد الرياح المهيمنة، إلّا من الرياح الشمالية الشرقية التي هي قليلة الهبوب[2]، وهناك بعض المراسي من تستر من ريح ولا تستر من أخرى، فمثلا مرسى وقّور الذي هو مرسى ضيق يستر من الريح الشرقية ولا يستر من غيرها[3]، ويوجد من المراسي من لا يستر من أي ريح، وهي ما تسمى بالمراسي الصيفية كما ذكرنا آنفا، فمثلا مرسى مغيلة بني هاشم "مرسى صيفي لا يكنّ من ريح"[4]، أي لا يستر من أي ريح.

2-موانئ المغرب الأوسط:

تتميز بلاد المغرب الأوسط بامتداد شاطئها الكبير، وبتركّز عدد كبير من مدنها على السواحل، ممّا أدّى إلى وجود عدّة منافذ بحرية تربطها مع عالم البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت هذه المنافذ عبارة عن مراسي صغيرة للتحول في العهود اللاحقة إلى مدن وموانئ كبيرة، وقد شكّلت هذه الموانئ والمدن الساحلية قسما مهما من كتابات المؤرخين والجغرافيين، فبعدما كانت هذه المدن عرضة لتهديدات الأساطيل النصرانية، خاصة في القرون الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فقد شهدت في عقود لاحقة تحولات كبرى تتمثل في انتقال هذه المدن الساحلية من الأدوار العسكرية إلى مهمات أخرى تجارية، خاصة وأنّ المنطقة كانت حلقة وصل بين بلاد الأندلس وتجارة الصحراء، فضلا عن دورها في ربط بلاد المغرب الإسلامي بالمركز حيث دمشق وبغداد ومكة، وهذا ما نستشفه من خلال النصوص التاريخية وأوصاف الجغرافيين[5]، ولذلك فقد جاءت تعريفاتنا على هذا السياق: التعريف بالمدينة أوّلا ثم المرسى الذي تحتويه، ومن أهمّها:

1- **الجُون**: وهو الخليج الصغير. ينظر: حسن أميلي، المعجم البحري والملاحي، الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2011، ص ص: 12، 24.

2- فاليرين دومنيك، بجاية ميناء مغاربي (1067-1510م)، ج1، تر: عمار علاوة، الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية، 2014، ص ص: 312-313.

3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 272.

4- البكري، المغرب، ص: 171.

5- الطويل طاهر، المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط من النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن 5 هـ، الجزائر: المتصدر للترقية الثقافية والعلمية، ط1، 2011، ص ص: 306-309.

-مرسى الخرز:

وهي مدينة المرجان، وتشير أغلب المصادر التاريخية والجغرافية إلى طابعها المؤسس على أنّه مرسى أكثر من وروده كمدينة ساحلية[1]، فيحدّده ابن حوقل على أنّه قرية غير أنّها نبيلة وذلك لمكان المرجان فيها، وحضور من يحضرها من التجار[2]، ويبدو أنّ المرسى قد تطور عبر الوقت ليصبح مدينة، ولذلك يقول المقدسي أنّه: "مدينة في جزيرة على البحر"[3]، ثم يأتي البكري ليورد وصفا أكثر دقة من سابقيه، ويجمع بين صفة المدينة والمرسى بقوله: "مدينة مرسى الخرز"[4]، ثم يصفه بأنّه مدينة قد أحاط بها البحر إلا مسلكا ضيقا ربما قطعه البحر في الشتاء، ثم يذكر أنّ عليها سور وبها سوق عامرة[5]، مدعّما بذلك وصف المقدسي بأنّه جزيرة، ونفس الوصف يورده الإدريسي غير أنّه وصفه بالمدينة الصغيرة، ثم يذكر أنّ عليها سور حصين، ولها قصبة، وحولها عرب كثير وعمارة أهلها لها[6].

فالمدينة ومرساها حسب أوصاف الجغرافيين تتميّز بأهمية كبيرة في كامل الحوض الغربي للبحر المتوسط، وهذا يعود لمعدن المرجان الذي لا يضاهيه بالمنطقة أي مرجان آخر[7]، فعنه يقول ابن حوقل: "ولا أعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة"[8]، وحسب المقدسي فإنّ سكان المدينة يعتمدون في تجارهم أساسا على معدن المرجان، لقوله: "ومنها يرتفع المرجان لا معدن له غيرها ولا يخرج إلّا من بحرها"[9]، ويذكر ابن حوقل الذي زار المنطقة أنّ سلطان المغرب بها قد جعل على عملية استخراج المرجان أُمناء، وناظِر يلي صِلاتها ومعاونها وما يلزم ما يُخرج من هذا المعدن[10]، ونفهم من قول ابن حوقل أنّ حكّام بلاد المغرب (سلطان المغرب) الذين كانت مدينة

1- الطويل طاهر، المدينة الإسلامية، ص: 316.
2- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 76.
3- المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت: دار صادر، ص: 226.
4- البكري، المغرب، ص: 141.
5- البكري، المصدر نفسه، ص: 141.
6- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 290.
7- الطويل طاهر، المرجع السابق، ص: 316.
8- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 76.
9- المقدسي، المصدر السابق، ص: 226.
10- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 76.

مرسى الخرز ضمن سلطانهم، كانوا قد أوْلَوا اهتماما كبيرا بهذا المعدن، وبعملية استخراجه وبيعه، حيث أنّهم وضعوا لذلك أمناء ونُظّارًا وعُمَّالًا، ثم يكمل لنا ابن حوقل شرحه للكيفية التي تتمّ بها هذه العملية فيقول: "ونظرا لكثرة المرجان بها فقد خصص لعملية استخراجه ما يقارب الخمسون قاربا، وما زاد على ذلك ممّا في القارب العشرون رجلا إلى ما زاد ونقص"[1]، فيستخرجون منه الشيء الكثير ممّا يباع بالأموال الطائلة[2]، وهذا ما أدّى إلى غنى أهلها وانتعاش التجارة بها، فكانت حسب البكري "جباية هذه المدينة عشرة آلاف دينار"[3].

ورغم الأهمية التي يتمتّع بها هذا المرسى في الجانب الاقتصادي إلّا أنّ ظروفه لم تكن مشجعة على أن يتحوّل إلى مدينة كبيرة، وقد يعود السبب إلى كون "هذه المدينة كثيرة الحيّات فاسدة الهواء، يمتاز أهلها من غيرهم بصفرة ألوانهم"[4]. إنّ هذه الظروف هي التي كانت عماد النظرية الخلدونية في شروط اختطاط المدن، والمتعلقة بتجنّب الأماكن الفاسدة الهواء، لتأثيرها على صحة السكان، كما أنّ المدينة محاطة بأحراش وغابات وجبال، قد تجعل السكن بها يكون محدودا[5].

-مدينة بونة:

وهي مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، على بعد نحو مائة وعشرين ميلا غربا[6]، كانت تسمى في القديم هيبون، تبعد عن مدينة تونس بأربعين فرسخا[7]، ذكرت هذه المدينة في الكثير من المؤلفات الجغرافية والتاريخية، وذلك لأهميتها وشهرتها، فالمقدسي يجعلها من مدن أفريقية[8]، كانت في عهد الفاطمي مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا الصغيرة، وكانت تجارتها

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 76.
2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 291.
3- البكري، المغرب، ص: 141.
4- البكري، المصدر السابق، ص: 141.
5- طاهر الطويل، المدينة الإسلامية، ص: 318.
6- ليون الإفريقي الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983، ص: 61.
7- كربخال مارمول، إفريقيا، ج3، تر: محمد حجي وآخرون، الرباط: مكتبة المعارف، 1984، ص: 7.
8- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 216.

مقصودة وأسواقها حسنة، فيها خصب ورخص موصوف، وفواكه وبساتين، والقمح والشعير في أكثر أوقاتها كثير وافر، بالإضافة إلى احتوائها على معدن الحديد الذي يحمل منها إلى سائر البلاد، وكانت أكثر تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع[1].

يزودنا البكري بمعلومات أكثر تفصيلا عن مدينة بونة، فيذكر أنّها "مدينة أوّلية وهي مدينة أقشتين العالم بدين النصرانية (القديس أوغسطين)، وهي على ساحل البحر في نشر من الأرض منيع مطل على مدينة سبوس"[2]، ثم يصف بعد ذلك عمرانها ومساجدها وأسواقها وحماماتها، كما يذكر "أنّها كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل، وأكثر لحمانها البقر"[3].

وقد صارت المدينة مع بداية القرن 6هـ/12م تحت سيطرة الهلاليين، حيث يذكر الإدريسي أنّ للمدينة أقاليم وأرض واسعة تغلّبت العرب عليها، لكن ما فتئ أن غزاها الملك النورماني روجر الصقلي سنة 548هـ/1153م، وجعل عليها عاملا من بني حمّاد[4].

أمّا عن مرسى المدينة فيصفه البكري بأنّه مرسى مأمون، ويذكر كذلك أنّ لمدينة بونة مرسى آخر يسمّى «مرسى منيع» ومن هذا المرسى تخرج الشواني غازية إلى بلاد الروم وجزيرة سردانية[5] وكرسقة وما والاها[6]، ويزودنا صاحب كتاب الاستبصار بمعلومات أخرى عن هذا المرسى فيقول: "ومرسى مدينة بونة يسمى مرسى الأزقاق، وهو من المراسي المشهورة، وبونة في جون من البحر يسمى جون الأزقاق، وهو صعب فيه عطب مركب القيطاني ومركب الفخري ومراكب كثيرة"[7]، ويبدو أنّ حجم هذا المرسى وعمقه لا يسمحان له باستيعاب سفن الرّكّاب الكبيرة

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.

2-البكري، المغرب، ص ص: 139-140.

3-البكري، المصدر نفسه، ص: 141.

4- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 291.

5- **جزيرة سردانية:** (جزيرة سردينيا) وهي جزيرة على طرف البحر الشامي، كبيرة النظر كثيرة الجبال قليلة المياه، فتحها عبد الله بن موسى بن نصير سنة 87هـ. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص: 314.

6- البكري، المصدر السابق، ص: 172.

7- مجهول، الاستبصار، ص: 127.

والثقيلة كمركبي القيطاني والفخري[1]، ممّا يتسبّب في عطب هذه المراكب نظرا لملامستها لقاع المرسى المملوء بالصخور.

ويبدو أنّ مرسى بونة قد اتّسع وتطوّر فأصبح بذلك من المراسي المهمّة والشهيرة في بلاد المغرب، وأصبحت السفن تنشط فيه أغلب أشهر السنة، وهذا ما جعل تجارة المدينة مزدهرة، وجعلها مقصدا للتجار خاصة الأندلسيين منهم، فكان أهلها في غنى وسعة من العيش، وكان مستخلصها غير جباية بيت المال عشرين ألف دينار[2]، لكن ما يعيب هذه المدينة هو هواؤها الفاسد، شأنها في ذلك شأن الكثير من المدن الساحلية، وهذا ما يقصده البكري في قوله: "إلّا أنّها يصح بها السودان ويَسْقَم بها البيضان"[3].

-مرسى القُل:

تعتبر هذه مدينة من المدن العتيقة التي يقال أنّها من بناء الرومان، حيث "جعلها بطليموس عند سبع وعشرين درجة طولا وإحدى وثلاثين درجة عرضا، وزيادة خمس وأربعين دقيقة، ويسمّيها مدينة القل العظمى، وموقعها عند قدم الجبل يمتد على ساحل البحر"[4]، يذكر البكري هذا المرسى بدون وصفه، وربّما ذلك راجع إلى قلّة أهمية هذا المرسى في عهده، أمّا الإدريسي فيقول أنّه: "قرية عامرة، كانت في سالف الدهر مدينة صغيرة عامرة، والآن هي مرسى وعليه عمارات والجبال تكنفه من جهة البر"[5]، ثم يذكر المسافة التي تفصله عن قسنطينة وهي مرحلتان جنوبا[6]، ويحدّد الحسن الوزان المسافة الفاصلة بين القل وقسنطينة بمائة وعشرين ميلا في جبال شاهقة[7].

ويزودنا صاحب كتاب الاستبصار بمعلومات أخرى عن المرسى، والذي يسميه بالمدينة فيقول: "مدينة القل مدينة قديمة فيها آثار كثيرة للأوّل من الروم، وهي على ضفة البحر"[8]،

1- عبد العليم أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت: عالم المعرفة، 1979، ص: 95.
2- البكري، المغرب، ص: 141.
3- البكري، المصدر نفسه، ص: 141.
4- كربخال مارمول، إفريقيا، ص: 6.
2-الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 274.
6-الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 274.
7- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص: 54.
8- مجهول، الاستبصار، ص: 127.

ويضيف بأنّه "مرسى مدينة قسنطينة"[1]، ويبدو أنّ هذا المرسى لم يكن في مأمن من هجمات أساطيل النصارى، كما وضّح ذلك الإدريسي في قوله: "...وبه ديار وناس ساكنون، وهم الآن في أيام سفر الأسطول يرحلون إلى الجبال ولا يبقون بها شيئا من آثارهم، وإنّما يبقى في زمن الصيف الرجال فقط"[2].

-مرسى الزيتونة:

يقع مباشرة بعد مرسى القل، يذكره البكري في الطريق من القيروان إلى مرسى الزيتونة، بقوله: "ثم تسير من مدينة ميلة إلى مرسى الزيتونة وهو جبل جيجل"[3]، ويصفه الإدريسي بأنّه: "أوّل جبال الرحمن وهي جبال وجَبأة عالية مشرفة على البحر"[4]، ويحدّد المسافة التي تفصل بينه وبين وادي القصب بثلاثين ميلا على التقوير، وعشرين ميلا روسية[5]، وقد يكون أحد مراسي مدينة ميلة التي تبعد عنه بمسافة يوم واحد حسب ياقوت الحموي[6].

ويذكر البكري في موضع آخر أنّ مرسى الزيتونة هو أوّل حدّ الجبل الذي يعرف بجبل الرحمن، ويصفه بأنّه: "جبل عظيم خارج في البحر يقابل جزيرة سردانية، ...يسكنه قبائل البربر من كتامة وغيرها"[7].

-مرسى تكُّوش:

يقع هذا المرسى ضمن سلسلة من المراسي التي ذكرها البكري منها: "مرسى أستورة، وهو مرسى مدينة تاسقدة، وهي مدينة أوّليّة قديمة فيها آثار للأول عجيبة، ثم إلى مرسى الروم وهو شتوي مأمون، إلى جزيرة غمر إلى مرسى تَكُّوش مرسى مأمون"[8]، وباعتبار أنّ هذا المرسى مأمون

1- مجهول، الاستبصار، ص: 127.
2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 274.
3- البكري، المغرب، ص ص: 148-149.
7-الإدريسي، المصدر السابق، ص: 274.
5-الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 274.
6- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص: 107.
7- البكري، المصدر السابق، ص: 172.
8- البكري، المصدر نفسه، ص :172.

من خطر العواصف والأمواج العاتية، فإنّنا نفترض أنّ السفن كانت تشتي به طوال فترة توقّف الملاحة البحرية.

أمّا عن المسافة الفاصلة بين مرسى تَكُّوش والمراسي الأخرى فيقول الإدريسي: "ومن مرسى الروم إلى مرسى تكوش ثمانية عشر ميلا وهي رابطة، وبها قوم ساكنون، ومنها إلى رأس الحمراء ثمانية عشر ميلا، ومن رأس الحمراء إلى بونة في قاع الجون ستة أميال"[1]، ويبدو أنّ هذا المرسى يحوي سهولا ساحلية خصبة وقرى كثيرة، حيث يقول البكري في وصفه: "مرسى تكوش مرسى مأمون فيه قرى كثيرة يتصل به جبل كثير الفواكه والخير"[2].

-سكيكدة:

وهي مدينة أسسها الفينيقيون على ساحل البحر المتوسط، وكانت تسمى رُوسِيكَادا، والتي تعني الرأس الوقّاد أو رأس النور[3]، وهي مبنية فوق جبل عال يمتد طرفه إلى البحر، تقع شمالي قسنطينة على بعد اثني عشر ميلا، جعلها بطليموس عند تسع وعشرين درجة طولا واثنتين وثلاثين دقيقة عرضا، واسمها عنده طاكسي[4].

يرد اسم هذه المدينة عند الجغرافيين بصورة مختلفة بعض الشيء، لكنّه اختلاف بسيط، فاليعقوبي يورد اسم المدينة أنّه: إِسْكِيدَة[5]، أمّا البكري فيذكرها باسم تاسِقْدَة[6]، ويسمّيها ياقوت الحموي سَكْدَة[7].

كانت لمدينة سكيكدة أهمية كبيرة أيام الاحتلال الروماني، وبعد أن خرّبها الوندال أعاد العرب تأسيسها وسمّوها رأس سكيكدة، فعاد لها عمرانها[1]، ورغم أنّها مدينة قديمة فإنّ بعض

1- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 275.

2- البكري، المغرب، ص: 172.

3- عشي علي، التوجه البحري للمغرب الأوسط وأثره في طرق التجارة والمواصلات (2-10هـ/8-16م)، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف: مسعود مزهودي، جامعة باتنة 1، قسم التاريخ وعلم الآثار، السنة الجامعية 2017/2016م، ص: 31.

4- كربخال مارمول، إفريقيا، ج2، ص: 7.

5- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، البلدان، ليدن: مطبع بريل، 1820، ص: 140.

6- البكري، المصدر السابق، ص: 172.

7- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص: 230.

المصادر الجغرافية لم تذكرها، مثل صاحب كتاب الاستبصار الذي كثيرا ما تطرق للمدن الأزلية القديمة.

يذكرها أيضا اليعقوبي ضمن سلسلة السواحل التي تتبع مدينة ميلة، حيث يقول: "وسواحل المغرب تقرب من هذه المدينة (ميلة)، ولها مرسى يقال له جيجل ومرسى يقال له قلعة خطاب ومرسى يقال له إسكيدة"[2]، ويصفها البكري فيقول: "مدينة تاسقدة مدينة أولية قديمة فيها آثار للأول عجيبة"[3]، أمّا ياقوت فيقول أنّها: "بلد على ساحل بحر أفريقية بقرب من قسطنطينة الهواء"[4].

-مرسى جيجل:

تقع جيجل على بعد اثني عشر فرسخا من بجاية، بناها الأفارقة الأقدمون على ساحل البحر المتوسط، على مرتفع عند مدخل خليج نوميديا، كانت تسمى إجيلجيلي ويسميها بعضهم جيجل، ويسميها آخرون جيرجي، ويجعلون موقعها عند أربع وعشرين درجة من خطوط الطول، وعند إحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة من خطوط العرض[5].

يذكر اليعقوبي أنّ مرسى جيجل هو أحد المراسي المهمّة لمدينة ميلة[6]، ولا يورد البكري معلومات كثيرة عن المرسى، ويكتفي بقوله أنّ: "مرسى جيجل فيه آثار للأوّل وهو معمور اليوم"[7]، بينما يزودنا الإدريسي بمعلومات أكثر تفصيلا عن المرسى، حيث يذكر أنّ مدينة جيجل تحوي مرسيين، "مرسى منهما في جهة جنوبها، وهو مرسى وعر الدخول إليه، صعب لا يدخل إلا بدليل

1- جيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، بيروت: دار مكتبة الحياة، ط2، 1965، ص: 219.
2- اليعقوبي، البلدان، ص: 140.
3- البكري، المغرب، ص: 172.
4- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص: 230.
5- كربخال مارمول، إفريقيا، ج2، ص ص: 380-381.
6- اليعقوبي، المصدر السابق، ص: 140.
7- البكري، المصدر السابق، ص: 172.

حاذق، أمّا مرساها الثاني فمن جهة الشمال، ويسمى مرسى الشعراء، وهو مرسى ساكن الحركة كالحوض حسنٌ الإرساء به، لكنّه لا يحتمل الكثير من المراكب لصغره وهو رَمِل"[1].

وخلال القرن 5هـ/11م أصبحت مدينة جيجل تابعة لقسنطينة الحمّادية، وقد زادت من تحصيناتها الدفاعية في أوقات الأزمات، حيث كان بجوار المدينة قلعة يلجأ إليها السكان، بنيت بعد أن تعرضت جيجل لغزو روجار ملك صقلية، فكان السكان يلتجئون بهذه القلعة عند قدوم الأسطول النورماني[2]، وتبعد جيجل عن بجاية بنحو سبعين ميلا[3].

-بجاية:

وهي مدينة تقع في منحدر جبل شاهق على ساحل البحر المتوسط[4]، وبجاية من المدن القديمة، يعود تاريخ تأسيسها إلى العهد القرطاجي، حيث كانت إحدى المستعمرات الفينيقية على سواحل شمال إفريقيا، وكانت تسمى صَلْداي[5]، والمدينة القديمة لم يكن لها أي دور يذكر في الفترة التي تلت مرحلة الفتح وإلى غاية القرن 2هـ/8م، فكانت قبل بنائها من قِبل الحمّاديين مرسى صغيرا للصيد بين بلاد زواوة وكتامة، حيث يشير إليها ابن حوقل أثناء ذكره لسلسلة من المراسي التي تقع بين مدينة بونة وجزائر بني مزغنّى[6].

أمّا عن أصل تسميتها، فيذكر ابن خلدون أنّها سمّيت بجاية نسبة إلى "قَبيل من البربر يسمّون بهذا الاسم، إلّا أنّ الكاف فيهم بلغتهم ليست كافا، بل هي بين الجيم والكاف، وعلى هذا القبيل من صنهاجة يأتون لهذا العهد أوزاعا في البربر، فلمّا افتتح الناصر بن علناس[7] هذا الجبل اختطّ به المدينة وسمّاها الناصرية، وتسمّى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية"[1].

1- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 268-269.

2- الطويل طاهر، المدينة الإسلامية، ص: 329.

3- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 51.

4- الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص: 50.

5- بن عميرة محمد، تاريخ بجاية، ص: 22.

6- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.

7- **الناصر بن علناس**: هو الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي، خامس ملوك الدولة الحمادية بالغرب الأوسط وأشهرهم، كان جريئا على سفك الدماء، اشتهر بالحزم والعزم، توفي سنة 481هـ. ينظر: ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري، الكامل في التاريخ، م8، مر وتص: محمد يوسف الدقاق، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1987، ص:

يجعلها ابن سعيد المغربي عند اثنتين وعشرين درجة من حيث الطول، وأربع وعشرين درجة وخمس عشر دقيقة من حيث العرض[2]، حيث تقع "بين جبال شامخة قد أحاطت بها، والبحر منها في ثلاث جهات: في الشرق والغرب والجنوب"[3]، وكان لهذا الموقع المتميز لبجاية ومرساها وإحاطة البحر بها من ثلاث جهات دور في إقبال قاطنيها على الأنشطة البحرية من صيد وملاحة وتجارة بحرية، كما مكّن النهران الكبيران بداخلها السفن من الدّخول إلى المدينة عبرهما، ويصف لنا العمري ذلك بقوله: "وعليها نهران كبيران، والسفينة تدخل إلى داخل المدينة وترسي إلى الحجر المنقوب داخل الميناء، وهي صفة شقّ جبل نقب فيه مجاز للمراكب تدخل منه إلى الميناء"[4].

أصبحت مدينة بجاية في القرن الخامس للهجرة آهلة بالأندلسيين حيث يقول البكري: "مدينة بجاية أولية آهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيّها نهر كبير تدخله السفن المحمّلة، وهو مرسى مأمون شتوي قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس...، ومرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي الطويل"[5]، ونفهم من قول البكري أنّه وإلى النصف الأول من القرن الخامس للهجرة لم تكن بجاية إلا مُتقدما وفُرْضَة لقلعة بني حماد[6]، عاصمة الحمّاديّين، ومع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة نرى أنّ هناك بعض النشاط في مرسى بجاية، والّذي يبدو أنّه على علاقة بالاتصالات التي عُقدت مع موانئ الأندلس[7].

455؛ ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ق3، تح وتع: العبادي أحمد مختار والكتاني محمد ابراهيم، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1964، ص: 96؛ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، 1982، ص: 328.

1- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج6، ص ص: 231-232.

2- المغربي ابن سعيد، الجغرافيا، ص: 142.

3- مجهول، الاستبصار، ص: 129.

4- العمري شهاب الدين أحمد بن يحى بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج2، تح: كامل سلمان الجبوري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2010، ص: 182.

5- البكري، المغرب، ص: 172.

6- **قلعة بني حماد:** أو قلعة أبي الطويل، وهي قلعة ذات منعة وحصانة، اختطها حماد بن بلكين بجبل كتامة سنة 398هـ، ونقل إليها أهل المسيلة وحمزة بعد أن خربهما، وتم بناؤها وتمصّرها سنة400 هـ، لتتحول بعد ذلك من قلعة عسكرية إلى مدينة كبرى، أصبحت عاصمة لدولة بني حماد. ينظر: البكري، المصدر نفسه، ص: 134؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 227.

7- فاليرين دومينيك، بجاية ميناء مغاربي، ص: 55.

شهدت بجاية مع بداية القرن 6هـ/12م أوجّ مرحلة في التطوّر والازدهار حيث أصبحت عاصمة الدولة الحمادية منذ سنة 460هـ/1067-1068م[1]، وتبيّنت أهميتها الاستراتيجية التي أعطت للحماديّين قاعدة فعّالة لمساندة وبسط قوتهم الإقليمية، وذلك بالاستفادة من الانفتاح البحري للمدينة[2]، فازداد نشاط مرساها واتّسع ليصبح ميناء كبيرا وأصبحت "السفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة"[3].

-مرسى تَدلّس:

تدلّس من المدن القديمة، حيث كانت منطقة استيطان وتمركز للإنسان منذ عصور ما قبل التاريخ، وعرفت في العهد الفينيقي باسم رُوسوُكور بمعنى رأس الصيادين، ثم أعيد تأسيسها في العهد الروماني سنة 42م، وفي العهد الحمادي عرفت المدينة باسم تدلّس أو تادلس[4]، تبعد عن جزائر بني مزغنة بعشرة فراسخ، جعلها بطليموس عند اثنتين وعشرين درجة طولا، واثنتين وثلاثين درجة وخمسين دقيقة عرضا[5].

لم يرد ذكر مرسى تدلس في الكثير من المصادر الجغرافية العربية، خاصة عند اليعقوبي والمقدسي وابن حوقل، وقد يكون مردّ ذلك إلى محدودية دور هذا المرسى، أو أنّه محاط بمراس أكثر أهمية منه[6]، أو يرجع ذلك إلى احتمال تبعيته لمدينة بني جنّاد، بمعنى أنّ مدينة بني جنّاد كانت تشمل مدينتي بني جنّاد وتدلس، غير أنّ المصادر اتّفقت على وجود هذا المرسى، لكنّها أشارت إليه عرضا دون تفاصيل كثيرة تذكر، والمعلومات التي تحويها هذه المصادر وحتى المراجع مختلفة ومتضاربة، فتارة تشير إلى أنّ المدينة لم يكن فيها أي مرسى، وتارة تشير إلى أنّ الرسوّ فيه صعب للغاية، وتارة أخرى تقول بأنّه يوجد بقايا على الساحل لحاجز أمواج البحر، الذي لا يستبعد أنّه كان ممتدّا داخل البحر لتشكيل مرسى[7].

1- ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 231.

2- فاليرين دومينيك، بجاية ميناء مغاربي، ص: 61.

3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 260.

4- بن نعمان إسماعيل، مدينة دلس دراسة تاريخية وأثرية خلال العهد الإسلامي، الجزائر: دار الأمل، ص ص: 25، 28.

5- كربخال مارمول، إفريقيا، ج 2، ص: 372.

6- طاهر الطويل، المدينة الإسلامية، ص: 330.

7- بن نعمان إسماعيل، المرجع السابق، ص ص: 27-28، 93.

ومن بين المصادر الجغرافية التي ذكرت مدينة تدلّس، نجد الحميري الذي وصف مدينة تدلّس لكنّه لم يذكر مرساها، وأشار على أنّها: "مدينة كبيرة بحرية بين بجاية والجزائر... وهي على شرف متحصّنة، لها سور حصين وديار ومتنزهات"[1]، كما حدّد الإدريسي موقعها بأنّها تبعد عن مرسى الدجاج بأربعة وعشرين ميلا، وعن بجاية في البر بسبعين ميلا، أمّا في البحر فبتسعين ميلا[2]، ثم يشير الإدريسي بعد ذلك إلى ما وصلت إليه المدينة من ازدهار اقتصادي، من رخص للأسعار، وتبادل تجاري بينها وبين غيرها من المدن بقوله: "...وتباع جملتها بالأثمان اليسيرة، ويخرج من أرضها إلى كثير من الآفاق"[3].

كما أنّ مرسى تدلّس يعتبر من أهمّ موانئ المغرب الأوسط من حيث أمن الرسوّ فيه في كل الظروف، وهذا بمساعدة رأس الطرف، الذي يتميز بطوله وتعرّجه، حيث يمتدّ داخل البحر ليصبح حاجزا لأمواج البحر وللرياح القادمة من الغرب، وزاده أكثر وجود صخور به في أسفله، تزيد من امتداده داخل البحر، ممّا يضاعف من الحماية التي يوفّرها للسفن[4].

-مرسى الدّجاج:

يصفها ابن حوقل على أنّها "مدينة عليها سور منيع على نحر البحر وفي شفيره"[5]، أمّا مرساها فغير مأمون، ويورد لنا البكري وصفا أكثر دقة فيذكر أنّ "مدينة مرسى الدّجاج قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح، وقد ضرب بسور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، ومن هناك يدخل إليها وإلى أسواقها"[6]، أمّا عن المرسى فيذكر أنّه مرفأ غير مأمون، وسبب ذلك ضيقه وقرب قعره، ويذكر كذلك أنّ المدينة يسكنها الأندلسيون وقبائل من كتامة[7].

ويبدو أنّ المدينة اتسعت وازدهرت في القرن 6هـ/12م، حيث يصفها الإدريسي بأنّها "كبيرة القطر ولكن بشرها قليل، والسبب يعود إلى فرار أكثر أهلها في زمن الصيف ومدّة السفر

1-الحميري، الروض المعطار، ص: 132.
2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 259.
3- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 259.
4- بن نعمان إسماعيل، مدينة دلس، ص ص: 93-94.
5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.
8-البكري، المغرب، ص ص: 149-150.
7- البكري، المصدر نفسه، ص: 150.

خوفا من قصد الأساطيل إليها"[1]، قد لا تكون تحصينات هذا المرسى من المناعة التي تجعله في منأى عن التهديدات الخارجية، لذلك كان سكان هذا المرسى يرحلون عنه ويحتمون بالجبال المجاورة له، في أوقات الحروب وهجمات أساطيل النصارى عليه، لكنّ هذا لم يمنع من توافد التجار والجاليات إليه خاصة الأندلسيين، فموقع المدينة ومرساها جعلا منها مركزا مهمّا لممارسة مختلف الأنشطة التجارية والبحرية.

-مرسى تَامِدْفُوس:

يقع هذا المرسى شرق جزائر بني مزغنّى، ويبعد عنها بثمانية عشر ميلا، وكذلك يبعد عن مرسى الدَّجاج بعشرين ميلا[2]، وكمرسى تدلّس لم يذكر هذا المرسى كثيرا من طرف المؤرخين والجغرافيين، إلا أنّ ابن حوقل كان قد وجد هذا المرسى والمدينة قد تهدّمت في العهد الفاطمي ولا نعلم متى تمّ ذلك، فيقول: "وتامدفوس مرسى ومدينة خرّبت، وفيها بقية قوم يسكنونها سكنى الصَّابِين إلى أوطانهم"[3]، ويذكرها أيضا ياقوت الحموي بأنّها: "اسم مرسى وجزيرة ومدينة خربة بالمغرب قرب جزائر بني مزغناي"[4]، وبالرغم من خراب المدينة إلا أنّ مرساها مازال مقصودا من طرف التجار وبقايا سكانها، وهذا ما نستشفّه من قول الإدريسي: "وتامدفوس مرسى حسن عليه مدينة صغيرة خراب وأكثر سورها قد تهدم، وقلّ أهلها وبها بقايا بناء قديم وهياكل وأصنام وحجارة، ويذكر أنّها كانت من أعظم البلاد كبرا وأوسعها قطرا"[5]، فبالرغم من تعرّض هذه المدينة للخراب والدّمار، إلا أنّها بقيت مقصودة وذلك لحسن مرفئها.

-جزائر بني مِزْغَنّى:

وهي مدينة الجزائر، وردت في النصوص التاريخية والمصادر الجغرافية بصيغ مختلفة، فهي جزائر بني مِزَغَنَّاي عند ابن حوقل[6] وصاحب كتاب الاستبصار[7]، أمّا المقدسي فترد عنده بلفظ

1- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 259.
2- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 258.
3- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 78.
4- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص: 7.
5- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 259.
6- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 77.
7- مجهول، الاستبصار، ص: 132.

جزيرة بني زَغْنَايَة[1]، ويسمّيها البكري جزائر بني مِزْغَنَّى[2]، فيما ترد المدينة باسم الجزائر لبني مِزْغَنَّا ومدينة الجزائر عند الإدريسي[3]، كانت من مواطن قبيلة بني مزغنة البربرية وبها سميت، ثم أصبحت موطنا لقبيلة الثعالبة العربية في عهود لاحقة[4].

حظيت هذه المدينة باهتمام الجغرافيين الذين لم يغفلوا ذكر هذه المدينة القديمة التي كانت رومانية، فهي "مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأول، وآزاج محكمة تدل أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم"[5]، كانت تسمى في العهد الروماني إيكوسيوم، وقبل أن يعاد بناء هذه المدينة من قبل بلكين بن زيري[6]، كانت سوقا مزدهرة لقبائل المنطقة التي تمارس الزراعة، كما تمتّعت بمناعة الموقع، بالإضافة إلى أنّ السكان أحاطوها بسور[7]، فقد أشار ابن حوقل إلى أنّ المدينة "عليها سور على سيف البحر أيضا، وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها، ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم السائمة في الجبال"[8]، ووصفها الأصطخري بأنّها "مدينة عامرة يحفّ بها طوائف من البربر، وهي من الخصب والسعة على غاية ما تكون المدن"[9].

ونظرا لأهمية هذه المدينة وموقعها المتميز، أصبحت معبرا مهما لبلاد الأندلس، فهذا المقدسي الذي كان وصفه مقتضبا يقول عنها: "وجزيرة بني زغناية على ساحل البحر مسوَّرة، يُعبر منها إلى الأندلس"[10]، إذن فإنّ هذا الظهور الأول لمدينة الجزائر باسم جزائر بني مزغنّى، جاء في

1- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 228.

2- البكري، المغرب، ص: 150.

3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 258.

4- ابن خلدون، العبر، ج6، ص 203.

5- البكري، المصدر السابق، ص ص: 150-152.

6- **بلكين بن زيري:** هو بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، ويسمى أيضا يوسف، مؤسس الإمارة الصنهاجية بأفريقية، استخلفه المعز بن المنصور العبيدي على إفريقية عندما توجه إلى الديار المصرية عام 361هـ، توفي سنة 373هـ. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص: 286.

7- الطويل طاهر، المدينة الإسلامية، ص: 277.

8- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص: 77-78.

9- الأصطخري، المسالك، ص: 38.

10- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 228.

مرحلة تاريخية مهمّة تميزت بكثافة النشاط الملاحي والتجاري لمدن الساحل الأندلسي، خصوصا بعد نجاح السياسة الأموية في خلق فضاء تجاري في الحوض الغربي للبحر المتوسط بداية من القرن 2هـ/8م[1]، ثم واصلت المدينة نموّها خلال القرن 5هـ/11م وأصبحت "فُرضة مشهورة من عمل بجاية"[2]، لتصبح بعدها من أهم موانئ الدولة الحمّادية، وتكون مقصدا للتجار من أفريقية وبلاد الأندلس[3]، ثم صارت بداية مع القرن 6هـ/12م "مدينة عامرة آهلة، وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعتها نافقة"[4].

وما زاد من أهمية المدينة الاقتصادية مرساها الذي لم يتأثر بباقي المراسي القريبة منها، بل وأصبح من أشهر المراسي في المغرب الأوسط، فهو مرسى مأمون تقصده السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما من البلاد[5]، كما أنّها تبعد عن مدينة بجاية مسافة أربعة أيام[6]، ويتّصل بها فحص المتيجة الذي هو فحص كثير الخصب والقرى والعمائر تشقّه الأنهار، وهو على نحو مرحلتين منها[7]، وهي كذلك ليست ببعيدة عن مدينة أشير[8] التي كانت مدينة هامة في العهد الفاطمي، حيث لا تفصلها عنها سوى مدينتي أَغْزَرْ والمدية[9]، هذا ما جعل للمدينة أهمية كبيرة، سواء في أنشطة مرساها البحري، عن طريق التجارة البحرية، وذلك بتصدير منتجاتها ناحية أفريقية والأندلس، أو في علاقتها مع بقية مدن الساحل وكذا المدن الداخلية التي لم تكن أقلّ أهمية منها، والتي شكّلت مدينة جزائر بني مزغنة واجهة بحرية لها.

1- عشي علي، التوجه البحري، ص: 81.
2- أبو الفدا، تقويم البلدان، ص: 126.
3- الطويل طاهر، المدينة الإسلامية، ص: 278.
4- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 258.
5- البكري، المغرب، ص: 152.
6- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص: 132.
7- الحميري، الروض المعطار، ص: 163.
8- **أشير**: هي مدينة أسسها زيري بن مناد بالمغرب الأوسط وتسمى كذلك بأشير زيري، وهي مدينة جليلة حصينة تحيط بها الجبال الشاهقة. ينظر: الطويل طاهر، المدينة الإسلامية، ص: 263؛ البكري، المصدر السابق، ص: 146.
9- البكري، المصدر السابق، ص: 150.

-مرسى البَطّال:

وهو مرسى جبل شِنْوَة، لم يكن لهذا المرسى الصغير أهمية كبيرة مثل المراسي الكبرى، إذ ليس بالمرسى المسكون كما يوضّح البكري بقوله: "...وله مرسى يسمى البطّال، وهو غير مسكون، يكنّ بغربيّه ماء يسير"[1]، ويزودنا الإدريسي بمعلومات أخرى عن هذا المرسى، فيصفه بقوله: "طرف البطّال وهو خارج في البحر اثنا عشر ميلا، ويقابل هذا الطرف جزيرة صغيرة في البحر"[2]، لكن وبالرغم من كون هذا المرسى صغيرا، إلّا أنّنا لا نستبعد أنّ السفن كانت تقصده في بعض أوقات السنة، بما أنّ المصادر الجغرافية قد ذكرته.

-مدينة شرشال:

وهي من الموانئ التي أسسها الفينيقيون في شمال إفريقيا، وكانت تسمى "إيول" وهي من أصل فينيقي نسبة إلى إله فينيقي، وابتداء من عصر الملك يوبا الثاني (25ق.م-23م) أطلق عليها "قيصرية"، ثم ذكرت بالاسمين معا أي إيول-قيصرية من قبل الجغرافي بطليموس[3]، ولا ندري كيف تحول اسمها إلى شرشال.

تبعد مدينة شرشال عن مدينة جزائر بني مزغنّى مسافة سبعين ميلا[4]، لكن المدينة وميناءها لم يكونا على أهمية كبيرة، ولا نملك عنها معلومات حول أوضاعها بعد مرحلة الفتح، ويمكن أن تكون أهمّيتهما قد تراجعت في العهد الفاطمي، وهذا نظرا لما لاحظه ابن حوقل الذي يصف المدينة والمرسى قائلا: "واشرشال مدينة قديمة أزلية قد خرّبت، وفيها مرسى وبها آثار قديمة"[5]، وهنا يبيّن لنا ابن حوقل استمرار ميناء شرشال في نشاطه رغم ضعفه وتراجع دوره، وأنّه قاوم عوامل الزمن، كما أنّ الإشارة على اقتضابها قد ركّزت على مرسى المدينة ممّا يحيلنا إلى أنّ مكوناته المينائية القديمة حافظت على شكلها خلال الفترة الوسيطة[6].

1- البكري، المغرب، ص: 171.

2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 273.

3- ذنون طه، الموانئ الجزائرية، ص ص: 250-251.

4- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 258.

5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 78.

6- عشي علي، التوجه البحري، ص ص: 108-109.

ولم يزد البكري الشيء الكثير عن ابن حوقل فيقول عن مرساها: "مرسى شرشال عليه مدينة عظيمة للأوّل غير مسكونة، وله أحساء ماء، يكنّ بشرقيه وغربيّه، ويقابل من برّ الأندلس مرسى مريرة"[1]، ويضيف كتاب الاستبصار أنّ مرسى شرشال يقابله من برّ الأندلس مرسى ألاقنت[2].

أمّا عن مدينة شرشال فيقول البكري: "وكانت لمدينة شرشال مبنى ارتدم، وفيها رباطات يجتمع إليها في كل عام خلق كثير"[3]، وبذكر رباطات شرشال، يذكر محمد الأمين بلغيث نقلا عن جورج مارسيه أنّ تأسيس رباط شرشال وأرزيو ومرسى مغيلة ورباط وهران وغيرها من الرباطات، هي حماية سواحل بلاد المغرب من هجمات وإغارات النورمان[4]، وتبقى المدينة والمرسى على هذه الحالة طيلة القرن5هـ/11م، ومع القرن 6هـ/12م، تبدأ المدينة في الازدهار شيئا فشيئا، وهذا ما نستشفّه من قول الإدريسي: "مدينة شرشال صغيرة القدر لكنّها متحضرة، وبها مياه جارية وآبار معينة عذبة"[5].

-مرسى جزيرة وَقُّور:

يذكره البكري أثناء ذكره لسلسلة من مراسي المغرب والأندلس، فيقول: "ويلي مرسى تنس إلى الشرق مرسى جزيرة وقور بينهما أزيد من عشرين ميلا، وله نهر لطيف يصب في البحر، والجزيرة قريبة من البر"[6]، أمّا الإدريسي فيعطينا معلومات أكثر تفصيلا عن المرسى وموقعه، فيذكر أنّه يبعد عن برشك بعشرين ميلا شرقا، ومرسى امْتَكْوَا بأربعين ميلا تقويرا، وثلاثين ميلا روسية غربا، ثم يصف حالة المرسى بأنّه يستر من الريح الشرقية ولا يستر من غيرها[7].

1- البكري، المغرب، ص: 171.

2- مجهول، الاستبصار، ص: 132.

3- البكري، المصدر السابق، ص: 171.

4- بلغيث محمد الأمين، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، 1987/1986، ص ص: 144-145.

5- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 258.

6- البكري، المصدر السابق، ص: 171.

7- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 272.

-مرسى بَرْشَك:

وهو كباقي المراسي التي لم يكن لها دور كبير أو مهم في القرون الأولى التي أعقبت الفتح، حيث تقع هذه المدينة شرق مدينة تنس، وتبعد عنها بستة وستين ميلا، وهي: "مدينة كان عليها سور فتهدّم، ولها مياه جارية وآبار معين"[1]، ويبدو أنّ هذه المدينة قد تعرّضت لاضطرابات عديدة في العهد الفاطمي، وهذا ما أدّى إلى تهدم سورها، كما يبدو أنّها في القرن 6هـ/12م قد استعادت عافيتها وأصبحت على حدّ قول الإدريسي: "مدينة صغيرة على تلٍّ وعليها سور تراب وهي على ضفة البحر"[2]، وربّما يعود ذلك إلى موقعها ووجود مرساها، لكنّها لم تكن في منأى من هجمات الأساطيل، فقد تعرضت لهجمات ملك صقلية روجار، وهذا ما ذكره الإدريسي والحميري بقوله: "وكان طاغية صقلية أخذها واستولى عليها"[3].

-تَنَس:

كانت لمدينة تَنَس أهمية كبيرة في المغرب الأوسط، وهذا لما لها من أهمية عسكرية واقتصادية وتجارية وحتى الاجتماعية، فلذلك نجد أنّ المدينة ذكرت في معظم المصادر الجغرافية نظرا لمكانتها الكبيرة، حيث أصبحت بعد فترة وجيزة من تأسيسها من أهم موانئ بلاد المغرب الإسلامي[4]، وذلك منذ إعادة تأسيسها عام 262هـ/876م من طرف البحّارة الأندلسيين[5].

وتَنَس مدينة عريقة بناها سكان البلد الأصليون على سفح جبل، على نصف فرسخ من البحر، جعلها بطليموس عند إحدى عشرة درجة من خطوط الطول، وثلاثة وثلاثين درجة وثلاثون دقيقة من خطوط العرض، ويسميها "لَقُونْت"[6].

وحسب البكري فإنّ تنس مدينتان إحداهما قديمة والأخرى حديثة، فعن القديمة يقول: "وعلى البحر حصن يذكر أهل تنس أنّه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة"[1]، وأمّا الحديثة

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 78.

2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 257.

3- الحميري، الروض المعطار، ص: 88. انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص: 258.

4- الطويل طاهر، المدينة الإسلامية، ص: 333.

2-البكري، المغرب، ص: 147.

6- كربخال مارمول، إفريقيا، ج2، ص: 345.

فيذكر أنّ بينها وبين البحر ميلان، وهي مسوَّرة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى، ينفرد بسُكْناها العُمّال لحصانتها، وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة، وهي على نهر يسمى تَنَاتِين، وعن تأسيس المدينة الحديثة يقول: "وتنس الحديثة أسسها وبناها البحريّون من أهل الأندلس منهم الكَرَكْني وأبو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم، وذلك سنة اثنتين وستين ومائتين، يسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل ألبيرة وأهل تدمير"[2]، وحسب البكري فإنّ هؤلاء الأندلسيين قد أسّسوا المدينة الحديثة بجوار المدينة القديمة، والتي ستشهد بعد مدة وجيزة وفود عناصر جديدة من السكان من سوق إبراهيم، فيذكر أنّ تنس رحل إليها أهل سوق إبراهيم وكانوا في أربعمائة بيت، فتوسّع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذي فيها[3].

وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ تنس كانت موجودة قبل البحريين الأندلسيين، حيث أنّ محمد ابن سليمان حين فرّق أبناءه على أعماله، كانت تنس من نصيب ابنه إبراهيم، فأقام فيها ثم خلفه أبناؤه، ويبدو أنّ ما فعله البحريون هو بناء حيٍّ خاص بهم وبالقبائل التي استدعتهم، وبعدما أحرزوا على الثراء مكّنهم من الميل إلى سكنى المدن[4]، وازدهرت بذلك المدينة وتطورت حتى أصبحت خلال القرن السادس للهجرة "أقاليم وأعمال ومزارع..."[5].

كانت المدينة خلال القرن 3هـ/9م معبرا يربط القيروان وتونس بالأندلس، حيث يذكر اليعقوبي أنّه: "من أراد جزيرة الأندلس نفذ من القيروان إلى تونس...على ساحل البحر المالح يسير فيه مسيرة عشرة أيام، حتى يحاذي جزيرة الأندلس من موضع يقال له تنس، بينه وبين تاهرت مسيرة أربعة أيام"[6]، أمّا في العهد الفاطمي فقد أصبحت المدينة "فوق الصغيرة وليس على البحر فيما قاربها على شكلها بنواحيها من الكبر...وهي أكبر المدن التي يتعدّى إليها الأندلسيون

1- البكري، المغرب، ص: 146.
2- البكري، المصدر نفسه، ص ص: 146-147.
3- نفسه، ص: 147.
4- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاقتصادية، ص: 360.
5- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 252.
6- اليعقوبي، البلدان، ص: 143.

بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها إلى ما سواها"[1]، أمّا المقدسي فيكتفي بقوله: "تنس مسوّرة على البحر شربهم من نهر"[2].

وقد ازدادت المدينة اتساعا بسبب ازدهار تجارتها، حيث كان "لسلطانها بها وجوه من الأموال كثيرة كالخراج والجوالي والصدقات والأعشار، ومراصد على المتاجر الدَّاخلة إليها والخارجة والصادرة والواردة"[3]، فقد كانت تنس سوقا ينمو ويجذب الناس إليه، ويبدو أنّ الأرباح التي حقّقتها القبائل المجاورة لها هي التي دفعت بها إلى دعوة التجار الأندلسيين إليها، لكي يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى[4].

إذن فإنّ تنس كانت معبرا تجاريا بين بلاد المغرب الأوسط والأندلس، سواء تعلّق الأمر بانتقال السلع أو الأشخاص، خاصة في العهد الرستمي، كما يمكننا تفسير اهتمام الأندلسيين بتنس والمدن البحرية الأخرى لسواحل المغرب الأوسط، أنّه كان يهدف إلى تعزيز التجارة المغربية الأندلسية من قبل السلطة الرسمية، خصوصا وأنّ هذه المدن تحتاج إلى ما تنتجه المدن الأخرى[5]، ورغم هذه المزايا التي حظيت بها مدينة تنس، إلّا أنّها، وكأغلب المدن الساحلية، مدينة مَوْبُوءَة، فمن دخلها لم يسلم من المرض، وكثيرا ما مات بها الغرباء[6]، وإذا كان للشاعر التيهرتي سعيد بن واشكل التيهرتي عذره في ذمّه للمدينة، وربّما بسبب مرضه فيها، حيث يقول في علّته التي مات منها بتنس:

نَأَى النَّوْمُ عَنِّي واضْمَحَلَّت عُرى الصَّبْرِ **** وَأَصْبَحْتُ عن دارِ الأَحِبَّةِ في أَسْرِ
وأَصْبَحْــتُ عن تيــهرت في دارِ مَعْزَلٍ **** وأَسْلَمَــنِي مُرُّ القَضاءِ منَ القَــدَرِ
إلى تَــنَسٍ دارُ النُّــحوسِ فَــإِنَّــها **** سِــيَّاقٌ إليها كُلُّ مُنْتَقِــصِ العُمْرِ

وقال غيره في ذمّها:

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 78.
2- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 229.
3- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 78.
4- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاقتصادية، ص: 359.
5- عشي علي، التوجه البحري، ص: 139.
6- مجهول، الاستبصار، ص: 133.

أيُّها السائِلُ عنِ أَرْضِ تَنَسِ **** مَقْعَدُ اللُّؤْمِ المُصَفَّى والدَّنَسْ
بَلْـــدَةٌ لا يَنْزِلُ القَطْـرُ بها **** لِلْنَّدى في أَهْلِـها حَرْقُ دَرْسْ
فَمَـــتَى تَلْعَـــنُ بِلادًا مَرَّةً **** فاِجْعَلْ اللَّعْنَـــةَ دَابًا لِتَنَـــسْ[1].

-مستغانم:

وهي من المدن القديمة، بناها الأفارقة على سفح جبل مطلّ على ساحل البحر، وتقع مدينة مستغانم على بعد أربعة عشر فرسخا شرقي وهران، حيث جعلها بطليموس على أربعة عشرة درجة وثلاثون دقيقة من خطوط الطول، وعلى ثلاث وثلاثين درجة وأربعون دقيقة من خطوط العرض، وللمدينة مرسى جيّد لكنّه بعيد قليلا عن المدينة[2].

لم يرد ذكر مدينة مستغانم في معظم المصادر الجغرافية، على الرغم من موقعها على الساحل واحتوائها على ميناء، لكن هذا لم يمنع بذكر بعضهم لها، حيث يذكرها البكري في مجموعة من المدن والقلاع التي تقع في الطريق من تيهرت إلى البحر فيقول: "وبين قلعة دلول هذه ومدينة مستغانم مسيرة يومين، وهي على مقربة من البحر، وهي مدينة مسورة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء، يبذر في أرضها القطن فيجود، وهي بقرب مصب نهر شلف في البحر"[3]، ولعلّها من المدن التي كانت تابعة إقليميا إلى تيهرت، ويصفها الإدريسي فيقول: "مستغانم على البحر مع الجون، وهي مدينة صغيرة لها أسواق وحمامات، وجنّات وبساتين ومياه كثيرة، وسور على جبل مطل إلى ناحية الغرب، وهذا الجون تقويره أربعة وثلاثون ميلا تقويرا، وروسية أربعة وعشرون ميلا"[4].

وتشير المصادر إلى أنّ هذه المدينة كثيرة المياه، وذلك لموقعها القريب من البحر حيث الهواء الرطب، كذلك قربها من نهر شلف، وتتميّز مدينة مستغانم أيضا بتربتها الخصبة، وهذا ما يفسّر

1- البكري، المغرب، ص ص: 147-148.
2- كربخال مارمول، إفريقيا، ج2، ص: 350.
3- البكري، المصدر السابق، ص: 155.
4- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 271.

كثرة البساتين والجنات والثمار بها، كما أنّ المصادر قد أغفلت ذكر مينائها، فبالرغم من أنّه ميناء صغير وبعيد عن المدينة، لكن كثيرا ما تقصده السفن[1].

-مرسى مُغِيلَة بني هاشم:

ينفرد البكري بذكر هذا المرسى فيقول: "وهو مرسى صيفي لا يكنّ من ريح، وله رباط على ضفة البحر مسكون وماؤه كثير، بينه وبين قصر الفلوس خمسة وثلاثون ميلا"[2]، ويبدو أنّه من المراسي القليلة الأهمية، خاصة وأنّه مقصود في فصل الصيف فقط، وبما أنّ البكري قد ذكر أنّ لهذا المرسى "رباط على ضفّة البحر مسكون"[3]، فلعلّ الناس كانت تقصده لوجود ذلك رباط بقربه، أو ربّما كان لهذا الرباط أغراض دفاعية ضد هجمات الأساطيل.

-مرسى قصر الفُلُوس:

وهي من المدن المحدثة حسب ابن حوقل، فهي: "مدينة مُحدثة ولها سور وهي لطيفة جدّا، وسورها من تراب طابية وماؤها من عين ماء جارية بها"[4]، ويزودنا البكري بمعلومات أخرى عن المدينة ومرساها فيقول: "وهي مدينة على البحر غير مسكونة، وفيها ماء مجلوب، وأحساء ماء ومرساها غير مأمون"[5]، ويبدو أنّ مرساها لم يكن ذا شأن كبير لقربه من مرسى وهران ومرسى تنس، أمّا عن قول البكري بأنّها غير مسكونة فلعلّ السبب في ذلك أنّ أهلها يهجرونها في وقت من أوقات السنة لتفادي هجوم الأساطيل.

ولكن في القرن 6هـ/12م أصبحت مدينة كبيرة ومرسى للمراكب، حيث يصفها صاحب كتاب الاستبصار فيقول: "هي مدينة كبيرة، مرسى للمراكب، فيها آثار للأوّل تنبئ أنّها كانت دار مملكة، وهي اليوم خراب، وفيها ماء مجلوب على قناطر بأغرب ما يكون من البناء القديم"[6]، وتقع

1- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 32.
2- البكري، المغرب، ص: 171.
5-البكري، المصدر نفسه، ص: 171.
4- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص: 78-79.
5- البكري، المصدر السابق، ص: 171.
6- مجهول، الاستبصار، ص: 133.

هذه المدينة بالقرب من وهران من ناحية الشرق[1]، ويذكر المقدسي أنّ مدينة قصر الفلوس من مدن تيهرت[2]، أي أنّها إحدى فُرَض مدينة تيهرت.

-أَرْزَاوْ:

وهي مدينة ساحلية تقع بين مستغانم ووهران، يذكر البكري بأنّ أرزاو مدينة قديمة على ساحل البحر، وأنّ فيها "فيها آثار عظيمة للأوّل يحار من دخل فيها لكثرة عجائبها، وبقرب مدينة أرزاو جبل كبير فيه قلاع ثلاث مسوّرة ورباط يقصد إليه"[3]، فهذه المدينة حُصّنت بثلاث قلاع لحمايتها من الهجمات، خاصة في القرون الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي، كما أنّه يوجد بها رباط أصبح مقصدا للناس، وقد كان الهدف منه هو حماية المدينة من هجمات وإغارات النورمان، وكذلك الجهاد خاصة في عهد المرابطين والموحدين، كما كان لهاته الرُّبُط دور اقتصادي، فقد كان سكان الرباط يشتغلون بالزراعة فاستصلحوا الأرض البور، كما اشتغلوا بالصيد في البحر، وذلك في حالة انتشار الأمن وعدم اقتراب الأخطار، ونجد من الفقهاء من أفتى بأنّ أهل الثغور المجاورة لمكان الصيد يقدَّمون على غيرهم في شراء الصيد[4]، لأنّهم "من سكان الحصون، ولا يُسْكَن الرباط إلّا للحرس وسائر الطاعات"[5].

صارت أرزاو في القرن 6هـ/12م قرية كبيرة، تجلب إليها الحنطة فيسير بها التجار ويحملونها إلى كثير من البلاد[6]، كذلك قربها من جبل فيه معدن الحديد والزئبق[7]، أدّى إلى ازدهار الصناعة بها والتجارة، خاصة وأنّها قريبة من مدينة وهران والمرسى الكبير بمسافة أربعين ميلا، كذلك احتواؤها على مرسى للسفن[8].

1- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 362.
2- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 218.
5-البكري، المغرب، ص: 155.
4- بلغيث محمد الأمين، الربط، ص ص: 145، 193-194.
5- الونشريسي، المعيار المغرب، ج2، ص: 5.
6- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 271.
7- البكري، المصدر السابق، ص: 155.
8- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 271.

وفي عهد الموحدين وبعد أن قام عبد المؤمن بن علي بالاستيلاء على مدينة وهران، أمر ببناء قاعدتين بحريتين لأسطوله البحري، وأحدث بهما ورشتين لإصلاح السفن المعطوبة وبناء المراكب الجديدة، وذلك في وهران وأرزاو وعدد من المدن الساحلية، كما بنى خبراؤه البحريون عام (559هـ/1162م) مائة مركب في موانئ وهران والمرسى الكبير وأرزاو[1].

-مرسى عين فَرُّوج:

يقع هذا المرسى شرق وهران، وتفصله عنها مسافة أربعين ميلا، يصفه البكري بأنّه: "مرسى شتوي مأمون، وله آبار ماء والسكنى منه على مقربة"[2]، أمّا الإدريسي فيسميه حوض فروح، تفصله عن مستغانم أربعة وعشرين ميلا تقويرا، وخمسة عشر ميلا روسية، وهو مرسى حسن وعليه قرية عامرة[3]، وبالرغم من صغر هذا المرسى إلّا أنّه ذو أهمية، حيث تقصده السفن وترسو به لأنّه مأمون من الرياح والعواصف والصخور.

-مدينة وهران:

وهي مدينة قديمة بناها السكان الأصليون على الساحل، تفصلها مسافة فرسخ واحد عن المرسى الكبير جهة الغرب، كانت تسمى على عهد الرومان أونيكا كولونيا، تقع على اثنتي عشرة درجة وثلاثين دقيقة في خطوط الطول، وعلى أربع وثلاثين درجة من خطوط العرض[4].

اختلفت الآراء وتضاربت في أصل تسمية وهران ومن بناها، فيقال أنّ أول من اختط مدينة وهران أي بناها وأسّسها ومدّنها وحرسها هو خزر بن حفص بن صولات بن وزمار بن صقلاب المغراوي، وذلك في عام اثنين وتسعين، وقيل احدى وتسعين، وقيل تسعين من القرن الثالث للهجرة (292هـ/905م أو 291هـ/904م أو 290هـ/903م)[5]، ويقول البكري أنّ من بنى وهران هو محمد بن أبي العون ومحمد بن عبدون، وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين

1- بوعزيز يحي، مدينة وهران، ص ص: 28-29.

2- البكري، المغرب، ص: 170.

3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 271.

4- كربخال مارمول، إفريقيا، ج2، ص: 329.

5- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق وتح: المهدي بوعبدلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، ص: 32.

ينتجعون مرسى وهران، باتفاق منهم مع قبائل نفزة وبني مسقن وهم من أزداجة، وذلك سنة تسعين ومائتين[1]، واختُلِف في سبب تسميتها بوهران على عدة أقوال منها: أنّها سميت لكونها زناتية، وذلك أنّ مغراوة لـمَّا شرعوا في حفر أساسها وجدوا غار ثعلب، واسم الثعلب بلغتهم "وهران" فسموها بذلك[2]، ويقال أنّ وِهران بكسر الواو، وهي كلمة بربرية معناها الأسد، أو مكان الأسد، وهناك رواية أخرى تقول أنّ المدينة تقع قرب جبل "آغار" الذي يعني الأسد في بعض اللهجات البربرية، فيكون اسم المدينة يعني الأسد في معظم الروايات[3].

إذن فطريقة تأسيس مدينة وهران تشبه إلى حد كبير تأسيس مدينة تنس، وهذا في علاقة الأندلسيين بالتأسيس، فقد حدث اتفاق بين القبائل التي تقطن المنطقة المكونة خاصة من نفزة وبني مسقن، مع البحريين الأندلسيين في تأسيسهم للمدينة، ويضيف البكري أنّ هؤلاء البحريين استوطنوا وهران سبعة أعوام، وفي سنة سبع وتسعين ومائتين زحفت قبائل كثيرة إلى وهران يطالبون أهلها بتسليم بني مسقن إليهم لدماء كانت بينهم، فأبى أهل وهران تسليمهم إليهم، فنصبوا عليهم الحرب وحاصروهم ومنعوهم الماء، وعندما ضيّق المحاصرون على سكان وهران فرّ بنو مسقن ليلا واستجاروا بقبيلة أزداجة، وفرّ سكان وهران كذلك تاركين أموالهم، وقام المحاصرون بإضرام النيران في المدينة، فخربت وهران وأحرقت، وذلك في ذي الحجة من سنة 297هـ/910م، وفي عام 298هـ/911م أعاد بناءها عامل تيهرت أبو حميد دواس بن صولات، وأعاد أهلها إليها، فعادت أحسن ممّا كانت[4].

وتشير أغلب المصادر الجغرافية إلى ارتباط مدينة وهران ببلاد الأندلس، فالمقدسي يذكر أنّ مدينة وهران: "بحرية مسورة يقلعون منها إلى الأندلس في يوم وليلة"[5]، كما أنّها اعتبرت من أعمال

1- البكري، المغرب، ص: 156.

2- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران، ص: 33.

3- الطويل طاهر، المدينة الإسلامية، ص ص: 338-339.

4- البكري، المصدر السابق، ص: 156.

5- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 229.

تيهرت وإحدى واجهاتها البحرية الهامة المؤدية إلى الأندلس[1]، كذلك فإنّها تقابل مدينة اَلْمَرِيَّة الأندلسية، والمسافة بين المدينتين هي مجريان بحريان[2].

وأمّا عن تطور مدينة وهران، فقد كانت في عهد الفاطميين "مراس لا مدن لها"[3]، وذلك بسبب الاضطرابات السياسية الكبيرة التي عاشتها عهد الفاطميين، بسبب الصراع الذي كان قائما بينهم وبين الأمويين في الأندلس[4]، لتصبح في القرن الخامس للهجرة "مدينة حصينة ذات مياه سائحة وأرحاء ماء وبساتين، ولها مسجد جامع"[5]، وفي القرن السادس للهجرة أصبح للمدينة "أسواق مقتدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافقة"[6]، فصارت "من أعزّ البلاد"[7].

إذن فقد استمرت مدينة وهران في النمو والتطور، فشهدت خلال القرن 3هـ ومطلع القرن 10م، تطوّرا واسعا وكبيرا في عمرانها ونشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وذلك بوصول عدد كبير من الأندلسيين واستقرارهم بها، حاملين معهم إليها خبراتهم المعمارية ومهاراتهم الفنية والصناعية، وأنشطهم التجارية، حت قال عنها الشاعر التلمساني المشهور ابن خميس عندما زارها في القرن الرابع للهجرة: "أعجبني بالمغرب مدينتان بثغرين، وهران خَزَر، وجزائر بلكين"[8].

-مرسى جبل وهران:

وهو من بين أهم مراسي المغرب الأوسط، يصفه ابن حوقل بأنّه: "في غاية السلامة والصون من كل ريح"[9]، ويضيف: "وما أظن له مثلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى،

1- البكري، المغرب، ص: 156.
2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 252.
3- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 78.
4- بوعزيز يحي، مدينة وهران، ص: 25.
5- البكري، المصدر السابق، ص: 156.
6- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 252.
7- مجهول، الاستبصار، ص: 134.
8- بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص: 23.
7-ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 79.

فقد كنفته الجبال وله مدخل آمن"[1]، ويصفه البكري كذلك فيقول: "مرسى جبل وهران مرسى كبير شتوي سكن من كل ريح"[2]، فهو مرسى آمن من الرياح بسبب الجبال التي تحيط به.

أصبح هذا المرسى في القرن 6هـ/12م أكثر اتساعا وازدهارا، حيث يذكره الإدريسي باسم المرسى الكبير، فيقول: "المرسى الكبير وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السَفرية، وهذا المرسى يستر من الريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر...ومراكب الأندلس إليه مختلفة"[3]، ثم أصبح هذا المرسى في عهود لاحقة: "أجمل مراسي إفريقيا وأعظمها، حيث يتّسع لعدد كبير من القوادس والسفن، لا تناله الرياح والعواصف من أي جهة من الجهات"[4]، ويبدي الحسن الوزان إعجابا كبيرا بهذا المرسى في قوله: "هناك ميناء ما أظن أنّ في الدنيا أكبر منه، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسفن الحربية، في مأمن من كل عاصفة وإعصار"[5].

يمكننا القول أنّ مرسى جبل وهران أو المرسى الكبير كان ميناء صغيرا خلال القرون الأولى التي أعقبت الفتح، لكن وبسبب كبر هذا المرسى وأمنه من الرياح، اتسع وازدهر في القرن 6هـ/ 12م، ليصبح في القرون اللاحقة أجمل وأكبر موانئ بلاد المغرب جميعها.

-مدينة أَسْلُنْ:

تقع هذه المدينة غرب مدينة وهران، يصفها ابن حوقل بقوله: "وأسلن مدينة خصبة لها سور عظيم حصين وماؤها فيها، ولها بساتين كثيرة، وكنت أعرفها قديما لحميد بن يزل، ولها مرسى وهي كثيرة الأهل، وأكثر أموالهم الماشية، ولهم منها الكثير الغزير"[6]، وما يلفت الانتباه هو سور المدينة الذي وصف بالعظيم، ممّا يدل على أهميتها وحصانتها ضد الهجمات البحرية، كذلك وصفها بأنّها كثيرة الأهل والماشية وهذا ما يدلّ على غنى أهل تلك المدينة.

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 79.
2- البكري، المغرب، ص: 170.
3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 252.
4- كربخال مارمول، إفريقيا، ج2، ص: 327.
5- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 31.
6- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 79.

ويورد البكري وصفا أكثر تفصيلا للمدينة، حيث يذكر أنّ المدينة تقع شرقي مدينة أرشقول، وهي حصينة، كما أنّها من المدن القديمة، عليها سور صخر وبها جامع وسوق، تسكنها قبيلة مغيلة البربرية، وللمدينة نهر يصب في البحر، يسقى منه بساتينهم وثمارهم، ثم يضيف أنّ الخليفة عبد الرحمن الناصر افتتحها، وبعث إليها محمد بن أبي عامر من بعده حميد بن يزل فبناها وجددها. وحسب تقديرات البكري فإنّ المدينة ومرساها يبعدان عن قصر ابن سنان مرحلة لطيفة، وعن تيهرت أربع مراحل، كما يفصل بينها وبين مدينة فكّان نهر "سِي"[1]. ويورد صاحب كتاب الاستبصار وصفا مقتضبا لمدينة أسلن، حيث يسميها أَسْلِي، ويقول أنّها تقع بشرقي أرشقول بمقربة منها، وكانت أسلن مدينة قديمة عليها سور من الصخر، كما أنّها حصينة، ويبدو أنّه قد أخذ معلوماته عن البكري[2]، ويظهر أنّ مدينة أسلن قد فقدت أهميتها في القرن السادس للهجرة، وذلك من خلال وصفه المختصر لها، وقوله: "كانت حصينة"[3]، هذا وإن دلّ على شيء فربّما يدل على تعرضها لهجمات الأساطيل بما أنّها محاذية للبحر، أو ربّما كانت إحدى محطات الصراع الأموي الفاطمي.

أمّا عن ميناء مدينة أسلن فهو من الموانئ المندثرة التي انقطعت أخبارها الآن، وحسب الآثار فإن هذا المرسى يتوافق مع موقع سيدي جلول حاليا، وهي مدينة في شرق أرشقول وبمقربة من وهران التي تحدّها من الناحية الشمالية الشرقية، حيث كانت هناك مدينة رومانية تدعى كمراتا (Camarata)، رغم أنّ بعض المراجع تحاول وضعها بموقع بني صاف الحالية، وقد أثبتت الأبحاث غياب أي معطى أثري يؤكد ذلك[4].

1- البكري، المغرب، ص: 166.

2- مجهول، الاستبصار، ص: 134.

3- مجهول، المصدر نفسه، ص: 134.

4- عشي علي، التوجه البحري، ص ص: 113-114.

-مدينة أَرْشَقُولْ:

اختلفت تسمية هذه المدينة لدى الجغرافيين، فيسميها ابن حوقل أَرْجَكُوك[1]، ويوردها البكري والحميري باسم أَرْشَقُولْ[2]، أمّا الإدريسي فيذكرها باسم جزيرة أرشقول وأَرْجَكُون[3]، ويذكرها صاحب كتاب الاستبصار باسم أرشَجُول[4]، أمّا ابن سعيد المغربي فيسميها أرْشَغُون[5].

يذكر الحسن الوزان أنّ مدينة أرشقول مدينة كبيرة قديمة، بناها الأفارقة على صخرة يحيط بها البحر من كل جانب ما عدا الجنوب، حيث يوجد طريق ينزل من الصخر إلى اليابسة، ولذلك تسمى بالجزيرة، وهي واقعة على بعد نحو أربعة عشر ميلا من تلمسان[6]، ويضيف ابن حوقل أنّ المدينة تقع على واد "تَافْنَا بينها وبين البحر نحو ميلين"[7]، وقد كانت أرشقول خلال القرن الرابع للهجرة مدينة لطيفة أي صغيرة، "لها مرسى وبادية وخصب وسعة في الماشية والأموال السائمة، ومرساها في جزيرة لها فيها مياه ومواجن كثيرة للمراكب ولأهلها والمحتاجين إليها في سقي سوائمهم"[8].

ويعطينا البكري وصفا أكثر تفصيلا حيث يذكر أنّ أرشقول هي ساحل تلمسان، بينها وبين تلمسان فحص زَيْدُور، ويضيف أنّ مدينة أرشقول تقع على نهر تافنا، يقبل من قبليّها ويستدير بشرقيّها، وتدخل فيه السفن اللِّطاف من البحر إلى المدينة، وبينهما ميلان وهي مسوّرة[9]، ونفس الوصف تقريبا نجد عند الإدريسي الذي يقول أنّها: "كانت فيما سلف حصنا عامرا، له

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 79.
2- البكري، المغرب، ص: 165؛ الحميري، الروض المعطار، ص: 26.
3- الإدريسي، المغرب وأرض السودان: ص: 172.
4- مجهول، الاستبصار، ص: 134.
5- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 140.
6- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 16.
8-ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 79.
8- ابن حوقل، المصدر نفسه، ص: 79.
9- البكري، المصدر السابق، ص: 165.

مرسى وبادية وسعة في الماشية والأموال السائمة، ومرساها في جزيرة فيها مياه ومواجل كثيرة للمراكب"[1].

وبالنسبة لعمارة المدينة فندع البكري ليصف لنا عمرانها، حيث يقول: "وبمدينة أرشقول مسجد جامع حسن فيه سبعة بلاطات، وفي صحنه جب كبير وصومعة متقنة البناء، وفيها حمامان أحدهما قديم، ولها من الأبواب باب الفتوح غربي وباب الأمير قبلي، وباب مرنيسة شرقي، محنيّة كلّها عليها منافس، وسعة سورها ثمانية أشبار، وأمنع جهاتها جوفيّها"[2]، ويضيف أنّ أرشقول كان يسكنها التجار، فالمدينة وكأغلب المدن الساحلية مكونة من مرافق تتطلّبها طبيعتها الساحلية، وتتمثل في المراسي والموانئ، وكانت أغلبها في حالة نشاط دائم مع الشمال والشرق خصوصا، كذلك احتواء المدينة على سور وذلك لصد هجمات الأعداء والدفاع عنها.

كانت مدينة أرشقول تحت حكم الأدارسة، وقد تعرّضت للتخريب مع عدة مدن من طرف الفاطميين الذين لم يكونوا في وفاق مع الأدارسة، وبقيت المدينة مخرّبة أكثر من مائة وعشرين سنة إلى أن عبر المنصور بن أبي عامر إلى المغرب، أين دخل المدينة وأعاد تعميرها وأقام بها حامية، وذلك لوقوعها في مكان ملائم لمرور الجيوش[3]، وظلّ يرعاها لكن قبائل صنهاجة ومغراوة بعد أن مات المنصور وابنه المظفر، طردوا جميع الجنود الأندلسيين أو قتلوهم، ثم خربت المدينة عدة مرات، كما حدث في سنة 410هـ/1020م[4].

-هُنَيْن:

يذكر البكري هذه المدينة التي كانت مرسى محصّنا، ولذلك كانت ربّما تجمع بين وظائفها الدفاعية، وفي الوقت نفسه كانت مرسى، وإذ لم يرد لها ذكر لدى المصادر الأخرى، فإنّ ذلك يدل على أنّ هذا المرسى لم يكن له دور يستحق الذكر، لكنه أصبح مرسى مهمّا في القرن 5هـ /11م، إذ يقول عنه البكري: "مرسى جيّد مقصود"[5]، وقد أخذت هذه المدينة الحصن المرسى في

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 172.
2- البكري، المغرب، ص: 165.
3- مارمول، إفريقيا، ج2، ص: 297.
4- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 16.
5- البكري، المصدر السابق، ص: 167.

النمو والتطور، لتصبح في القرن السادس للهجرة "مدينة حسنة صغيرة في نحر البحر، وهي عامرة، عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء، وخارجها زراعات كثيرة وعمارات متصلة"[1].

يصفها الحسن الوزان بأنّها مدينة "لها ميناء صغير محروس ببرجين كل واحد منهما في جهة، وتحيط بها أسوار عالية متينة، لا سيما من جهة البحر"[2]، وهو الأمر الذي لاحظناه في معظم المدن الساحلية التي تتميّز بحصانتها، فموقعها على البحر جعلها أكثر عرضة لهجمات الأعداء، خاصة إغارات أساطيل النصارى.

وقد كانت هنين فرضة لمدينة تلمسان التي يفصلها عنها ثلاثون ميلا[3]، لكن هذه المدينة الصغيرة قد أخذت في النمو والتطور وساعدها في ذلك ميناؤها النشط، حتى أصبحت في العهود اللاحقة مدينة آهلة بالسكان، والدور آهلة بالتجار والصناع، وازدهر بها العمران، وبها مساجد حسنة البناء[4].

لم تحظ مدينة هنين بقسط وفير في كتابات الجغرافيين، لكن هذا لم يمنع بوصف بعضهم لها، أو فقط إشارتهم إليها، حيث يذكر ياقوت الحموي أنّ "منها كان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، في بُلَيْدة منها يقال لها تَاجْرَة"[5]، وذكرها ابن فضل الله العمري أثناء ذكره للمدن المطلّة على البحر الشامي، أي البحر المتوسط، حيث يقول: "...ثم المزمة ثم مليلة، ومنها يوسق القمح ويحمل إلى سبتة وإلى غيرها من بلاد البر من العدوة وغربي الأندلس... ثم يليها هنين..."[6].

-تَرْنَانَا:

تقع هذه المدينة على بعد عشرة أميال من مرسى ماسين، يصفها البكري بأنّها مدينة مسوّرة ولها أسواق ومساجد وجامع وبساتين كثيرة، بينها وبين نَدْرُومَة ثمانية أميال، ويوجد بساحلها حصن يدعى "حصن تُونْت"، وهو حصن منيع على جبل منيف قد أحاط به البحر من

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 172.
2- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 15.
3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 140.
4- كربخال مارمول، إفريقيا، ج2، ص: 296.
7-ياقوت الحموي، معجم البلدان، م5، ص: 419.
6- العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص: 181.

ثلاث جهات، وله مرتقى وعر من ناحية الشرق، ولا يطمع فيه أحد، وينزله قبيل من البربر يعرفون ببني منصور[1]، فقد تميزت مدينة ترنانا بحصانتها وتجهيزاتها الدفاعية ترقبا لأي عدوان.

ويذكر البكري كذلك أنّ مدينة ترنانا يسكنها فخذ من بني دمّر، يسمون بني يلول، وكانت من المدن التابعة للأدارسة، فقد كان بها عبد الله الترناني بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنهم–[2].

ويذكرها الإدريسي في الطريق من فاس إلى تلمسان فيقول: "...ومنها إلى ترنانة مرحلة، وهي قلعة عليها حصن منيع، ولها سوق عامرة وبها مياه كثيرة، ولها جنات وكروم"[3]، وتوجد بترنانا بساتين وشجر كثير يحمل من زبيب تينه إلى ما يليه من النواحي، كما يوجد في جبل حصن تونت معدن الإثمد[4]، إذن فقد ساهم موقع المدينة الهام وحصانتها، وكثرة خيراتها، إلى ازدهار الزراعة والتجارة بها، دون أن نغفل دور مرساها في ذلك، لتصبح خلال القرن السادس للهجرة "مدينة كبيرة مشهورة على ساحل البحر، ومحطا للسفن ومقصدا لقوافل سجلماسة وغيرها"[5].

1- البكري، المغرب، ص ص: 166-168.
2- البكري، المصدر نفسه، ص: 167.
3- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ص: 79-80.
4- البكري، المصدر السابق، ص: 168.
5- مجهول، الاستبصار، ص: 135.

3-الموانئ الأندلسية:

نركّز في دراستنا هذه على الموانئ والمدن الساحلية بشرق الأندلس، وذلك لاتصالها المباشر بموانئ وسواحل المغرب الأوسط، وتواجدها ضمن المجال البحري للبحر الأبيض المتوسط، ومن أبرز هذه المدن الشرقية البحرية:

-لَقَنْتْ:

وهي مدينة من كورة تُدْمِير، تقع شرق مُرْسِيَة على ساحل البحر المتوسط، وهي إحدى المدائن السبع التي صالح عليها تدمير بن غندريس عبد العزيز بن موسى بن نصير[1]، بينها وبين دَانِيَة على الساحل سبعون ميلا[2]، وعدّها المقري مدينة من أعمال مرسية[3].

يصف الإدريسي لقنت بأنّها مدينة صغيرة عامرة فيها سوق ومسجد جامع، كما أنّ بها قصبة منيعة وعالية جدا في أعلى جبل لا يصعد إليه بمشقة وتعب، كذلك يذكر بأنّ المدينة تتميّز بكثرة الحلفاء بها، حيث يتجهز منها إلى مختلف البلدان المطلّة على البحر المتوسط، كما عرفت بكثرة الفواكه والبقل والتين والأعناب، وبالرغم من صغر المدينة إلّا أنّ مرساها في نشاط دائم، حيث تنشأ به المراكب السفرية والحراريق[4]، حتى غدا من أكبر موانئ الساحل الشرقي للأندلس، ويقابل هذا المرسى من عدوة المغرب مرسى جزيرة وقور، يقطع البحر بينهما في خمس مجار[5].

1- العذري، ترصيع الأخبار، ص ص: 4-5.

2- الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، صفة جزيرة الأندلس: منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتص وتع: ليفي بروفنسال، بيروت: دار الجيل، ط2، 1988، ص: 170.

3- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 166.

4- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 193.

5- البكري، المغرب، ص: 170.

- بَنْشَكْلَة:

وهو حصن في شرق الأندلس بالقرب من مدينة طَرَّكُونة، يقع هذا الحصن على ضفة البحر المتوسط، وهو منيع عامر آهل بالسكان وله قرى وعمارات[1]، ويشتهر هذا الحصن بكثرة المياه ووفرتها، "وبه عين ثرّة تريق في البحر"[2].

ويبدو أنّ حصن بنشكلة يحتوي على مرسى مهم أشار إليه البكري أثناء حديثه عن مراسي بلاد المغرب وما يقابلها من مراسي العدوة الأندلسية، حيث يذكر أنّ مرسى مدينة جزائر بني مزغنّى يقابله من بر الأندلس مرسى بنشكلة بينهما ست مجار[3].

- شَلُوبِينِيَة:

وهي أحد أقاليم كورة إلبيرة[4]، وهي "قرية مسكونة على ضفة البحر، بينها وبين المُنَكَّب عشرة أميال، ويجود فيها الموز وقصب السكر"[5]، ويقابل مرساها من مراسي العدوة المغربية مرسى مَليلة، و"يقطع البحر بينهما في مجريين"[6].

- قرطاجنّة:

ذكر الحميري أنّ قرطاجنة بالأندلس في موضعين، الأول منها يقع في سفح جبل طارق وهي مدينة للأوّل غير مسكونة وبها آثار كثيرة وتعرف بقرطاجنّة الجزيرة، أمّا التي عناها بحثنا فهي قرطاجنّة الحَلفاء أو كما يسميها قرطاجنّة الحُلفاء، من أعمال كورة تُدمير[7].

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 191.

2- الحميري، الروض المعطار، ص: 104.

3- البكري، المغرب، ص: 171.

4- العذري أحمد بن عمر بن أنس، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، تح: عبد الله الأهوازي، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلامية، ص: 90.

3-الحميري، الروض المعطار، ص: 343.

6- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 111.

7- الحميري، المصدر نفسه، ص: 151.

تعتبر مدينة قرطاجنّة "فُرضة مدينة مرسية، وهي مدينة قديمة أزلية لها مرسى ترسى بها المراكب الكبار والصغار، وهي كثيرة الخصب والرخاء المتتابع"[1]، ويقال إنّ الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطرة واحدة، وما يوجد مثاله في طيب الأرض وجودة نموّ الزرع فيه، ولقرطاجنّة "فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان معمور بالقرى"[2].

وتبعد مدينة قرطاجنّة عن مدينة مرسية في البرِّ مسافة أربعين ميلا[3]، بينما يذكر العذري أنّ المسافة بينهما هي ثلاثون ميلا[4]، ويقابل مرسى قرطاجنّة من مراسي العدوة المغربية مرسى قصر الفلوس[5].

- المُنَكّبُ:

المنكّب مدينة من كورة إلبيرة من أقاليم غرناطة إلى الجنوب منها[6]، وهي مدينة على البحر "حسنة متوسطة كثيرة مصايد السمك وبها فواكه جمّة"[7]، وعليها حصن كبير لا يرام، به ربض وأسواق وجامع، وفيه آثار للأول كثيرة، وتحتوي هذه المدينة على مرسى صيفي يكنّ بشرقيّه، ولها نهر يريق في البحر[8]، والمنكّب هي فرضة غرناطة وساحلها وتقابل من ساحل العدوة المغربية المزمة وعرض البحر هنالك مجرى[9].

اشتهرت المنكّب في التاريخ الأندلسي باستقبالها لعبد الرحمن الداخل أوّل نزوله بالأندلس وذلك في ربيع الأول من سنة 138هـ/756م[10]، وتبعد هذه المدينة عن غرناطة مسافة 40 ميلا

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 194.
2- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 168.
3- الحميري، صفة، ص: 151.
4- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 03.
5- البكري، المغرب، ص: 171.
6- بني ياسين يوسف أحمد، بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية، الإمارات العربية المتحدة: مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، 2004، ص: 495.
7- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 199.
8- الحميري، الروض المعطار، ص: 548.
9- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 140.
10- الحميري، الروض المعطار، ص: 548.

برا، وعن شلوبينية في البحر 8 أميال[1]، ويمكننا أن نختم قولنا بأنّ المنكّب كانت عبارة عن مرسى عليه حصن منيع، والذي يبدو بأنّه قد ازدهر بفعل النشاطات التجارية البحرية فتمصّر واتسع ليصبح مدينة متوسطة القدر.

-دَانِيَة:

وهي من قواعد مدن شرق الأندلس[2]، وتقع دانية على البحر وهي مدينة عامرة حسنة[3]، يجعلها البكري ضمن الجزء الرابع من أجزاء الأندلس، والذي قاعدته مدينة طُلَيْطِلَة، ويحتوي على عشرين مدينة من ضمنها مدينة دانية[4]، وهي من حيث الطول تسع عشرة درجة وعشر دقائق، والعرض تسع وثلاثون درجة وست دقائق[5].

ودانية مدينة متوسطة على ضفة البحر، فهي برية بحرية حصينة، كثيرة الخيرات والفواكه والبساتين[6]، وقد تميّزت المدينة بحصانتها وبأسوارها المنيعة، وقد أشاد بذلك العديد من الجغرافيين، فيذكر العذري أنّ دانية: "مدينة حصينة على ساحل البحر، وقصبتها في أعلى جبلها، وحواليها سبخة تمتنع بها من أن يقربها عدو بحصار"[7]، ويصفها الإدريسي بأنّها: "مدينة على البحر عامرة حسنة، لها ربض عامر وعليها سور حصن... وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر، قد بني بهندسة وحكمة، ولها قصبة منيعة جدّا، وهي على عمارة متصلة"[8]، ولعلّ موقعها الجغرافي وتضاريسها الطبيعية قد زادت من حصانتها، وذلك بحكم وقوع قصبتها على جبل، كذلك السبخة التي تقع بقربها.

وتقع مدينة دانية أسفل مدينة شاطبة بينهما على ساحل البحر نحو ستة عشر فرسخا، وهي من المدن القديمة من بناء القوطيّين، إلا أنّها وكالكثير من المدن البحرية فاسدة الهواء، "وأهلها

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 199.
2- المقري، نفح الطيب، ص: 166.
3- الحميري، الروض المعطار، ص: 231.
4- البكري، المسالك والممالك، ص: 892.
5- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 167.
6- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، ص: 177.
7- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 19.
8- الإدريسي، المصدر السابق، ص 192.

صفر الوجوه بسبب الصَّرِيع[1] الذي يقذفه البحر بساحلها فيتكدّس هناك أكداسا كبارا، فتصعد إليهم رائحته فتذهب ببهاء وجوههم، ويدركهم نحول وصفرة"[2].

تحتوي مدينة دانية على مرسى وصف بأنّه "مرسى عظيم"[3]، حيث يذكر الإدريسي أنّ دانية "مدينة تسافر إليها السفن، وبها ينشأ أكثرها لأنّها دار إنشاء السفن، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق، ومنها يخرج الأسطول للغزو"[4]، ويورد ياقوت الحموي أنّ للمدينة "مرسى عجيب يسمّى السُّمان"[5]، ولم يرد في غير ياقوت الحموي تسمية المرسى بالسّمان[6].

وتعتبر مدينة دانية من المدن المقتدرة بالأندلس، وهذا ما جعلها محلّ أطماع وتنافس بين الملوك والحكام، خاصة زمن ملوك الطوائف، حيث يذكر الأمير عبد الله بن بلكين في كتابه التبيان أنّه لـمّا حصل ابن هود على مدينة دانية، بغفلة من صاحبها، اهتزت له الأندلس، وجزع جميع الرؤساء لأخذه لها[7].

- بَلَنْسِيَة:

وهي قاعدة من قواعد العُمَّال القديمة، وإليها تنسب كَوْرَة بلنسية[8]، بينها وبين قرطبة اثنا عشرة مرحلة[9]، يجعلها ابن سعيد المغربي في عشرين درجة من حيث الطول، وثمان وثلاثين درجة وست دقائق من حيث العرض[10]، وقد حظيت بلنسية بإعجاب الجغرافيين الذين أكثروا من وصفها ومدحها، وأولهم العذري الذي يصفها فيقول: "هي مدينة مسوّرة، قد أتقن سورها المنصور

1- **الصَّرِيع**: هو القضيب من الشجر ينهصر إلى الأرض فيسقط عليها، وهو أيضا ما يبس من الشجر، وما يقصده المؤلف هنا هو أخشاب السفن التي تتحطّم فتتقاذفها الأمواج إلى أن تصل إلى الشاطئ فتتكدّس. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 2434.

2- الزهري، الجعرافية، ص: 103.

3- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، ص: 177.

4- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 192.

5- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص: 434.

6- الحميري، صفة، ص: 305.

7- ابن بلكين عبد الله، التبيان، ص: 100.

8- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 17.

9- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 111.

10- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 167.

بن أبي عامر...وهي أطيب البلاد وأحسنها هواء وأجملها بساتينا، ولها خطة فسيحة، وهي بلدة منيعة، جمعت البر والبحر والزرع والضرع والفواكه، ولها سهل وجبل ومدن كثيرة وحصون"[1]، ويصفها الزهري فيقول: "وهي مدينة عظيمة قد أغلقتها الثمار والأشجار... وهي على النهر الهابط من جبال أرطونة على مقربة من البحر بميل ونحوه"[2].

أمّا الإدريسي فيركّز في وصفه لها على موقعها الجغرافي وتضاريسها فيقول: "مدينة بلنسية قاعدة من قواعد الأندلس، وهي في مستوٍ من الأرض، عامرة القطر، كبيرة التجار والعمار، وبها أسواق وتجارات وحط وإقلاع، بينها وبين البحر ثلاثة أميال مع النهر، وهي على نهر جار ينتفع به ويسقي المزارع، ولها عليه بساتين وجنات وعمارات متصلة"[3]، في حين كان وصف صاحب كتاب جغرافية وتاريخ الأندلس ينمّ عن الإعجاب الكبير للكاتب بالمدينة، حيث يقول: "بلنسية من أعلى المدائن قدرا... بقعتها بقعة طيّبة ذات انفساح، وبها مبان شريفة، وقصور رائعة، وبساتين مؤنقة، برية بحرية، جمعت الهواء والماء والبر والبحر، والثمرة والمدرة، والمحطب والمحرث، والسور والمنعة، وهي دار علم وفقه وآداب"[4].

اشتهرت بلنسية بالحسن حتى سميت "بستان الأندلس"[5]، كما تميزت بكثرة خيراتها ومزارعها الطيبة، حيث يذكر الزهري أنّ فيها من أنواع التين ما ليس له نظير في بلاد الأندلس كلّها، وهي من طيب الحياة بالأندلس حتى أنّ الرجل يشتري من التين الأخضر بربع درهم، فيحمل ستين نوعا من التين لا يشبه واحد الثاني، لا في الطعم ولا في اللون، وتنوّعت بها أيضا أنواع الفاكهة[6]، وبها من البساتين وأصناف الأزهار مالا يحصى، "وبها الروز الطيب، والزعفران الكثير"[7].

1- العذري، ترصيع الأخبار، ص ص: 17-18.
2- الزهري، الجعرافية، ص: 167.
3- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 191.
4- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، ص: 174.
5- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 167.
6- الزهري، المصدر السابق، ص: 102.
7- مجهول، المصدر السابق، ص: 174.

وقد وُصِف أهلها بالنّباهة والذكاء والظَّرَف[1]، وبكرم الطباع وطيب النفوس، والميل إلى الراحات، وارتداء الحسن من الثياب[2]، وذلك مردّه إلى طبيعة المدينة وهوائها حسب العذري، حيث يقول: "وقد اِطّبعت مدينة بلنسية بقلة الهَمّ، لا تكاد ترى فيها أحدا من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم، مليئا كان أو فقيرا، قد استعمل أكثر تجّارها لأنفسهم أسباب الراحات والفُرَجِ، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلّا وقد اتخذ عند نفسه مُغنِّية، وأكثر من ذلك..."[3]، كما وُصِف أهلها بأنّهم خير أهل الأندلس، ويسمون عرب الأندلس[4].

وتُشْرِف مدينة بلنسية على ضفة البحر الأبيض المتوسط، كما أنّها على نهر يصبّ في البحر، حيث يصلح هذا النهر للملاحة وتدخله السفن، ممّا ساعد على ازدهار الملاحة الداخلية والخارجية، وكذا ازدهار التجارة بها، وهذا ما قصده الإدريسي في قوله: "وبها أسواق وتجارات وحط وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال مع النهر، وهي على نهر جار ينتفع به..."[5].

إذن فمدينة بلنسية من أحسن بلدان الأندلس وأطيبها، حيث كانت طوال فترة الحكم الإسلامي بالأندلس أكثر مراكز العروبة استقرارا وأشدّها حركة وقوة[6]، وكثيرا ما تغنّى الشعراء بحسنها وخيراتها وطيبها، وفيها يقول ابن الزقاق البلنسي:

بلنسيّـــــةٌ إذا فكَّرْتَ فيها **** وفي آيـــــاتِها أَسْنَى البلادِ
وأعْظَمُ شاهِدي منها عَليها **** وأنَّ جَمـــــالَها للعَينِ بادِي
كساها ربُّــها ديباجَ حُسْنٍ **** لـهُ عَلَمانِ مِنْ بَحْرٍ وَوادِي[7].

1- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، ص: 174.
2- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 47.
3- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 18.
4- الحميري، الروض المعطار، ص: 264.
5- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 191.
6- بني ياسين يوسف أحمد، بلدان الأندلس، ص ص: 263-264.
7- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 180.

- اَلْمَرِيَّةُ:

مدينة كبيرة من كورة إِلْبِيرَة من أعمال الأندلس[1]، والمرية مدينة محدثة، أمر ببنائها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة 344هـ/955م[2]، يقول العذري: "وليست المَرِيَّة بأولية العمارة، وإنّما اتخذها العرب رباطا، وابتنت فيها محارس، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها، ولا عمارة فيها يومئذ ولا سُكنى"[3]، إذن فلم تكن المرية مدينة قديمة من بناء الأوائل، كمدينة قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن التي افتتحها المسلمون عند دخولهم الأندلس، واتخذوها حواضر لهم، ولكنّها مدينة محدثة أسّسها المسلمون في جملة ما أسّسوه من مدن في جزيرة الأندلس.

واسم المرية مشتق من وظيفتها أو الغرض الذي أقيمت من أجله، إذ كانت تُتخذ في الأصل مَرْأى ومحرسا بحريا لمدينة بَجَّانَة القريبة منها، والتي لا تبعد عنها بأكثر من ستة أميال شمالا، ولذلك سمّيت بِمَرِيَّة بجّانة[4]، فأصبحت المرية فُرضة بجّانة[5]، ثم تحوّلت إلى مدينة المرية بعدما تمصّرت.

بقيت مدينة المرية عبارة عن مرأى بنيت فيه المحارس، ورابط به الناس، حتى عام 344هـ/955م، أين أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي كان مهتما بالعمران، ببناء مدينة المرية، ثم أمر بإحاطتها بسور منيع، وقد كان الموضع الذي بنيت فيه مدينة المرية مجرد أرض جرداء، "استدارت بها صخور مكدّسة وأحجار صلبة مضرّسة، لا تراب بها كأنّما غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر"[6]، فأصبحت بعد ذلك كما وصفها العذري في قوله: "ومدينة المرية اليوم متقنة البناء مصرية الشكل، والمدينة القديمة منها مسورة بسور عجيب...وقد أشرفت على المدينة قصبتها، وهي في جبل منفرد عليه سور متقن، لا يصعد إلى قصبتها إلّا بكلفة، ولا يرقى إليها إلا

1- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 484.

2- الحميري، المصدر نفسه، ص: 183.

3- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 86.

4- سالم سيد عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1984، ص ص: 17، 19.

5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 111.

6- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 198.

بمشقّة، محكمة في رتبها، غاية في امتناعها"[1]، ويحيط هذا السور بالمدينة والربض، وقد استدار بالمرية من كل جهة حصون مرتفعة وأحجار أزلية[2]، ممّا زاد من حصانة المدينة ومنعتها، أمّا عن سكانها فهم كما وصفهم الزهري في قوله: "وأهل هذه المدينة أرقّ أفئدة، وأدقّ نفوسا، وأكثر شفقة من غيرهم، ومن بركتها أنّها إذا اشتد على أهلها هم وغم فرّجه الله تعالى عليهم، ولم يدم فيها عسر قط"[3].

ومع تعرّض السواحل الشرقية للأندلس للغارات والهجمات المتعددة من النورمان، قرّر حكام الأندلس إنشاء أساطيل وقواعد على الساحل لردّ الهجمات المتكررة من النورمان، كما أقيمت مراقب ومحارس على طول الساحل وتمّ شحنها بالمقاتلة، ومن بينها مريّة بجّانة التي أصبحت كما ذكرنا مدينة المريّة، فبسبب موقعها الهام ارتفعت مكانتها لتصبح عصر الخلافة "من أهم موانئ الأندلس وأشهر مراسيها وأعمرها"[4]، وكان خليجها العميق يضم معظم وحدات الأسطول الأموي في الأندلس، كما كان مرفؤها هو مرفأ الأندلس للحطّ والإقلاع[5]، وأصبحت تقصده مراكب التجار من الإسكندرية والشام، حتى أصبح أهلها بذلك من أكثر أهل الأندلس مالا[6]، إذن فقد كانت مدينة المرية هي القاعدة البحرية الرئيسية في الأندلس، وفيها تجمّعت معظم دور صناعة السفن الهامة، وفي هذه المدينة كانت تجهز السفن التي كوّنت البحرية النظامية وعددها مائتا سفينة[7].

1- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 86.

2- ابن الوردي سراج الدين، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح: أنور محمود زناتي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2008، ص: 70.

3- الزهري، الجعرافية، ص: 101.

4- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 183.

5- سالم عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية، ص ص: 36-37.

6- الحميري، المصدر السابق، ص: 184.

7- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، تر: أحمد محمد عيسى، مر وتق: محمد شفيق غربال، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص ص: 241-242.

- مُرْسِيَة:

هي مدينة من أعمال كورة تُدْمِير، اختطّها الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[1]، يجعلها ابن سعيد المغربي في ثمان عشرة درجة من حيث الطول، والعرض تسع وثلاثون درجة ودقائق[2]، يذكر العذري أنّ مدينة مرسية بنيت أيام عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت دارا للعمال وقرارا للقواد، وكان الذي تولى بنيانها وخرج الكتاب بالعهد إليه في اتخاذها جابر بن مالك بن لبيد سنة 210هـ/825م، فاتّخذ جابر مدينة مرسية منزلا وجعلها للعمال موطنا[3].

بنيت مدينة مرسية على "مستوٍ من الأرض على النهر الأبيض، ولها ربض عامر آهل، وعليها وعلى ربضها أسوار حصينة، وحظائر متقنة، وماء يشق ربضها"[4]، وقد تطوّرت المدينة وازدهرت، وصارت القصبة بعد تدمير، وتسمى مرسية البستان، لكثرة جناتها المحيطة بها[5]، ويشقّ المدينة نهر كبير يسقي جميعها، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة، وهي راخية أكثر الدهر رخيصة الفواكه، كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمر، وهي غنيّة أيضا بمعدن الفضة[6].

ووجود مدينة مرسية على هذا النهر الكبير، قد سمح لها بالملاحة الداخلية، حيث وضعت على هذا النهر قنطرة وأرحاء، وتسير فيه المراكب وتنتقل من موضع إلى موضع آخر[7].

- مَالِقَة:

وهي من المدن الأولية، ومالقة مدينة عامرة من أعمال رَيَّة، سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، وهي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزُّقَاق[8]، يجعلها ابن سعيد مع خط الإقليم الخامس وعرض البحر بينهما درجة[9]، وقد وُصفت مالقة بأنّها "مدينة معشوقة، بحرها سلك

1- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص: 107.
2- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 167.
3- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 6.
4- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 194.
5- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 164.
6- الحميري، الروض المعطار، ص: 539.
7- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 194.
8- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص: 43.
9- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 140.

في نحرها"[1]، فمدينة مالقة شأنها شأن أغلب المدن الأندلسية، قد وصفت بالجمال والبهاء وحسن البنيان وكثرة البساتين، وهذا ما أورده الإدريسي في وصف شامل للمدينة وأحوازها، حيث يقول: "مدينة مالقة مدينة حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار متّسعة الأقطار، بهيّة كاملة سنيّة، أسواقها عامرة ومتاجرها دائرة، ونعمها كثيرة، واستدار به من جميع جهاتها شجر التين"[2]، كما تحتوي المدينة على ربضان عامران، ربض عام للناس وربض للبساتين، أمّا شرب أهلها فمن الآبار[3]، ويوجد بالمدينة جسر كثيرا ما حيّر الجغرافيين، فهو "جسر من بناء الأول، الجسر داخل في البحيرتين هناك، قد بني بصخر كأنوف الجبال"[4]، وقد نال هذا الجسر إعجاب ودهشة الجغرافي الزهري الذي يصفه فيقول: "وفيها عَجَب من عجائب الأرض، وهو الجسر الذي على ساحل البحر، من تلك الأحجار المكدسة التي غلبت البحر وأمسكته إمساكا، يشهد العقل بالقدرة والكفاءة للذين ساقوها"[5].

وبمدينة مالقة مرسى جميل على شاطئ البحر في جهة الجنوب، و"مرسى مالقة صيفي، يكنّ بغربيه، وبإزائه ممّا يلي المدينة الجسر الذي ذكرناه، ينكسر عليه الموج"[6]، وفي العهد الموحدي أصبح ميناؤها تجاريا على جانب من الأهمية في البحر الأبيض المتوسط، فكثر قصد المراكب والتجار إليها، وتضاعفت بذلك عمارتها، حتى صارت أَرْشَذونَة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها[7].

وأصبحت مالقة في القرون اللاحقة إحدى قواعد الأندلس، وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه[8]، وتشتهر مالقة بالتين المالقي، حيث يقال أنّه: "أحسن التين لونا، وأكبره حجما، وأنعمه شحما، وأحلاه طعما، ويحمل منها التين إلى سائر الأقاليم حتى

1- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، ص: 161.
2- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 200.
3- ابن الوردي، خريدة العجائب، ص: 67.
4- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ص: 217-218.
5- الزهري، الجعرافية، ص: 93.
6- الحميري، الروض المعطار، ص: 518.
7- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص: 43.
8- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 152.

الهند والصين"[1]، ويشرف على المدينة جبل لا يخلوا منه الثلج لا صيفا ولا شتاء، وإذا طلع أحد على هذا الجبل رأى بلاد العدوة كأرض تلمسان وغيرها[2].

- طُرْطُوشَة:

هي من ثغور الأندلس على البحر[3]، تقع في الشمال الشرقي من بلنسية بالقرب من ساحل البحر المتوسط، وهي من كور شرق الأندلس ولها أقاليم تتبعها[4]، يذكرها ابن حوقل بأنّها "آخر المدن على البحر المتصل ببلاد الإفرنجة، فهي ثغور تتصل من جهة البر ببلاد غَلْجَشْكش، وهي بلاد حرب للروم، ثم تتصل ببلد بَشْكُونْس، وهم أيضا نصارى الجلالقة"[5]، إذن فطرطوشة هي الحد الفاصل بين المسلمين والنصارى في الأندلس، فهي قاصية أرض الأندلس الشرقية، ومنقطع دعوة الإسلام في الأندلس[6].

وطرطوشة مدينة عظيمة من بنيان الأقاصرة، حيث تقع في الضفة الغربية من مصب نهر إبره (Ebro) في البحر المتوسط[7]، وقد بنيت المدينة على سفح جبل، وسوّرت بسور حصين، وبها أسواق وعمارات[8]، وقصبتها على صخرة عظيمة سهلة الأعلى، وفي الشرق من القصبة جبل، وفي غربيها وجوفيها المصلى والمدينة، والسور الذي عليها من بناء بني أمية على رسم أولي قديم، ولها أربعة أبواب كلّها ملبّسة بالحديد، ولها أرباض ودار صناعة وحمامات وسوق[9]، إذن فطرطوشة مدينة برية بحرية، كثيرة الثمار والفواكه[10].

1- ابن الوردي، خريدة العجائب، ص: 67.
2- الزهري، الجعرافية، ص ص: 93-94.
3- الحميدي، جذوة المقتبس، ص: 208.
4- بني ياسين يوسف أحمد، بلدان الأندلس، ص: 382.
5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 105.
6- بني ياسين يوسف أحمد، المرجع السابق، ص: 382.
7- مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، ص: 176.
8- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 190.
9- الحميري، الروض المعطار، ص: 391.
10- القزويني زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر، ص: 544.

وتزخر طرطوشة بالكثير من الخيرات والموارد الطبيعية والمعادن، حيث يتواجد بها معدن الكحل المشبّه بالأصفهاني، ويحمل منها إلى جميع البلاد[1]، ولعلّ ما أسهم في ازدهار تجارتها مرساها، فمدينة طرطوشة "باب من أبواب البحر، ومرفأ من مرافئه، يحلّها التجار من كل ناحية"[2]، وقد اتخذت بها دار لصناعة المراكب الكبار من خشب جبالها، حيث يستخدم نوع من خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ، ومنه تُتَّخَذُ الصواري والقُرى، وهذا الخشب الذي يوجد بجبال طرطوشة أحمر صافي البشرة، دسم لا يتغير سريعا ولا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره، وهو خشب معروف منسوب[3]، وقد استغلت المدينة مواردها الطبيعية من خشب ومعادن لتطوير الصناعة وازدهار التجارة، ما جعلها مقصدا للتجار، ومحطا للقوافل والمراكب.

-جزيرة شُقْر:

جزيرة شُقْر، بضم الشين وسكون القاف، بُلَيدة بين شاطبة وبلنسية، وإنّما قيل لها جزيرة لأنّ الماء يحيط بها[4]، فهي جزيرة قد أحاط بها الوادي من جميع جهاتها ولم يبق إلا موضع لطيف يدخل منه إلى هذه الجزيرة قد صنع فيه حفير، وعليها ممّا يلي ذلك الموضع سور وباب يُصعد إليه على درج[5].

وقد سميت المدينة بشقر نسبة إلى نهر شقر (Jucar) قبل مَصبّه في البحر المتوسط جنوبي بلنسية، وكانت أحيانا تسمى بالجزيرة فقط، وهو الاسم الذي استعير فيما بعد لبلدة (Alcira) الإسبانية الواقعة على نهر شقر على مقربة من الجزيرة المذكورة[6].

أطنب المؤرخون والجغرافيون في وصف حسن الجزيرة ونزاهة أرضها وخيراتها، فيذكر الإدريسي أنّها جزيرة "حسنة البقاع، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار"[7]، ويصفها ياقوت الحموي

1- المقري، نفح الطيب، م1، ص: 143.
2- الحميري، الروض المعطار، ص: 391.
3- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 190.
4- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص: 57.
5- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 19.
6- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 179. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، تح: أحمد مختار العبادي، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1971، ص ص: 108-109.
7- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 192.

بأنّها "أنْزَه بلاد الله وأكثرها روضة وشجرا وماء"[1]، ويوجد بالمدينة "جامع ومساجد وفنادق وأسواق، وقد أحاط بها الوادي، والمدخل إليها في الشتاء على المراكب، وفي الصيف على مخاضة"[2]، ويذكر الزهري أنّ بالمدينة قنطرة عظيمة من أبدع ما صنع، كما وصف أهلها بالرقة والرفاهية[3]، وبالرغم من أنّ هذه الجزيرة ليست على ساحل البحر المتوسّط، إلّا أنّ الملاحة كانت بها ممكنة، حيث تستطيع السفن الدخول إليها من البحر المتوسط عبر مصبّ نهر شقر.

المبحث الثاني: الأساليب الملاحية والتأثيرات المناخية على الملاحة البحرية

تمهيد:

اعتمدت الملاحة البحرية في البحر الأبيض المتوسط على مجموعة من الأساليب والتقنيات، والتي وإن كانت بدائية، إلى حدّ ما، إلّا أنّها ساهمت في تطّور الملاحة بالبحر المتوسط، كما كان للأحوال المناخية تأثير على الملاحة البحرية، باعتبار المناخ العامل الأول المؤثر في انطلاق الموسم الملاحي وتوقّفه.

1-أساليب وتقنيات الملاحة البحرية:

تنوّعت أساليب الملاحة في البحر المتوسط، كما تنوعت مفرداتها وعباراتها التي تصف كيفية إبحار السفن في أطوال البحر وعروضه، وفي السواحل وأعالي البحار، حيث تزخر المصادر التاريخية والجغرافية في الغرب الإسلامي برصيد غني ومتميّز عن هذه الأساليب، كما تمنح لنا هذه النصوص معطيات دقيقة عن كيفية قياس الرَّبابنة للمسافات البحرية، إلى حدّ وضع قواعد ووحدات قياسية متعارفة لتحديدها[4]، ويمكن تصنيف تقنيات الإبحار إلى ثلاث طرق تم تداولها بين بحّارة الغرب الإسلامي هي:

1- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص: 349.

2- الحميري، الروض المعطار، ص: 349.

3- الزهري، الجغرافية، ص: 102.

4- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة البحرية، ص: 75.

أ-أسلوب التّقْوِير (المُسَاحَلَة):

نجد أنّ معظم الرحلات البحرية بين موانئ الغرب الإسلامي، أو تلك المتوجهة إلى بلاد المشرق، قد اتّبعت طريقة المُساحَلة[1]، وهي اقتفاء خط سير قريب من الساحل والتوقّف باستمرار في مختلف الموانئ الواقعة على الطريق البحري[2]، حيث كانت السفن تبحر قرب السواحل ولا تبتعد عنها كثيرا حتى لا تضل، وكان البحّارة يفضّلون السفر بهذه الطريقة في البحر المتوسط، فتبحر سفنهم في خطوط موازية لخطوط الطول، حيث تساعدها الرياح على السير، ولا يقطعون البحر إلّا عند الضرورة[3].

كما أطلق عليها مصطلح "التَّقْوير"[4]، وهو أسلوب للملاحة يستعمله الإدريسي في قياس المسافات البحرية، حيث أنّ السفن تبحر في خط سير متعرِّج يخضع لشكل السواحل والخلجان والرؤوس، بحيث يمكنها مشاهدة البر، ممّا يزيد من طول المسافة البحرية في هذه الحالة، والسبب الذي جعل بحّارة الغرب الإسلامي يبحرون بهذه الطريقة، هو أنّ السفن والمراكب الصغيرة لم يكن باستطاعتها الابتعاد عن السواحل، رغبة في احتمائها من هول البحر بالتضاريس الساحلية وعدم ابتعادها عن البر تفاديا لضلالها، خاصة وقت الضباب أو أثناء الليل[5]، وعلى سبيل المثال يذكر الرحالة ابن جبير كيف سارت السفينة التي كان على متنها، والتي كانت مبحرة بهذا الأسلوب فيقول: "وكان طريقنا في البحر محاذيا لبرّ الأندلس"[6] .

1- المصطلح مأخوذ من كلمة الساحل الذي هو شاطئ البحر، وساحَل القوم أي أتوا على الساحل وأخذوا عليه. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 1958.

2- الجعماطي عبد السلام، النقل والمواصلات بالأندلس، ص: 216.

3- Dufoureq. (ch.E) : L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIV e siècle. Paris. 1966. P. 45.

4- تقدم معاجم اللغة تعريفا قريبا ممّا توحي به النصوص الجغرافية، فهو يحيل على الاستدارة في خط السير، وقار الشيء قورا وقوّره، أي قطعه من وسطه خرقا مستديرا. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 3771.

5- الجعماطي عبد السلام، دراسات، ص ص: 75-76.

6- ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي البلنسي، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، ص: 8.

ب-أسلوب الرّوسية:

إلى جانب التقنية السالفة الذكر، فقد أبحر بحّارة الغرب الإسلامي باتباع طريقة تعرف بـ "الرُّوسِيَّة"، وهي حسب ما جاء به الإدريسي، تتّصف باتّخاذ خط شبه مستقيم للوصول إلى محطة بحرية معيّنة، ويقدم لنا الإدريسي معطيات إحصائية حول المسافات التي تفصل بين بعض مدن وموانئ المغرب الأوسط بـ "الروسية" و"على التقوير"[1]، فمثلا المسافة من وهران إلى طرف مشّانة روسية خمسة وعشرون ميلا وعلى التقوير اثنان وثلاثون ميلا، ومن مستغانم إلى حوض فروح تقويرا أربعة وعشرون ميلا وروسية خمسة عشر ميلا[2]، نستنتج إذن أنّ أسلوب الإبحار بالروسية كان من شأنه تقليص المسافة البحرية أكثر من نسبة الثلث مقارنة بأسلوب التقوير.

ج-أسلوب التّلْجِيج:

تذكر بعض المصادر أسلوبا يعرف بالتَّلْجيج[3]، فقد كانت بعض السفن تمخر عباب البحر مُلجِّجة في أعاليه، واللُّجَج في اصطلاحات الجغرافيين والمؤرخين هو الابتعاد عن السواحل في اتجاه أعالي البحار أو قطعها عرضا، وقد عَدُّوه نوعا من التغرير بالنفس والمال، يوشك بصاحبه أن يهلك في غير طائل[4]، لكن المراكب المتوجّهة من العدوة المغربية إلى العدوة الأندلسية أو العكس، وكذلك تلك المتوجهة إلى المشرق تضطر في الكثير من الأحيان أن تبتعد عن الساحل وتقطع البحر عرضا، فمثلا يذكر ابن جبير أنّ السفينة التي كان على متنها قد اعتمدت هذا الأسلوب في الإبحار أيضا، وذلك في قوله: "فأخذنا مُلجِّجين وأقرب ما نؤمله من البرّ إلينا جزيرة أقريطش"[5]، والملاحظ أنّ اتّباع أسلوب التلجيج كان متوقّفا على دراية الربابنة بالملاحة الفلكية، لأنّ هذا الأسلوب يقوم أساسا على الاسترشاد بالنجوم لتوجيه دفّة السفينة صوب الاتجاه المقصود[6].

1- الجعماطي عبد السلام، النقل والمواصلات بالأندلس، ص: 217.

2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 271.

3- المصطلح مأخوذ من اللُّجَّة، ولجّة البحر: حيث لا يُدرك قعره، ولجّ البحر: عَرْضه، وهو أيضا الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه. ينظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص: 3999.

4- الجعماطي عبد السلام، النقل والمواصلات، ص: 218.

5- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: 11.

6- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ البحرية، ص ص: 78-79.

2-التأثيرات المناخية على الملاحة البحرية:

أ-الرياح وأثرها على الملاحة:

تَعرّفَ بحّارة الغرب الإسلامي على مختلف الظواهر المناخية التي تساعد أو تعيق عملية الإبحار، فاسترشدوا بالريّاح وأوقات هبوبها وأفادوا منها فائدة كبيرة في الملاحة، ولقد أسهب الجغرافيون والرحّالة في ذكر فضل الرياح وما شَرُفَت به على غيرها، ولاحظوا أفعالها وتأثيراتها، وعدّدوا أنواعها وأوصافها المعهودة[1]، وقد عدّد ابن قتيبة للرياح خمسة أنواع هي: الشَّمْأَل والجَنوب والصَّبا والدَّبور والنَّكْباء، فأمّا الشَّمْأَل أو الشمال فهي تأتي من ناحية القطب الأعلى (الشمالي)، والجنوب تأتي من ناحية القطب الأسفل (الجنوبي)، والصَّبا تأتي من وسط المشرقين، أي مهبّها من الشرق، والدَّبور تأتي من وسط المغربين، أي مهبّها من الغرب، وما هبّ بين حدّين من هذه الحدود فهي نكباء، أي الريح التي تأتي بين مهبّي ريحَيْن من هذه الرياح[2].

وأورد أبو حامد الغرناطي تصنيفا للريّاح باصطلاحات يبدو أنّها كانت متداولة بالغرب الإسلامي فيقول: "والريّاح الدّالة على القِبلة أربع: الصَّبا والدَّبور والشَّمال والجنوب، ويقال للصَّبا: القَبول، ويقال للشمال: المَحْوة، وقد اختلف في وصفها أهل العناية بهذا العلم اختلافا متباينا"[3]، وقد فصّل ابن دحية الكلبي أكثر في ذكره لتسميات الريّاح ووجهة هبوبها حيث يقول: "فالشَّمال هي الريح الشَّاميَّة، والجنوب هي الريح اليمانيّة، وتُسمَّى النُّعامَى والأَزْيَب، وهي تَهبُّ من ناحية سهيل[4]، والصَّبا هي الريح الشرقية ويقال لها: القَبول، تَهبّ من مطلع الشمس، والدَّبور هي الريح الغربية، يابسة جافية ليس فيها نُدَوَّةٌ، وأفضل هذه الرياح في جميع الأزمان ريح الصَّبا، لها نسيم ورَوْح، وتَشويق إلى الأحباب والأوطان، وجلاء للهموم والأحزان"[5].

1- الجعماطي عبد السلام، دراسات، ص ص: 28-29.

2- الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، كتاب الأنواء في مواسم العرب، القاهرة: دار الكتب المصرية، ص: 158.

3- الغرناطي أبو حامد محمد بن عبد الرحيم بن سليمان المازني القيسي، المعرب عن بعض عجائب المغرب، وضع حواشيه: محمد أمين ضنّاوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1999، ص: 113.

4- **السُّهَيْلُ**: كوكب مطلعه من الجنوب ويعرف بالسُّهيْل اليماني. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 2135.

5- الكلبي أبو الخطّاب عمر بن حسن بن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي، مر: طه حسين، بيروت: دار العلم للجميع، ص ص: 228-229.

وقد ركّز بعض أهل العلم على الحديث عن العلاقة الوطيدة بين مختلف أنواع الرياح والأنشطة البشرية المرتبطة بها، بما في ذلك الملاحة البحرية، مثل تِبيان استغلالها كقوّة دافعة للسفن، كما استدلّوا بها على الجهات[1]، ولكلّ ريح من هذه الرياح صفة تميّزها، فصفة ريح الجنوب أنّها إذا هبّت فقوّتها في العلوّ والهواء أكثر، لأنّها موكلة بالسحاب وتُحرِّك الأغصان ورؤوس البحار، وهي تولّف الغيم في السماء وتطرده متراكما مسجونا، وما اشتدّ هبوبها إلّا ووقع المطر، وهي تُهيِّج البحر وتظهر كل نَداء في الأرض كامن وتتناسل بالشمال وتلقّح الأشجار[2]، ونفهم من خلال ذلك أنّ لريح الجنوب تأثير كبير على الملاحة البحرية، وقد تتسبب في توقّف حركة السفن، لأنّها تُهيّج البحر وتجلب الغيم وينزل المطر مع اشتداد هبوبها، فهي ريح تسبّب العواصف، ولذلك فإنّ أوقات هبوبها ليست مناسبة للملاحة، حيث تصبح السفن عرضة للغرق أو التحطّم والعطب.

أمّا عن صفة ريح الشمال فإنّها تَقشع الغيم وتجيئ بالبرد، وتُمسك الثرى وتُصاحب الضباب، فتصبح الأرض عنها كأنّها ممطورة وتصبح الغصون تَنْطف، فإذا ارتفعت الشمس ذهب النّدى وتقطّع الضباب، والشمال أدْوَم الرياح في الشتاء والصيف، وبردها في الشتاء أشدّ من هبوبها، ويُرى لها بردا شديدا والنّهار مُصبحٌ والشمس ساطعة، وتسمّى ريح الشمال مَخْوَة لأنّها تمحو السحاب وتَقطعه[3]، وبخصوص تأثيرها على الملاحة البحرية فنرى أنّها تؤثّر سلبا عليها في بعض الأحيان، لأنّها تسبّب الضباب الذي يمكن أن يعرّض السفن للتّيه، خاصة إذا ابتعدت عن السّاحل وأثناء الليل.

وصفة ريح الدّبور أنّ قوّتها في الأرض أشدّ من قوّتها في الهواء، فإذا هبّت تثير الغبار وتكسح الأرض وترفع الذيول وتضرب الأقدام، وأشدّ ما تثير التراب[4]، وقد اعتمد البحّارة على الريح الغربية في الإبحار، خصوصا تلك الرحلات المتوجّهة نحو المشرق، لكن هذه الريح تتسبّب في

1- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة، ص: 30.
2- أبو حامد الغرناطي، المعرب، ص ص: 114-115.
3- ابن قتيبة، كتاب الأنواء، ص: 162؛ أبو حامد الغرناطي، المصدر السابق، ص ص: 117، 119.
4- أبو حامد الغرناطي، المصدر السابق، ص: 120.

كثير من الأحيان في عطب المراكب خصوصا عند اشتداد هبوبها، وهو ما يذكره ابن جبير خلال رحلته، حيث تسببت الريح الغربية في تحطيم صاري السفينة التي كان على متنها[1].

أمّا الصَّبا فهي ريح معها رَوْح وخفّة ونسيم، ولا تهبّ إلا بالليل، وسلطانها إذا أظلم الليل إلى أن يستقرّ النهار وتطلع الشمس، وأشدّ ما تكون في وقت الأسحار وما بين الأسحار وما بين الفجريين، وهي تُلقّح الشجر[2]، ونرى أنّ ريح الصَّبا هي الأمثل للملاحة وحركة السفن، فهي أكبر طاقة محرّكة للسفن الشراعية وإجراء السفن الثقيلة وقطع المسافات الطويلة بمدّة يسيرة، وحسب البحّارة والملّاحين فإنّ أطيَب أوقات الملاحة في البحر المتوسط كانت تبتدئ مع هبوب الرياح الشرقية خلال فصل الربيع، ما بين أواسط أفريل وأواخر شهر ماي[3]، ولا تصلح الملاحة في بعض جهات البحر المتوسط إلّا بهبوب الريح الشرقية، فهي "لا تهبّ فيها إلّا في فصلي الربيع والخريف ...والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل، وفيه تتحرّك الريح الشرقية وتطول مدّتها إلى آخر شهر مايه... والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر، وفيه تتحرّك الريح الشرقية، ومدّتها أقصر من المدّة الربيعية، وإنّما هي عندهم خُلْسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوما وأكثر وأقل، وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف"[4]، لذا فقد كان البحّارة ينتظرون هبوب هذه الرياح للشروع في رحلاتهم البحرية.

كما استرشد بحّارة الغرب الإسلامي بالرياح في معرفة الأوقات المناسبة للملاحة البحرية، وقد أطلق مصطلح "الطَّارُوس" على كل ريح تُسعف في الإبحار، ويُقال طاروس جيّد لما كان من الرياح مساعدا على سرعة سير السفن والمراكب الشراعية[5]، حيث يذكر الإدريسي أنّ ما ساعد الفتية المغرّرين على التوغّل في المحيط الأطلسي هو إبحارهم "في أوّل طاروس الريح الشرقية"[6].

1- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: 285.
2- أبو حامد الغرناطي، المعرب، ص ص: 120-121.
3- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة، ص: 34.
4- ابن جبير، المصدر السابق، ص: 284.
5- الجعماطي عبد السلام، دراسات، ص: 31.
6- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 184.

ب-الأوقات المناسبة للملاحة:

استفاد ملّاحة الغرب الإسلامي من تلك المعرفة بهبوب الرياح، في حركة تنقلاتهم البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، فكانت الرياح متنوّعة وحسب الفصول، ففي فصل الصيف تكون الريّاح في شمال البحر المتوسط شمالية غربية وشمالية، وتكون في جنوبه من شمالية شرقية إلى شرقية[1]، أمّا في الشتاء فالظروف الجوّية تختلف عن فصل الصيف، كما أنّ الريّاح تتأثّر بذلك لا محالة بسبب وقوع البحر المتوسط تحت تأثير الرياح الغربية، التي تتميّز بهبوب ريّاح إعصاريّة، فتكون الرياح في جنوب المتوسط غربية وفي الشمال شمالية، وشمالية غربية في الغرب، وشمالية شرقية في الشرق[2].

وتتأثّر الأندلس كثيرا بحركة الريّاح خصوصا في فصل الشتاء بما أنّها شبه جزيرة يحيط بها البحر من عدّة نواح، وهذا ما يؤكّده المقّري في قوله أنّ الأندلس الشرقي "يُمطر بالريح الشرقية ويصلح عليها، والأندلس الغربي يُمطر بالريح الغربية وبها صلاحه، ...وذلك أنّه مهما استحكمت الريح الغربية كثر مطر الأندلس الغربي وقَحِط الأندلس الشرقي، ومتى استحكمت الريح الشرقية مُطِر الأندلس الشرقي وقَحِط الغربي"[3].

ويمكننا بذلك حصر زمن الملاحة بمختلف أجزاء البحر المتوسّط خلال الفترة الممتدّة ما بين فصلي الربيع والصيف، وتوقّف نشاطها بصفة عامّة في فصلي الخريف والشّتاء، وهذا ما نستشفّه من خلال رواية البكري حول البحّارة الأندلسيين الذين كانوا يَشْتُون في مرسى تنس إذا سافروا من الأندلس، وعند دخول الربيع فإنّهم يركبون مراكبهم[4]، إذن فقد كان للظروف المناخية وحركة الريّاح وتنوّعها دور كبير في تنظيم حركة السفن والمراكب التي كانت تجوب الحوض الغربي للمتوسط، وقد استغلّ بحّارة الغرب الإسلامي حركة الريّاح وتنوّعها في تنظيم حركة السفن وتنقّلها بين موانئ الأندلس والمغرب الأوسط.

1- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص: 36.
2 -الجبوري خليل خلف، المرجع نفسه، ص: 36-38.
3- المقّري، نفح الطيب، ج1، ص: 132.
4- البكري، المغرب، ص: 147.

المبحث الثالث: قياس المسافات البحرية بين موانئ العدوتين

تمهيد:

استخدم بحارة الغرب الإسلامي المدة الزمنية للدلالة على المسافة البحرية، وكانت هذه المسافة تحدد من قبل الملاحين بالمَجْرَى البحري، وفي تقديره خلاف بين القدامى والمحدثين[1]، فالمجرى حسب الإدريسي هو مسافة مائة ميل[2] وأربعة أميال (104)[3]، ويقدّره الحميري وابن جبير بمسافة مائة ميل[4]، في حين يعادل عند أبي حامد الغرناطي مائة وخمسين ميلا، فالمجرى البحري يقدر تبعا له بخمسين فرسخا [5]، هذا إذا اعتبرنا أن الفرسخ[6] الواحد يعادل ثلاثة أميال حسب ما ذكره الزهري[7]، أمّا أبوا الفدا فيعطينا تعريفا عاما للمجرى على أنّه "ما يقطعه المركب في يوم وليلة بالريح الطيبة"[8].

ويعرّف المجرى البحري كذلك بالمسافة التي تقطعها السفينة الشراعية في البحر خلال مدة يوم، وهذه المسافة تتراوح ما بين 40 و50 كلم، إلّا أنّ كتب الجغرافيا والرحلات بالغرب الإسلامي، تقدّر المجرى البحري بما يعادل أو يفوق أربعة أضعاف هذه المسافة لدى معظم الجغرافيين والرحّالة المسلمين[9]، وعلى العموم يرجع هذا الخلاف في تحديد مسافة المجرى البحري

1- الجعماطي عبد السلام، النقل والمواصلات، ص: 239.

2- يقدر الميل بمسافة 1453 متر. ينظر: رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص: 149.

3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 257.

4- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 198. محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تح وتق: علي كنعان، سوريا: مركز تحقيقات كامبيوتري علوم اسلامي، ط1، 2008، ص: 20.

5- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ البحرية، ص: 81.

6- يقال إنّ الفرسخ الواحد يعادل مسافة ستة أميال، ويقدر بحوالي 5250 مترا. ينظر: بورويبة رشيد، المرجع السابق، ص: 149؛ طويل طاهر، المدينة الإسلامية، ص: 203.

7- الزهري، الجعرافية، ص: 3.

8- أبو الفدا، تقويم البلدان، ص: 19.

9- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ البحرية، ص: 81.

حسب الإدريسي في قوله: "إنّما يكون بحسب جري المراكب وسلس قطعها وقوة الريح أو ضعفها"[1].

1-المسافات البحرية بين بعض موانئ المغرب الأوسط والأندلس:

قدّم لنا الجغرافيون المسلمون وصفا مفصّلا لموانئ الغرب الإسلامي والمسافات التي تفصل بينها، وكذلك مراسي العدوة المغربية وما يقابلها من مراسي العدوة الأندلسية، محدّدين في ذلك المسافات البحرية بين مراسي العدوتين، وحسب المصادر التي في أيدينا فقد كان الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري السبّاق في ذلك، ليسير على نهجه من بعده مجموعة من جغرافيّي الغرب الإسلامي الذين أتوا بعده، على غرار الإدريسي والحميري وصاحب كتاب الاستبصار وابن سعيد المغربي.

يذكر لنا البكري بعض مراسي المغرب الأوسط وما يقابلها من مراسي الأندلس، فأوّل مرسى من مراسي المغرب الأوسط يذكره هو مرسى ترنانة الذي يحاذيه من بر الأندلس مرسى مريّة بجانة، ويليه مرسى مدينة أرشقول الذي يقابله من بر الأندلس مرسى قابطة بني أسود والمسافة بينهما مجريان[2]، ويضيف ابن سعيد المغربي أنّ مرسى أرشقول يقابل من بر الأندلس مدينة المرية وعرض البحر بينهما درجتان[3]، ويليه إلى الشرق مرسى أسلن، ويقابله من برّ الأندلس مرسى الراهب بينهما مجريان وثلث، ويليه مرسى جبل وهران، ويقابله من بر الأندلس مرسى أشكوبرش، بينهما مجريان ونصف[4].

ويذكر الإدريسي أنّ مدينة وهران تقابل مدينة المرية من ساحل بحر الأندلس وأنّ سعة البحر بينهما مجريان[5]، ويلي مرسى وهران إلى الشرق مرسى عين فرّوج، ويقابله من بر الأندلس مرسى آقلة، وهو مرسى مدينة لورقة وبينهما ثلاث مجار، ويليه إلى الشرق مرسى قصر الفلوس، ويوازيه من برّ الأندلس مرسى قرطاجنّة، ويليه مرسى مغيلة بني هاشم، ويقابله من بر الأندلس

1- الإدريسي، نزهة المشتاق، مج 2، ص: 640.
2- البكري، المغرب، ص: 170.
3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 140.
4- البكري، المصدر السابق، ص: 170.
5- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 252، 257.

مرسى قبطيل تدمير[1]، ويليه مرسى مدينة مستغانم وعرض البحر هناك بين مستغانم إلى ساحل دانية من الأندلس نحو ثلاث مجار ونصف[2]، ويلي مرسى مستغانم مرسى تَنس الذي يقابله من بر الأندلس مرسى شنتبول، ويلي مرسى تنس إلى الشرق مرسى جزيرة وقور، الذي يقابله من برّ الأندلس مرسى لقنت بينهما خمس مجار، ثم مرسى شرشال الذي يقابله من بر الأندلس مرسى مريرة، بينهما خمس مجار ونصف[3]، بينما يذكر صاحب كتاب الاستبصار أنّ مرسى مدينة شرشال يقابل من بر الأندلس مرسى لقنت[4].

ويلي مرسى شرشال مرسى البطال الذي يقابله من بر الأندلس جبل القرون بينهما خمس مجار ونصف، ثم مرسى جنّابية الذي يقابله من بر الأندلس مرسى دانية وبينهما ست مجار[5]، ونفس المعلومة نجدها عند صاحب كتاب الاستبصار حول مرسى جنّابية الذي يسميه "لغانية"[6]، ويلي مرسى جنابية مرسى جزائر بني مزغنة الذي يقابله من بر الأندلس مرسى بنشكلة بينهما ست مجار[7]، ويسمّي صاحب كتاب الاستبصار مرسى بنشكلة بمرسى شكلة[8]، ويلي مرسى الجزائر من المراسي المشهورة مرسى الدجاج الذي يقابله من جزائر الأندلس جزيرة ميورقة، ثم يضيف البكري أنّ بقية مراسي المغرب الأوسط الشرقية قد خرجت عن محاذاة جزيرة الأندلس[9]، ويزيد ابن سعيد المغربي على قول البكري أنّ عرض البحر عند بجاية إلى جهة طرطوشة من الأندلس ثلاث مجار، وأنّ مرسى الخرز يقابل جزيرة سردانية[10].

1- البكري، المغرب، ص ص: 170-171.
2- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 141.
3- البكري، المصدر السابق، ص: 171.
4- مجهول، الاستبصار، ص: 132.
5- البكري، المصدر السابق، ص: 171.
6- مجهول، المصدر السابق، ص: 132.
7- البكري، المصدر السابق، ص: 171.
8- مجهول، المصدر السابق، ص: 132.
9- البكري، المصدر السابق، ص ص: 170-171.
10- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص ص: 142-143.

2-المسافات البحرية بين مراسي المغرب الأوسط:

أمّا المسافات البحرية بين مراسي المغرب الأوسط من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية، فقد حدّدها الجغرافيون كل حسب القرن الذي عاش فيه، فأساليب قياس المسافات والمعدّات المستعملة تختلف من زمن إلى زمن، كما يجب أن نضع في الحسبان أنّه في الفترة قيد البحث والممتدة من القرن الثالث إلى السادس للهجرة قد تمّ اتخاذ مراس جديدة، وفي المقابل اندثرت مراس وموانئ أخرى لأسباب عديدة، فمثلا البكري يذكر مراس لا يذكرها الإدريسي والعكس، هذا إذا علمنا أنّ الفترة الزمنية بينهما تقارب قرنا من الزمن، كما أنّ الإدريسي يفصّل أكثر في وصفه للسواحل والمسافات البحرية بينها، فهو لا يكتفي بذكر المراسي فحسب، بل يذكر حتى التضاريس الساحلية من أطراف وأجوان[1] وخلجان ورؤوس، والمسافة التي ينبغي على السفن قطعها من مرسى لآخر بالأميال تقويرا وروسية.

يذكر البكري أنّ المسافة من مرسى ترنانا إلى مرسى ماسين عشرة أميال، ومنه إلى هنين ثلاثة عشر ميلا[2]، ومن هنين على الساحل إلى مرسى الوردانية ستة أميال، ومن مرسى الوردانية إلى أرشقول سبعة أميال، ويلي أرشقول إلى جهة الشرق مدينة أسلن بينهما ستة أميال[3]، وأدنى المراسي من مرسى أسلن إلى الشرق مرسى الماء المدفون بينهما ثلاثة عشر ميلا، ويليه مرسى وهران بينهما ستة أميال، ويلي مرسى وهران إلى الشرق مرسى عين فروج بينهما في البر أربعون ميلا، ويليه إلى الشرق دائما مرسى قصر الفلوس، ويليه مرسى مغيلة بني هاشم، بينه وبين قصر الفلوس خمسة وثلاثون ميلا، ويليه مرسى مدينة تنس[4].

ويحدّد لنا الإدريسي المسافة من مرسى وهران إلى مرسى تنس وعدد الأميال بينهما تقويرا وروسية بتفصيل أكثر، فيذكر أنّ المسافة من وهران إلى طرف مشانة روسية خمسة وعشرون ميلا وعلى التقوير اثنان وثلاثون ميلا، ومن طرف مشانة إلى مرسى أرزاو ثمانية عشر ميلا، ومنها إلى مستغانم على البحر مع الجون أربعة وثلاثون ميلا تقويرا وروسية أربعة وعشرون ميلا، ومن مستغانم

1- **أَجْوان**: مفردها: جُون، وهو الخليج الصغير. ينظر: حسن أميلي، المعجم البحري والملاحي، ص ص: 12، 24.

2- البكري، المغرب، ص: 167.

3- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 172.

4- البكري، المصدر السابق، ص ص: 170-171.

إلى حوض فروح تقويرا أربعة وعشرون ميلا وروسية خمسة عشر ميلا، ومن حوض فروح إلى طرف جوج وهو أنف خارج في البحر تقويرا أربعة وعشرون ميلا، ومن هذا الطرف تأخذ جونا إلى جهة الجنوب فمن هذا الطرف مع الجون إلى جزائر الحمام أربعة وعشرون ميلا تقويرا وثمانية عشر ميلا روسية، ومن جزائر الحمام إلى مصب وادي شلف اثنان وعشرون ميلا، ومنه إلى مدينة تنس أربعة وعشرون ميلا مع الجون، ومنها إلى طرف الجون ستة أميال، فذلك من طرف جوج إلى طرف الجون تقويرا ستة وستون ميلا وروسية أربعون ميلا[1].

ويلي مرسى تنس إلى الشرق مرسى جزيرة وقور بينهما أزيد من عشرين ميلا، ومنه إلى مرسى شرشال ثم إلى مرسى البطال، ثم إلى مرسى هور ومنه إلى أنف القناطر، ومنه إلى مرسى الذبّان، ويليه مرسى جنابية، ويليه مرسى جزائر بني مزغنّى[2]، أمّا المسافة من مرسى تنس إلى مرسى جزائر بني مزغنة بالتقوير والروسية فهي كما يذكر الإدريسي، فمن الطرف إلى مرسى امتكوا عشرة أميال ومن امتكوا طالعا في الجون إلى مرسى وقور تقويرا أربعون ميلا، وروسية ثلاثون ميلا، ومن وقور إلى برشك عشرون ميلا، ومن برشك إلى شرشال على البحر عشرون ميلا، ومن شرشال إلى طرف البطال ابتداء جونٍ، وهذا الجون يُقطع روسية أربعين ميلا وتقويره ستون ميلا، ومنه إلى جزائر بني مزغنة ثمانية عشر ميلا[3].

ويلي مرسى جزائر بني مزغنة من المراسي المشهورة مرسى الدجاج، وبالقرب منها مرسى مدينة بجاية، ثم مرسى جيجل، ومنه إلى مرسى الزيتونة ومنه إلى مرسى أستورة وهو مرسى مدينة تاسقدة، ثم إلى مرسى الروم، ثم إلى مرسى تكوش، ثم إلى رأس الحمراء، ثم مرسى ابن الألبيري، ثم إلى مرسى الخروبة، ثم إلى مرسى منيع وهو مرسى بونة ثم إلى مدينة مرسى الخرز[4]. ونلاحظ هنا أنّ البكري يذكر لنا المراسي التي تلي مرسى مدينة الجزائر لكنّه لم يذكر المسافات بينها كما في السابق، وذلك ربما يرجع إلى عدم توفر معلومات كافية لديه، بينما نجد أنّ الإدريسي قد حدّد تلك المسافات سواء بالإبحار على طريقة التقوير أو الروسية، بالميل أو الفرسخ، وهذا لأنّه زار المنطقة وشاهدها عيانا، فيذكر أنّ من جزائر بني مزغنة إلى تامدفوس ثمانية عشر ميلا، ومنه إلى

1- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 271-272.
2- البكري، المغرب، ص: 171.
3- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 272-273.
4- البكري، المصدر السابق، ص ص: 171 -173.

مرسى الدجاج عشرون ميلا، ومنه إلى طرف بني جناد وهو أنف يدخل البحر اثنا عشر ميلا، ومن طرف بني جناد إلى مدينة تدلس اثنا عشر ميلا[1]، وبذلك تكون المسافة بين جزائر بني مزغنة وتدلس هي اثنان وستون ميلا كما حددها الإدريسي، بينما نجد أنّ ابن سعيد المغربي قد حددها بمسافة خمسين ميلا في قوله: "وفي شرقيها تدلس على خمسين ميلا منها"[2].

والمسافة من تدلس إلى بجاية مئة وتسعة أميال في البحر، بينهما مراس لطاف، ومن بجاية إلى متّوسة اثنا عشر ميلا على التقوير وروسية ثمانية أميال، ومن متوسة إلى فج الزرزور روسية خمسة وعشرون ميلا ومن فج الزرزور إلى جيجل على التقوير عشرون ميلا، ومن جيجل إلى مرسى الزيتونة على التقوير خمسون ميلا وروسية أربعون ميلا، ومنها إلى القل[3]، ويحدد ابن سعيد المسافة مباشرة من بجاية إلى القل بأربعين ميلا[4]، ثم من القل إلى مرسى أستورة عشرون ميلا، ومن أستورة إلى تكوش ثمانية وأربعون ميلا تقويرا وروسية ستة وثلاثون ميلا، ومن تكوش إلى بونة في قاع الجون أربعة وعشرون ميلا، فمن بجاية إلى بونة روسية مائتا ميل، ومن بونة إلى مرسى الخرز ستة وأربعون ميلا[5].

وفي الأخير نستنتج أنّ الموقع الجغرافي المتميّز لكلّ من المغرب الأوسط والأندلس قد ساهم في ربط الإقليمين بحريا، فنظرا لتواجدهما ضمن المجال البحري للبحر الأبيض المتوسط، واحتوائهما على مجموعة من الموانئ، أصبحت سبل التنقل والتواصل ميسّرة لسكان الإقليمين، وبالتالي أضحى الجزء الجنوبي الغربي من البحر المتوسط يشهد حركة ملاحية نشطة، ويرجع الفضل في ذلك إلى البحريين الأندلسيين.

1- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 273.
2- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 142.
3- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 273-274.
4- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 142.
5- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 271-275، 299.

الفصل الثاني:

الحياة التجارية ومقوماتها بالمغرب الأوسط والأندلس

المبحث الأول: مقومات الحياة التجارية بالمغرب الأوسط

1-الموارد الزراعية والحيوانية

أ-الموارد الزراعية

ب-الموارد الحيوانية

2-الثروة المعدنية

3-الصناعة

المبحث الثاني: مقومات الحياة التجارية بالأندلس

1-الفلاحة

2-الموارد المعدنية

3-الصناعة

تمهيد:

ساهمت عوامل عدّة في ازدهار الحياة الاقتصادية والتجارية بالمغرب الأوسط وبالأندلس، حيث كان لكلا الإقليمين موارده الطبيعية ومنتجاته الزراعية والصناعية، وكان لهذا التنوّع في الموارد والمنتجات أثر كبير في دفع عجلة الاقتصاد، وبالتالي انتعاش الحياة التجارية، التي ستشهد تطوّرا ملحوظا خلال الفترة الممتدّة ما بين القرن 3هـ/9م إلى غاية القرن 6هـ/12م.

المبحث الأول: مقوّمات الحياة التجارية بالمغرب الأوسط

تحتوي بلاد المغرب الأوسط على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة والقابلة للزراعة، وقد عمل سكّانها على تطوير الزراعة بها، فأصبحت بذلك من أهم مجالات الحياة، وكان النشاط الزراعي في مجمله مزدهرا رغم اختلافه من منطقة لأخرى، لاختلاف الظروف الجغرافية والمناخية، وممّا ساعد على ازدهارها وجود الكثير من الموارد المائية المختلفة، إضافة إلى توفّرها على ثروة حيوانية معتبرة والمتمثلة في الخيل والغنم والبقر والإبل، فكانت مصدر دخل للعديد من الأفراد والقبائل من خلال حرفة الرعي، والاستفادة من لحومها وصوفها وألبانها، ونرى أنّ الجغرافيين الذين وصفوا بلاد المغرب الأوسط ركّزوا كثيرا على الجانب الاقتصادي خاصة الزراعة، فكلّما ذكروا إحدى مدنها وصفوا اقتصادها وزراعتها ومواردها وثرواتها إن وجدت.

1-الموارد الزراعية والحيوانية:

1/1-الموارد الزراعية:

شكّلت الزراعة أحد أهم القطاعات التي قام عليها الاقتصاد في المغرب الأوسط، وتطوّرت بفعل إحياء الأراضي الموات واستصلاحها واستنباط المياه الجوفية، وإقامة المنشآت المائية على الينابيع والأنهار ومدّ قنوات الرّي، وقد ساعدت طبيعة بلاد المغرب الأوسط نفسها على هذا الازدهار فهي معروفة بخصوبة تربتها وتنوعها بحيث تناسب مختلف أنواع المزروعات، أضف إلى هذا وقوعها في المنطقة المعتدلة الدافئة وأنّ أمطارها هي أمطار حوض البحر الأبيض المتوسط[1].

1- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاقتصادية، ص: 26.

وتعتبر التربة الأساس الذي تَنْبَني عليه العملية الزراعية، لأنّها المجال البيئي الذي تنبت فيه البذور وتمدّ جذورها، ويؤدي اختلاف العوامل المُشكّلة للتربة، إضافة إلى نوع الصخور الأصلية المكوّنة لها، إلى اختلاف الصفات التي تتميّز بها بعض أنواعها عن بعضها الآخر، وقد تضمّنت المصادر بعض المعلومات المفيدة عن التربة بالغرب الإسلامي، لكنّها ركّزت في غالب الأحيان على لونها وجودتها أو رداءتها[1]، وقد حصرت بعض كتب الفلاحة التربة في عدّة أنواع منها الأرض السوداء والحمراء والبيضاء والصفراء، ومنها الأرض الحارة والرطبة واليابسة، ومنها الأرض الرملية، وأجود هذه الأرضين الأرض السوداء وذلك لأنّها تتحمل كثرة الأمطار[2].

وقد ساعدت الأحوال المناخية كذلك على ازدهار الزراعة وكثرة المنتوجات وتنوّعها، فبلاد المغرب الأوسط تحتوي على عدد من النطاقات المناخية المتنوعة، فالمناطق الساحلية وخاصة الشرقية منها تتميز بمناخ معتدل ورطب وتساقط معتبر للأمطار، والمناطق الداخلية تتميز بمناخ شبه جاف وتذبذب في تساقط الأمطار، أمّا المناطق الصحراوية فتتميّز بمناخ حار وجاف وندرة في تساقط الأمطار[3]، وقد ساهم هذا التنوع المناخي في تنوع المنتوجات الزراعية من منطقة إلى أخرى، فالأمطار إذن هي المصدر الرئيسي الذي يزوّد كل أشكال الموارد المائية، وهي العامل الأساسي للنشاط الزراعي الذي يعتمد على مياه الأمطار بشكل شبه تام، إضافة إلى مصادر المياه الأخرى كالأنهار والآبار والعيون، فأغلب المدن والقرى بالمغرب الأوسط بنيت قرب نهر أو آبار أو عيون منها شرب أهلها وسقيا بساتينهم، فمن شروط اختطاط المدن أن يكون بجانب موقعها مصدر للمياه كالأنهار والآبار والعيون، وذلك نظرا لأهمية الماء وحاجة الناس إليه.

تزخر المؤلفات الجغرافية والتاريخية وكذلك كتب النوازل والفلاحة؛ بالعديد من الأوصاف التي تصوّر لنا الحياة الزراعية في المغرب الأوسط، وقد ركّز الجغرافيون على ذكر المنتوجات الزراعية

1-هواري موسى، تقنيات الزراعة ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين (من ق1هـ-7م إلى القرن 7هـ -13م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، 2016/2015، ص ص: 22-23.

2-ابن العوام الإشبيلي أبو زكريا يحي بن محمد بن أحمد، الفلاحة الأندلسية، ج1، تح: أنور أبو سويلم وآخرون، عمّان: منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط1، 2012، ص ص: 323، 330.

3- لعروق محمد الهادي وبوريمة سمير، أطلس الجزائر والعالم، الجزائر: دار الهدى، ص: 18.

للمناطق التي وصفوها، باعتبار أنّ لكلّ منطقة منتوجاتها الزراعية الخاصة بها، ومن أهمّ مزروعات المغرب الأوسط:

أ-الحبوب:

هي أوّل وأهمّ المزروعات في المغرب الأوسط باعتبارها الغذاء الرئيسي لسكّانه لاسيما القمح والشعير، وقد كانت الحبوب تزرع في المغرب الأوسط كلّه وبالأخص في نواحي قسنطينة وقلعة بني حماد وباغاي وطبنة وبونة وجيجل وسطيف وبجاية والجزائر ومتيجة وشرشال وبرشك[1]، وقد كثر إنتاج القمح والشعير في بونة التي تميّزت بجودة مزارعها وخصوبة أراضيها، فكان يزرع فيها القمح والشعير فيُنتج منه ما يزيد عن حاجات سكانها ويصدّر بذلك إلى البلاد المجاورة لها[2]، وبقسنطينة مزارع الحنطة والشعير كثيرة ممتدّة، وكانت أكثر غلّات سكان مدينة باغاي "الحنطة والشعير"[3]، وبمدينة برشك ينتج من الزرع والحنطة والشعير ما يزيد عن حاجتهم[4]، وبالقرب من مدينة أرشقول كان يزرع القمح في فحص زيدور فينتج منه الخير الكثير، وهو فحص مبارك مشهور البركة[5]، وكانت أكثر غلّات مدينة قصر الفلوس القمح والشعير[6]، وكان سكان مدينة باديس يزرعون في مزارع لهم "الشعير مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة عندهم"[7].

إذن فقد كان يُنتج ببلاد المغرب الأوسط الكثير من القمح والشعير ما يزيد عن حاجات سكانها، ولذلك كان يُحمل الفائض عن الحاجة منه إلى البلاد المجاورة لها، فكانت الحنطة تجلب إلى مدينة أرزاو فيسير بها التجار ويحملونها إلى كثير من البلاد، أمّا سكان المغرب الأوسط فكانوا يخزّنون محصولهم من الحنطة في المطامر حيث يذكر الإدريسي أنّ بمدينة قسنطينة[8] مطامر منقورة في

1- بورويبة رشيد ، الدولة الحمادية، ص: 129.

2- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.

3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 266، 277.

4- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 78.

5- مجهول، الاستبصار، ص: 134.

6 ابن حوقل، المصدر السابق، ص ص: 78-79.

7- البكري، المغرب، ص: 162.

8-**قسنطينة:** مدينة قديمة كبيرة آهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف أحصن منها، تحيط بها الأنهار بنيت عليها مجموعة من القناطر. ينظر: البكري، المصدر نفسه، ص: 148.

حجر صلد تبقى فيها الحنطة مائة سنة لا تفسد لبرودتها واعتدال هوائها، وكذلك فقد كان سكّان قلعة بني حماد يخزّنون الحنطة في المطامر فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير[1]، وقد عُثر في حفريات بقلعة بني حماد على مطامير كثيرة محفورة في صحن دار قريبة من قصر السلام[2].

ب-الفواكه والخضر:

ركّزت كتب الجغرافيين والرحالة على ذكر مواقع المدن وعمرانها، وكثيرا ما ذكرت تواجد البساتين بأحواز تلك المدن أو خارج أسوارها أو في قرى قريبة منها، وقد كانت تلك البساتين تخصّص لزراعة ضروب مختلفة من الأشجار المثمرة ومن الخضر المتنوعة، ولعلّ من أشهرها أشجار الزيتون التي غرست في المنطقة منذ القدم، وقد تواجدت بساتين الزيتون بكثرة خاصة في مدينتي بسكرة وبنطيوس[3]، إضافة إلى أشجار التين والكروم والسفرجل والتفاح والجوز، فكان تين مدينة جزائر بني مزغنّى يُجلب إلى القيروان وغيرها[4]، ومن مرسى الدجاج يُحمل التين شرائح طوبا ومنثورا إلى سائر الأقطار، وببجاية التين وسائر الفواكه ما يكفي لكثير من البلاد[5]، إضافة إلى العنب المتواجد بكثرة خاصة في كل من القل وجيجل وبرشك وبسكرة وبنطيوس وطولقة وتهوذا[6]، ويذكر البكري أنّه بمدينة الغدير يباع قنطار العنب بدرهم واحد[7].

كما اشتهرت عدّة مدن من المغرب الأوسط بفاكهة السفرجل، وكثيرا ما أبدى الجغرافيون إعجابهم بسفرجل المغرب الأوسط فابن حوقل يصف سفرجل مدينة برشك بأنّه سفرجل معنّق كالقرع الصغار وهو طريف، وبمدينة تنس الفواكه الكثيرة والسفرجل المعنّق التي يتميّز بحسنه

1- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 265، 271، 261.
2- بورويبة رشيد، الدولة الحمادية، ص: 130.
3- البكري، المغرب، ص ص: 136،158.
4- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.
5- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 259-260.
6- مجهول، الاستبصار، ص ص: 127-128؛ البكري، المصدر السابق، ص ص: 158-159؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 77.
7- البكري، المصدر السابق، ص: 145.

وحلاوته وطيب رائحته[1]، ويقول البكري عن سفرجل مدينة تيهرت "وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما وشمّا، ويسمّى الفارسي"[2]، بينما يصف الإدريسي سفرجل مدينة شرشال بأنّه "سفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار"[3]، إضافة إلى فواكه أخرى كالتفاح الذي يغرس بمدينتي القل وجيجل[4]، والجوز الذي يكثر بتلمسان وبمدينة نقاوس حيث يُتجهز به إلى ما جاورهما من أقطار، وكذلك اشتهر حصن سطيف بغراسة الكثير من الأشجار المثمرة خاصة أشجار الجوز، الذي يتميّز بطيبه وحسنه، حيث يحمل الجوز من سطيف لكثرته إلى سائر الأقطار المجاورة[5]، أمّا أشجار النخيل فهي تكثر في المدن الصحراوية كبنطيوس وطوقلة وبسكرة التي يوجد فيها من التمر كل غريبة وطريفة، وفيها غابة كبيرة، مقدار ستة أميال فيها من أجناس التمور ما لا يحصى، منها جنس يعرفونه بالكسبا وهو الصيحاني وجنس يعرف باللّباري وأجناس كثيرة يطول ذكرها لا يعدل بها غيرها[6].

وبخصوص الخضر والبقول فيذكر الجغرافيون أنّها كانت موجودة حول المدن وفي البساتين، ولكنّهم في أغلب الأحيان لم يذكروا أسماء الأنواع المزروعة إلّا نوعا واحدا وهو البصل الذي يزرع بقرية بني وازلفن التي تقع قرب مدينة تنس[7].

ج-القطن والكتّان:

هما من المزروعات الصناعية التي يستفاد منها في صناعة النسيج والأقمشة، فكان الكتّان يزرع في بونة، وكان أهل المسيلة يزرعون الكتّان وهو عندهم كثير، وفي متيجة توجد مزارع للكتّان ومنها يُحمل إلى سائر الأقطار[8]، أمّا القطن فيزرع في العديد من المناطق بالمغرب الأوسط ففي

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص: 77-78.
2- البكري، المغرب، ص: 153.
3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 258.
4- مجهول، الاستبصار، ص ص: 127-128.
5- البكري، المغرب، ص: 164؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 265، 269.
6- البكري، المصدر نفسه، ص ص: 158-159؛ الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 258.
7- رشيد بورويبة، الدولة الحمادية، ص: 131؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص: 253.
8- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 77؛ البكري، المصدر السابق، ص: 150؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص: 263.

المسيلة يجود القطن وهو يزرع في مزارع بها، وكذلك يزرع القطن في أراضي مستغانم فيجود[1]، كما يزرع القطن أيضا في مدينة طُبنة[2]، وكان سكان مدينة ندرومة يزرعون القطن بكثرة وذلك لإنتاج أقمشة القطن[3].

2/1-الموارد الحيوانية:

كان الفلاحون بالمغرب الأوسط يربّون الغنم والبقر والخيل والبغال والإبل والنّحل، لما لها من منافع عديدة فكانت جلودها تستعمل لصناعة القِرَبِ، ويُستفاد من حليبها ولبنها ويصنعون منه الجبن ويستخرجون الزبدة، وكان يُستفاد من صوفها وشعرها وأوبارها في صناعة الملابس والخيام والأغطية، واستعملت الحيوانات للحمل والنقل والركوب وفي الأعمال الزراعية، والحروب وكانت تعتبر مالا فمنها المهر ومنها الدِّيّة[4]، وابن خلدون خير من وصف لنا الحياة العامّة بالمغرب في قوله الذي يصف فيه البربر: "هم سكان المغرب القديم ملؤوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتّخذون البيوت من الحجارة والطين والخوص والشجر ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العزّ منهم والغلبة لانتجاع المراعي... ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنّتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النُّجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة"[5].

ساعدت الظروف المناخية وتنوع التضاريس، وانتشار المراعي والكلأ على نطاق واسع في تربية المواشي[6] باختلاف أنواعها، ومن أهم الحيوانات في المغرب الأوسط:

1- البكري، المغرب، ص ص: 150، 155.

2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 263.

3- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 14.

4- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاقتصادية، ص: 65.

5- ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 116.

6-**الماشية**: جمعها المواشي وهي الإبل والغنم والبقر، وأكثر ما يُستعمل في الغنم. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 4212.

أ-الماشية:

نقصد بها البقر والغنم والماعز والإبل، فالأبقار كانت تربيتها تنتشر كثيرا في المناطق الساحلية والقريبة من الساحل لوفرة العشب الدائم واستواء السطح، حيث يذكر ابن حوقل أنّ أكثر سوائم مدينة بونة البقر، وأنّ لهم إقليم واسع وبادية وحَوزة بها نِتاج كثير، وذكر البكري أنّ بونة كثيرة اللحم وأكثر لحمانهم البقر[1]، كما اشتهرت جزائر بني مزغنّى بكثرة المواشي من البقر وغيرها[2]، ويذكر الإدريسي بأنّ البقر والغنم موجودة كثيرا في مدينة تدلّس وأنّها تباع بالأثمان اليسيرة ويخرج من أرضها إلى كثير من الآفاق، كما ذكر أنّ البقر والغنم كثيرة جدّا بمدينة تيهرت، فقد كان للإمام يعقوب بن أفلح الرستمي بقرات يأمر بحلبها بين يديه[3]، إضافة إلى تربيتها في كل من مدينتي المسيلة ووهران[4]، ويبدو أنّ الثيران كانت كثيرة بجبل أوراس، حتّى أنّ أبا يزيد مخلد بن كيداد[5] في إحدى معاركه مع أبي القاسم الفاطمي[6] قد لجأ إلى استعمال خمسمائة ثور في معركته تلك[7]، وكانت الأبقار تستغلّ في إنتاج الألبان والسمن واللحوم، كما كانت تستغل جلودها في صناعات عديدة، واستغلت الثيران في الزراعة والحرث والدّرس.

أمّا الغنم فهي كثيرة جدّا بالمغرب الأوسط خاصة في السهول الساحلية أين يوجد الكلأ والمراعي الواسعة، فيوجد في مرسى الدجاج من الغنم ما يُغرق غيرهم ممن يجاورهم، وبقصر الفلوس

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص: 77-78؛ البكري، المغرب، ص: 141.

2- ابن حوقل، المصدر نفسه، ص: 78؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 258.

3- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص: 98.

4- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 252-253، 256، 259.

5- **صاحب الحمار**: هو أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث الزناتي النكّاري، من زعماء الإباضية وأئمتهم، كان يغلب عليه الزهد والتقشّف، ولد في قسطيلية ، وخالط النكّارية، ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر فكثر أتباعه سنة 316هـ، ولمّا مات عبيد الله المهدي سنة 322هـ خرج بناحية جبل أوراس وتلقّب بشيخ المؤمنين، وقاتل العبيديين فعظم أمره إلى أن هزمه المنصور الفاطمي، توفي سنة 336هـ متأثرا بجراحه. ينظر: الزركلي، الأعلام، ج7، ص: 194.

6-**أبو القاسم الفاطمي**: هو محمد بن عبيد الله المهدي الملقب بالقائم بأمر الله، ولد بسَلَمِيَّة سنة 280هـ، ورحل مع أبيه إلى المغرب، وعهد إليه من بعده، وهو الحاكم الثاني للدولة الفاطمية الشيعية بالمغرب الإسلامي. ينظر: المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج1، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، 1996، ص: 74.

7- أبو زكريا، سير الأئمة، ص: 117.

وأسلن وأرشقول من الماشية الكثير الغزير[1]، ويذكر الإدريسي أنّ الغنم بوهران رخيصة لكثرتها، كما تكثر الأغنام في كلّ من مدينة المسيلة وتيهرت وشرشال وجزائر بني مزغنّى وبدلّس وجيجل[2]، وغيرها من المناطق، وتستغل الأغنام للحومها وصوفها.

وتوجد الإبل بكثرة في الصحراء وفي المناطق القريبة منها بصفة خاصة، وقد أدخل العرب الفاتحون أعدادا منها[3]، ممّا ساهم في كثرة أعدادها وتنوّع أجناسها حيث يقول ابن حوقل: "وعندهم من الجمال الكثيرة في براريّهم وسكّان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب"[4]، ويذكر الحسن الوزان أنّ الإبل تعدّ ثروة الأعراب وأرزاقهم، وأنّ إبل بلاد المغرب من أفضل أنواع الإبل إذ أنّها تستطيع حمل الأثقال مدّة أربعين أو خمسين يوما دون أن تستلزم علفا في المساء، وإنّما تنُزل عنها الأحمال وتُترك لترعى في البرية قليلا من العشب والشوك وأغصان الشجر[5]، وفي كتاب ابن الصغير المالكي إشارات على تواجد الإبل في تيهرت وذلك في قوله: "...وأهل الشاة والبعير يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يَظلمون ولا يُظلمون"[6]، وتربّى الإبل للحومها وألبانها ووبرها، كما اعتبرت أفضل وسيلة للسفر لمقدرتها على التنقل لمسافات بعيدة وكذلك تحمّلها التعب والجوع والعطش، كما تُستخدم في الحروب خاصة نوع منها يعرف بالمهاري والذي يتميّز بالرشاقة والخفّة وسرعة العدو، فيذكر ابن حمّاد أنّ أبا خرز الزناتي حين هزم الإمام أبو القاسم الفاطمي توغّل في الصحاري على المهاري حتى لا تتمكّن القوات الفاطمية من مطاردته[7].

ب-الخيل والبغال والحمير:

استغلّ سكان المغرب الأوسط هذه الحيوانات في التنقّل والحروب وفي مجالات عديدة، وتعتبر الخيل من أهمها لتعدّد استخداماتها أوقات السلم والحرب، فهي في السلم أداة مفضّلة

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص: 77-79.
2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 252-268.
3- مجهول، الاستبصار، ص ص: 113-114.
4- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 95.
5- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 259.
6- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 35.
7- ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح ودر: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، القاهرة: دار الصحوة للنشر، ص: 45.

للسفر والاحتمال والمباهاة، وفي زمن الحرب لا توجد وسيلة أفضل من الخيل لمجابهة العدو، وهناك أنواع من الخيول انتشرت في بلاد المغرب الأوسط منها الحصان البربري، الذي كان يعيش في التلال المرتفعة الشمالية، وهو حيوان صغير نوعا ما لكنّه قوي البنية شديد المراس[1]، وقد ذكر الحسن الوزان أنّ ببلاد المغرب بعض الخيول القصيرة المنتشرة في الجبال لا تصفّح حوافرها، وهي في غاية الخفّة بحيث تقفز كالقطط من الأعلى إلى الأسفل[2]، كذلك فقد أدخل العرب الفاتحون الخيول العربية إلى بلاد المغرب وتزايدت أعدادها بعد دخول الهلاليين الذين كانوا يكسبون الكثير منها، وقد كتب الوزير الفاطمي اليازوري[3] إلى الأمير المعز بن باديس الصنهاجي لمّا دفع بنو هلال إلى حرب صنهاجة: "أمّا بعد فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا، وأرسلنا عليها رجالا كهولا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا"[4].

اشتهرت عدّة مناطق من المغرب الأوسط بتربية الخيول، فكان لسكان جبل بني راشد نِتاج في الخيل معروف[5]، حيث يذكر ياقوت الحموي أنّ الخيل الراشدية لها فضل على سائر الخيل[6]، وبالمسيلة وبونة الخيل سائمة، وبتيهرت من نِتاج البراذين[7] والخيل كل حسن[8]، حيث يذكر ابن الصغير المالكي أنّه كان في عسكر الإمام عبد الوهاب ألف فرس أبلق[9]، وكانت له دار للدّواب مليئة بالخيول الخاصة به[10].

1- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 66.

2- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص: 110.

3- **اليازوري**: هو الوزير أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن، ولد في يازور من أعمال الرملة بفلسطين وإليها نسبته، دخل في خدمة السيدة رصد والدة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، ثم أخذ يتقدم في المناصب فعين قاضي القضاة، ثم عيّن وزيرا. ينظر: ابن الصيرفي أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان المصري، الإشارة إلى من نال الوزارة، تح وتع: عبد الله مخلص، القاهرة: مطبعة المعهد الفرنسي الخاص بالعادات الشرقية، 1924، ص ص: 40-41.

4- ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 20.

5- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 145.

6- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص: 44.

7- **البِرْذَوْنُ**: وجمعه بَرَاذِينٌ، والبراذين من الخيل: ما كان من غير نِتاج العرب. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 252.

8- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 254، 256؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.

9- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 46.

10- أبو زكريا الدرجيني، طبقات، ص: 70.

أمّا البغال فالمعلومات عنها قليلة جدّا، إلّا بعض الإشارات القليلة عنها في الكتب التاريخية والجغرافية، حيث أشار ابن حوقل إلى وجود البغال بكثرة في بلاد المغرب حتى أنّها كانت تصدّر إلى المشرق وذلك في قوله: "ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفُرْه والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص..."[1]، وقد ذكر ابن الصغير المالكي أنّ أبا العباس –صهر الإمام أفلح– أتى إلى القاضي على "بغلة له شهباء هَمْلاجَة"[2].

واختصت تربية الحمير بالفقراء من الناس والبسطاء، وربّما ارتبط الركوب عليها في كثير من الأحيان بالزهّاد والمتصوّفة، كما هو الحال عند أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي اشتهر بلقب "صاحب الحمار"، وذلك أنّ أبا يزيد أراد أن يظهر زهده وتقشّفه فلبس الصوف وركب حمارا أشهبا كان قد أهداه له رجل من أهل مَرْمَاجَنَّة[3]، واستعملت الحمير للركوب والحمل والنقل في فترات السلم والحرب.

ج-تربية النّحل:

اهتمّ سكان المغرب الأوسط بتربية النّحل وإنتاج العسل، فيذكر ابن حوقل أنّ بمدينة بونة من العسل والخير والمير ما تزيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها، ولأهل جزائر بني مزغنّى من العسل ما يُجهّز عنهم، وأضاف أنّ بمدينة برشك بادية أهلها يَشتارون العسل من الشجر والأجباح لكثرة النّحل بالبلد[4]، ويذكر الإدريسي أنّ أهل تيهرت يكثر عندهم العسل، وفي قسنطينة من العسل ما يُتجهز به منها إلى سائر البلاد، ويكثر العسل كذلك في كل من شرشال وجيجل ومازونة[5].

وللعسل استعمالات كثيرة فهو يدخل في صناعة الحلويات، وفي علاج بعض الأمراض مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 95.
2 ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص: 51.
3- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م7، ص: 189.
4- ابن حوقل، المصدر السابق، ص ص: 77-78.
5- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 256، 258، 265، 268، 272.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وكذلك كان يصنع منه النبيذ، حيث يقول ابن حوقل إنّ العاملين في مرسى الخرز يَنتبذون نبيذ العسل فيشربونه من يومه ويُسكرهم الإسكار العظيم[2].

2-الثروة المعدنية:

تزخر بلاد المغرب الأوسط بالعديد من الثروات المعدنية، وكان معظمها لم يكتشف بعد، لكن هذا لم يمنع من ذكر الجغرافيين لبعض المناجم وأماكن تواجد هذه المعادن، فكانت مدينة بونة تحتوي على العديد من مناجم الحديد وكان يُحمل الكثير منه إلى مختلف الأقطار[3]، ويتواجد معدن الحديد كذلك في كل من بلاد كتامة وفي جبل بالقرب من مدينة أرزاو[4]، وفي بعض أقاليم بجاية معادن الحديد الطيّب[5]، ويتواجد معدن النحاس في جبل كتامة والزئبق قرب مدينة أرزاو[6]، وبمدينة بجّانة توجد معادن الفضة والكحل والحديد والمرتك والرصاص بين جبال وشعاب[7].

ويوجد حجر اللازَوَرْد الجيّد في جبال كتامة، وفي حصن تُونَتْ على جبل منيف على ساحل تَرْنانا يوجد معدن الإثمد[8]، وفي مدينة مجّانة المطاحن منجم للحجارة تُقطع منه حجارة الأرحاء التي ليس لها على الأرض مثيل، ونعتقد أنّها سمّيت بمجّانة 'المطاحن' نسبة إلى ذلك، إضافة إلى هذه المعادن نذكر الملح، حيث كان يوجد قرب بسكرة جبل مِلح يُقطع منه الملح كالصخر الجليل، ونظرا لجودة هذا الملح فقد كان عبيد الله المهدي وبنوه يستعملونه في أطعمتهم[9].

1- سورة النّحل: الآية 69.

2- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.

3- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 77.

4- البكري، المغرب، ص ص: 117، 155.

5- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 260.

6- البكري، المصدر السابق، ص ص: 117، 155.

7- اليعقوبي، البلدان، ص: 188.

8- **الإثمد:** حجر يُتخذ منه الكُحل، وقيل هو ضرب من الكحل وقيل هو الكحل نفسه. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 503.

9- البكري، المصدر السابق، ص ص: 117، 134، 137، 168.

إضافة إلى هذه المعادن يوجد بالمغرب الأوسط في مدينة مرسى الخرز معدن المرجان، الذي كثيرا ما ذكره الجغرافيون وأشادوا بجودته وقيمته، فعنه يقول ابن حوقل: "ولا أعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة"[1]، ويقول الإدريسي: "وهو أجلّ جميع المرجان الموجود بسائر الأقطار"[2]، ويقول صاحب كتاب الاستبصار: "وهو أنفس مرجان الدنيا"[3]، فالمدينة حسب أوصاف الجغرافيين تتميز بأهمية كبيرة في كامل الحوض الغربي للبحر المتوسط، وهذا يعود لمعدن المرجان الذي لا يضاهيه أي مرجان آخر، ويذكر المقدسي أنّ سكان المدينة يعتمدون في تجارتهم أساسا على معدن المرجان، في قوله: "ومنها يرتفع المرجان لا معدن له غيرها ولا يخرج إلا من بحرها"[4]، وهذا ما يؤكده صاحب كتاب الاستبصار بقوله: "وهناك قوم لهم مراكب وزوارق ليس لهم حرفة إلّا إخراج المرجان من قعر البحر"[5].

وقد خُصّص لعملية استخراج المرجان خمسون قاربا كل قارب فيه عشرون رجلا أو أكثر، وكل قارب يحتوي على آلة ذات ذوائب كثيرة تصنع من القنب والكتّان، وتدار هذه الآلة في أعلى المراكب فتلتفّ الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان فينكسر المرجان ويتعلّق بالكتان، فيجذبه الرجال ويستخرجون منه الشيء الكثير كل سنة ممّا يُباع بالأموال الطائلة، والمرجان ينبت كالشجر ثم يتحجّر في نفس البحر ين جبلين عظيمين، ويقال إنّ المرجان يكون في قعر البحر رطبا ليّنا فإذا أُخرج ومسّه الهواء اشتد وصَلُب[6].

ويذكر ابن حوقل الذي زار المنطقة أنّ سلطان المغرب بها قد جعل على عملية استخراج المرجان أُمناء، وناظِر يلي صِلاتها ومعاونها وما يلزم ما يُخرج من هذا المعدن[7]، ونفهم من قول ابن حوقل أنّ حكّام بلاد المغرب (سلطان المغرب) الذين كانت مدينة مرسى الخرز ضمن سلطانهم، كانوا قد أوْلَوا اهتماما كبيرا بهذا المعدن وبعملية استخراجه وبيعه، حيث أنّهم وضعوا لذلك أمناء

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 76.
2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 290.
3- مجهول، الاستبصار، ص: 126.
4- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 226.
5- مجهول، المصدر السابق، ص: 126.
6- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 290؛ مجهول، المصدر السابق، ص: 126.
7- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 76.

ونُظّارا وعُمّالا، ممّا ساهم في ازدهار تجارتهم وأدرّ عليهم الأموال الكثيرة، فكانت حسب البكري "جباية هذه المدينة عشرة آلاف دينار"[1].

3-الصناعة:

كانت الصناعة في بلاد المغرب الأوسط قائمة بشكل أساسي على الإنتاج الفلاحي والحيواني، فهي تشمل معالجة الحبوب بالطحن والعجن وما ينبني عليها من صناعات، وتشمل الصناعات النسيجية الصوفية في الأعم والصناعات الجلدية ومشتقات الألبان[2]، إضافة إلى بعض الصناعات المعدنية نظرا لتوفّر المواد الخام، ومن أشهر الصناعات المعروفة في بلاد المغرب الأوسط:

أ-صناعة النّسيج:

تعتبر صناعة النسيج الصناعة الرئيسية في العصر الوسيط، بسبب حاجة الناس إليها على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم، وتتمثّل استعمالات النسيج في صنع الملابس والأثاث المنزلي كالفراش والوسائد والستائر، إضافة إلى الخيام على اختلافها، وقد اشتهرت بلاد المغرب الأوسط بصناعة النسيج وذلك لوفرة المادة الخام خاصة الصوفية منها[3]، فكانت المعامل بالمغرب الأوسط تنتج أنواعا من الأقمشة العادية والرفيعة من الصوف والكتان والقطن والحرير، وكانت الملابس تعتبر من الأشياء الثمينة، حيث تُستعمل في مناسبات كثيرة مكان النقود، فتُمنح هدايا وتُدفع بها المرتبات وتُخلع على الأشخاص على سبيل المكافأة[4]، وعلى سبيل المثال كان أبو حاتم ابن الإمام أبي اليقظان "يجمع الفتيان إلى نفسه فيُطعم ويَكسي"[5].

وتعتمد صناعة النسيج في المرتبة الأولى على الصوف، ويبدو أنّ مدينة تلمسان قد اشتهرت بالصناعة الصوفية، حيث كان أهل تلمسان يتكسّبون من الفلاحة وَحُوك الصوف،

1- البكري، المغرب، ص: 141.

2- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 87.

3- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع نفسه، ص ص: 89-91.

4- موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، تر وتح: إسماعيل العربي، المغرب: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط3، 1990، ص: 268.

5- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 89.

فيصنعون منها الأكسية والبرانيس وغيرها، وكان ثمن البرنوس عندهم ثمان أَوَاقٍ[1]، وكانت النساء بتلمسان يصنعن من الصوف أنواعا من الكَنَابِيش لا يوجد في غيرها[2]، ويذكر ابن الصغير المالكي أنّ عبد الرحمن بن رستم اشترى ممّا بقي له من مال الصدقة أكسية صوف وجِباب صوف ودفعها للفقراء[3]، وهذا ما يدلّ على انتشار الصناعة النسيجية الصوفية في المنطقة أو على الأقل في منطقة بالقرب منها، وفي بمدينة قلعة بني حماد كانت تُصنع "أكسية ليس لها مثيل في الجودة والرقّة، ....يُساوي كِساء عيد من عمل القلعة ثلاثون دينارا"[4]، ويُعمل بتبسّة "بُسط جليلة مُحكمة النسج يُقيم البساط منها مدّة طويلة"[5]، ونظرا لانتشار صناعة الصوف في المغرب الأوسط، فقد انتسب العديد من الحرفيّين إلى حرفتهم بدل الانتساب إلى قبائلهم، وحمل بعضهم لقب 'الصوّاف'، على غرار الفقيه المالكي أبو علي عمر بن عبد المحسن الوجهاني الصوّاف (توفي بعد سنة 690هـ)[6].

وقد عرفت تيهرت صناعة الخَزِّ، وهو نسيج من صوف وحرير، ويبدو أنّ هذا النسيج كان قيّما، وكان ممّن اشتهر في تيهرت بهذه الصناعة والد الشاعر التيهرتي أحمد بن فتح المعروف بابن الخزّار[7]، ويتّضح من خلال لقبه أنّ والده كان مشهورا بصناعة الخزّ أو المتاجرة به، وكانت تُصنع من الخزّ ملابس متنوّعة مثل قلنسوة خزّ أو جبّة خزّ وغير ذلك[8].

وكانت الأقمشة تصنع أيضا من الكتّان والقطن والحرير، ويستعمل الكتّان في صنع الثياب والأحذية وغيرها، وتصنع منه خيوط كثيرا ما استعملها الصيّادون بمرسى الخرز لصيد المرجان[9]، كما انتشرت الصناعة القطنية بالمغرب الأوسط نظرا لتوفّر القطن في بعض المناطق، وقد أنتج من

1-أبو زكرياء يحي بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، م1، الجزائر: مطبعة بيير فونطانا الشرقية، 1903، ص: 22.

2- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص: 44.

3- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 36.

4- مجهول، الاستبصار، ص: 170.

5- ياقوت، معجم البلدان، م2، ص: 13.

6- الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح وتع: عادل نويهض، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط2، 1979، ص: 200.

7- نويهض عادل، معجم، ص: 58.

8 - يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 93.

9- مجهول، المصدر السابق، ص: 126.

القطن مختلف أنواع الملابس القطنية من جباب وقلانس وأردية وقمصان وسراويل وغيرها، خاصة بتيهرت التي عرفت عددا من المتخصصين في صناعة نسيج من القطن وهو البِزّ، وكان منهم المحدّث أحمد بن قاسم بن عبد الله بن محمد التميمي التيهرتي المعروف بالبزّاز (ت 395هـ)[1]، الذي يبدو أنّه اتخذ من صناعة البزّ أو بيعه مهنة له، وكانت تُصنع الأخْبِيَة والفَسَاطيط والفَازات[2] التي يتخذها الملوك والأمراء من ثياب الكتّان والصوف والقطن بِجَدْل الكتّان والقطن، فيباهون بها في الأسفار[3].

كما عَرفت بلاد المغرب الأوسط الأقمشة الحريرية، فكان الحكام والأثرياء وأصحاب القصور يتباهون باقتنائهم الملابس الحريرية باعتبارها سلعة رفيعة وثمينة، فكانت أثواب الأمراء والحكام مصنوعة من الحرير أو الدِّيباج، وكانت تطرّز عليها أسماؤهم أو علامات تختصّ بهم بخيوط الذهب[4]، وقد أنفذ المنصور الفاطمي إلى مولاه جَوْذَر بأن يُثبت اسمه في الطراز والبسط بخيوط الذهب تشريف وتكريما له[5]، كما استعمل الحرير في صناعة لُحُفٍ يتخذها الناس للنوم يكون فيها أعلام الحرير نحو ثلثي شبر في كل طرف، واستعمل أيضا في صناعة ثياب قيامها الحرير ولحمتها من الخزّ أو الصوف أو القطن، وقد كرهها أهل العلم للرّجال[6].

وقد نجم عن الهدوء والأمن الذي ساد البلاد رخاء اقتصادي، وهذا ما تطلّب ثيابا ونسيجا مناسبا لحياة القصور والبذخ، فيذكر ابن الصغير قائلا: "ما رأيت شرافة من القصرين إلّا عليها ثوب أحمر وأصفر على الجدار كالبدور"[7]، وكان للأمراء الحماديين عمائم مذهّبة يزيد سعرها عن ستمائة دينار وأزيد، وكانوا يعمّمونها بأتقن صنعة فتأتي تيجانا، وكانت هذه العمائم تُصنع في

1- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص: 9.

2- **الفَازات**: وهي الخيم والمظلات بعمودين والتي يتخذها الملوك والأمراء في السفر والصيد والحرب. ينظر: ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، در: أحمد الزعبي، الجزائر: دار الهدى، 2009، ص: 300.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص: 300.

4- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص: 299.

5- الجوذري أبو منصور العزيزي، سيرة الأستاذ جوذر، تق وتح: محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، ص: 52.

6- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه: محمد حجي، ج11، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981، ص ص: 92، 300.

7- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 53.

القلعة، حيث يأخذ الصانع على تعميم عمامةٍ منها دينارين وأزيد[1]، ولمّا دخل المهدي بن تومرت بجاية رأى الناس يرتدون الأرقاق الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحيات[2]، فكان ينهاهم ويقول لا تتزيّنوا بزيّ النساء[3].

ب-الصناعة المعدنية:

تحتاج الصناعة المعدنية إلى مواد خام من حديد ونحاس وذهب وفضّة، وقد سهل على سكان بلاد المغرب الأوسط الحصول على هذه المواد كما ذكرنا، ممّا جعل قيام صناعة معدنية أمرا واقعا، ويعتبر الحديد ضروريا لكلّ دار بل ولكلّ شخص وهذا نظرا لسعة استعماله فكانوا يصنعون منه الأسلحة[4]، فلم يكن يخلوا أي بيت من الأسلحة فكان بيت عبد الرحمن بن رستم على بساطته يحتوي سيفا ورمحا[5]، وكان أوّل ما أمر به أبو القاسم الشيعي أن أمر عمّاله في سائر البلدان بعمل السلاح وجميع الآلات الحربية[6]، وكان الحكام والأثرياء يتفنّنون في صناعة السيوف المزيّنة بالذهب والجوهر، فقد أمر المنصور الفاطمي مولاه جوذر بأن يصنع سيوفا أمضى من السيوف اليمنية والإفرنجية، وليكن حلية كل سيف منها بخمسين دينارا[7]، وتُصنع من الحديد أيضا آلات الحروب غير السيوف، كالرماح والسهام والدّروع والمجانيق والعرّادات وغيرها، فعندما حاصر أبو عبد الله الشيعي بلزمة كان فيها رجل من أهل مجّانة يصنع المجانيق والعرّادات وآلات الحرب[8].

كما صنعوا من الحديد بعض الأدوات المنزلية كالسكاكين والخناجر والكلاليب وأمواس الحلاقة والإبر والأبواب وغيرها، فيذكر ابن الصغير أنّ الإمام أفلح كان قد ابتنى القصور واتخذ بابا

1- مجهول، الاستبصار، ص: 129

2- **الأرْقاق**: جمع قَرْق: وهي نعل تشبه الخفّ، والفتوحيات هي الملابس المفتوحة من الأمام. ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ص: 13. (ينظر إلى الهامش رقم: 4).

3- البيذق، المصدر نفسه، ص: 13.

4- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 100.

5- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 29.

6 ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص: 209.

7 الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص: 47.

8- القاضي النعمان أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي، افتتاح الدعوة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 2005، ص: 110.

من حديد[1]، وكانت أبواب مدينة طُبنة كلّها من حديد[2]، وصنعوا منه أيضا الأدوات اللّازمة للفلاحة كالمحاريث والفؤوس والمساحي، إضافة إلى أدوات أخرى كالمواقد وحَذَوات الخيول والمسامير والأغلال والسّلال والأقفاص[3]، فيذكر ابن عذاري أنّه لمّا ألقى المنصور الفاطمي[4] القبض على أبي يزيد صاحب الحمار جعله في قفص من حديد[5].

وعرفت بلاد المغرب الأوسط كذلك الصناعات الذّهبية، حيث كان الحصول على الذهب الخام أمرا متيسّرا، فكانت القوافل المتّجهة إلى بلاد السودان الغربي كفيلة بتوفيره، وللذّهب استعمالات متعدّدة، فبالإضافة إلى صناعته نقودا دنانير، فقد كان يصنع منه الحلي للنساء من أقراط وأساور وعقود ودبابيس تزيّن الصدر وخواتم وخلاخيل، وصنعوا منه بعض الأواني مثل الأباريق والأقداح والأكواز[6]، واستعملت خيوط الذهب في تطريز الثياب والعمائم والرايات والبنود، فمن أبّهة الملك والسلطان أن ترسم أسماء الحكام أو علامات تختصّ بهم في طراز أثوابهم المعدّة للباسهم، وتكتب بخيط من ذهب[7]، وقد كلّف المنصور مولاه جوذر بعمل سرج مذهّبة وسيوف محلّاة بالذهب والجوهر[8]، وكانت لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهّبة يفوق ثمنها الستمائة دينار[9]، وكان أبو القاسم –وهو أحد شيوخ الإباضية– إذا خرج ركب دابة مسرّجة بسرج محلّا بالذهب وزينة عجيبة وكان يسافر بها إلى القيروان بزيّ عظيم وحلّة سنيّة[10]، واستعمل الذهب كذلك في تزيين القصور حيث يذكر صاحب كتاب الاستبصار أنّ في بجاية موضع يُعرف باللؤلؤة

1- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 53.

2- البكري، المغرب، ص: 135.

3- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 121.

4- **المنصور الفاطمي**: هو أبو الطاهر إسماعيل بن محمد القائم بن عبيد الله المهدي، ولد بالمهدية سنة 303هـ، وبويع له في شوال سنة 334هـ، كان فصيحا بليغا خطيبا حاد الذهن، توفي سنة 341هـ. ينظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص: 88.

5- ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص: 220.

6- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ص: 121-122.

7- ابن خلدون، المقدمة، ص: 299.

8- الجوذري، سيرة، ص: 47.

9- مجهول، الاستبصار، ص: 128.

10- الدرجيني، طبقات، ج1، ص: 122.

فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون أحسن منها بناء، وقد نُقشت حيطانها "أحسن نقش وأُنزلت بالذهب واللازورد"[1].

وانتشرت ببلاد المغرب الأوسط كذلك الصناعات الفضية والنحاسية، وقد استعملت الفضة والنحاس في صناعة الكثير من الأدوات فاستعملت الفضة في سكّ النقود دراهم، وفي الحلي وفي تحلية بعض الأدوات مثل السروج واللُّجُم والأواني، فكانت الفضة من ضمن الهدايا التي استمال بها المنصور الفاطمي زيري بن مناد[2]، واستعمل النحاس في صناعة الأواني المنزلية وقد حذّر الحكماء من الأكل في آنية النحاس والشرب فيها لضررها على صحة الإنسان[3]، وكان النحّاسون يصنعون قدورا من نحاس لا تصلح لغير النبيذ، فكره القضاة والمحتسبون استعمالها وأمروا بكسرها وتصيّيرها نحاسا[4].

ج-صناعة السفن:

يقول ابن خلدون: "فلمّا استقرّ المُلك للعرب وشَمُخ سلطانهم صارت أمم العجم خَوَلا لهم وتحت أيديهم، وتقرَّب كلّ ذي صنعة إليهم بمبلغ صِناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أُمما وتكرّرت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بُصَراء بها فشَرِهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشّواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطَوْها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر... وأوعَز الخليفة عبد الملك إلى حسّان بن النعمان عامل إفريقية باتّخاذ دار الصّناعة بتونس لإنشاء الآلات البحريّة حِرصا على مراسم الجهاد"[5]، فيرى بذلك ابن خلدون أنّ العرب اعتمدوا في أوّل أمرهم على الأمم التي خضعت لسلطانهم ممّن كانت لهم دراية بالبحر وثقافته في بناء السفن، ثم طوّروا مهاراتهم باحتكاكهم بتلك الأمم وأخذوا الصنعة منهم، فأنشئت بذلك أول دار لصناعة السفن ببلاد المغرب الإسلامي في مدينة تونس، لتُنشأ بعدها العديد من دور صناعة السفن في مناطق مختلفة من سواحل بلاد المغرب بما فيها سواحل المغرب الأوسط.

1- مجهول، الاستبصار، ص: 130.

2- ابن حماد، أخبار ملوك، ص: 67.

3- ابن البيطار ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج4، بيروت: دار الكتب العلمية، ص: 475.

4- يحي بن عمر الأندلسي، أحكام السوق، تح: محمود علي مكي، مصر، ص: 123.

5- ابن خلدون، المقدمة، ص ص: 286-287.

وقد ساعدت على إنشاء هذه الدُّور توفّر المواد الخام المساعدة على ذلك كالخشب والحديد والزفت والقطران، فيذكر الإدريسي في وصفه لبجاية أنّ: "الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود، ويُجلب إليها من أقاليمها الزِّفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة"[1]، فبتوفّر هذه المواد المستعلمة لصناعة السفن وقَلْفَطَتِها، إضافة إلى كون المدينة ساحلية وتحتوي على ميناء، تمّ إنشاء دار بها لصناعة المراكب والسفن والحرابي[2]، ويضيف صاحب كتاب الاستبصار أنّ ببجاية "داران لصناعة المراكب وإنشاء السفن، ومنها تغزا بلاد الروم فإنّها ليس بينها وبين صقلية غير ثلاث مجار"[3]، ويذكر البكري أنّ بمدينة مرسى الخرز كذلك "تنشأ السفن والمراكب الحربية التي يغزى بها إلى بلاد الروم"[4]، "ومن مرسى بونة تخرج الشواني غازية إلى بلاد الروم وجزيرة سردانية وكرسقة وما والاها"[5]، وفي عهد الموحدين وبعد أن قام عبد المؤمن بن علي بالاستيلاء على مدينة وهران، أمر ببناء قاعدتين بحريتين لأسطوله البحري، وأحدث بهما ورشتين لإصلاح السفن المعطوبة وبناء المراكب الجديدة، وذلك في وهران وأرزاو وعدد من المدن الساحلية، كما بنى خبراؤه البحريون عام (559هـ/1162م) مائة مركب في موانئ وهران والمرسى الكبير وأرزاو[6]، وفي عهده أصبحت مدينة هنين إحدى المراكز البارزة لصناعة السفن ومنها كان يخرج أسطوله للغزو[7].

وكان لتزايد حركة النقل البحري وعدد السفن التي كانت ترسو في موانئ المغرب الأوسط أثر في بناء دور صناعة السفن وورش التصليح في العديد من الموانئ، وتطوّرت صناعة السفن خصوصا ما بين القرنين 2هـ/8م و5هـ/11م، حيث شهدت هذه الفترة بناء السفن الكبيرة الحجم لنقل السلع، وقد استمرّ صنع السفن على الطريقة المعروفة في البحر الأبيض المتوسط ولا

1- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 260.
2- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 260.
3- مجهول، الاستبصار، ص: 130.
4- البكري، المغرب، ص: 141.
5- المغرب، المصدر نفسه، ص: 172.
6- يحي بوعزيز، مدينة وهران، ص ص: 28-29.
7- Marcais (G): Honain, Recherches d'archeologie musulmane. Revue Africaine. 4eme trimestre 1928, Alger 1928, p.336.

سيما السفينة المزوّدة بساريَتَيْن ذات الأشرعة اللاّتينية[1]، واستفادت كذلك صناعة السفن من وصول الطرق التقنية المعروفة في المحيط الهندي[2].

تذكر المؤلفات التاريخية والجغرافية أنواعا عديدة من السفن والمراكب التي كانت تصنع ببلاد المغرب الإسلامي والأندلس، بينما لم تتحدث كثيرا عن أنواع السفن التي كانت تصنع بالمغرب الأوسط، إلّا في بعض الإشارات الطفيفة، لكنّ هذا لم ينفي وجود صناعة سفن متطوّرة ببلاد المغرب الأوسط، والتي شملت أنواعا من السفن الحربية والمراكب التجارية لنقل السلع والأشخاص، ولعلّ من أهمّها:

أ-السفن الحربية:

وهي سفن الأسطول التي تصنع خصّيصا لغزو العدو وكانت تُشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة، ومن أهمّ أنواع هذه السفن نجد:

-الشواني: أو الشينيّات (جمع شِينيّة)، وهي ضرب من السفن التي استخدمت بشكل مكثّف في الحروب، وهي مراكب كبيرة وطويلة تجدّف بمائة وأربعين مجدافا ومزوّدة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وقد جمعت الشينية بين نقل الجنود وأعمال القتال[3].

-الحَرّاقات: أو الحراريق (جمع حرّاقة)، وهي سفن عربية الأصل، تحمل النفط والآلات البحرية، وكانت تستعمل في إحراق سفن العدوّ بالنّفط، حيث تزوّد هذه السفن بالنفط الذي يُرمى بالمنجنيقات أو بالسهام أو في القوارير، وقد ضمّت ما يقارب مائة مجذاف، ومن وظيفة هذه السّفينة الحربية اشتقّ اسمها[4].

1- **الأشرعة اللاّتينية:** وهي أشرعة مثلثة الشكل ويسمّيها الأوربيون "الشراع اللاتيني". ينظر: عبد السلام الجعماطي، دراسات في تاريخ الملاحة، ص: 67.

2- موريس لومبار، الإسلام في مجده، ص ص: 95-96.

3- عبد السلام الجعماطي، المرجع السابق، ص: 67؛ أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978، ص: 94.

4- عبد السلام الجعماطي، المرجع السابق، ص: 68.

-الحَرَابِي: أو الحربيات (جمع حربية)، وهي نوع من الشواني الأصغر حجما تمتاز بسرعتها وخفة حركتها[1]، وكانت الحرابي تُصنع في بجاية ومرسى الخرز وذلك لغزو الروم وسواحل صقلية في عهد الفاطميين والتصدّي لهجمات الأساطيل النصرانية.

-الطَّرَائِد: (جمع طريدة أو طرّادة)، وهي سفن صغيرة سريعة الحركة[2]، خصّصت لحمل المقاتلين والذخائر والمؤن والخيول، وتتّسع الواحدة لحمل أربعين فرسا، وكانت تفتح عادة من الخلف حتى يتيسّر للخيل أن تصعد إليها وتنزل منها على اليابسة، كما استعملت في أيام السلم لخدمة الناس ولنقل الخشب[3].

ب-السفن السفرية:

وهي المراكب المخصصة للسفر والتجارة، وقد ذكرها الإدريسي باسم "المراكب الحمّالة الجافية"[4]، والمقصود بها تلك السفن الضخمة المخصصة لنقل البضائع والمسافرين ومن أبرز هذه السفن مركبي القَيْطَاني والفَخْرِي؛ وهما مركبان عظيمان يحملان عددا كبيرا من الرّكّاب والبضائع، ويشير صاحب كتاب الاستبصار إلى حجم هذين المركبين، حيث يذكر أنّ مرسى الأزقاق بمدينة بونة لا يتّسع لحمل المراكب الكبار، وفيه عطب مركب القيطاني ومركب الفخري ومراكب كثيرة[5].

وكانت السفن عندما تتعرض للعطب تُصلّح في ورشات التصليح، بالزفت والقار والقطران والصمغ لمنع تسرّب الماء فيها، ونظرا لحاجة دور الصناعة ببجاية لذلك كان الزفت والقطران يجلبان إلى بجاية من أقطارها[6].

1- أنور عبد العليم، الملاحة، ص: 94.

2- عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988، ص: 149.

3- أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص: 95. عبد السلام الجعماطي، دراسات، ص: 69.

4- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 179.

5- مجهول، الاستبصار، ص: 127.

6 -الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 260.

د-الصناعة الغذائية:

تعدّ الصناعة الغذائية من أهم الصناعات التي عرفتها بلاد المغرب الأوسط، وقد استغلّ سكان المغرب الأوسط وفرة المنتوجات الزراعية والحيوانية فاستخدموها لصناعة منتوجات غذائية مختلفة، فصنعوا المطاحن واتخذوا الأفران والمَعاصر، لتظهر بذلك مهن عديدة بالمغرب الأوسط.

يعتبر القمح والشعير الغذاء الأساسي لسكان المغرب الأوسط، ولذا نرى انتشار الكثير من المطاحن والأرحية في المغرب الأوسط والتي تُستعمل لطحن القمح والشعير، فقد شرع أهل تيهرت في اتخاد الأرحاء منذ أيام عبد الرحمن بن رستم[1]، ويبدو أنّ هذه الأرحاء كانت موجودة في موقع واحد يؤدي إليها أحد أبواب المدينة والذي أطلق عليه "باب المطاحن"[2]، ويذكر ابن حوقل أنّ بتلمسان أنهار جارية وأرحية عليها[3]، ولاحظ الإدريسي انتشار الأرحاء التي كانت تُنصب في مصبّات الأنهار في العديد من المناطق بالمغرب الأوسط على غرار مدينة تلمسان وأفكّان ومليانة[4]، كما انتشرت الأرحاء في كل من مدينة الغدير وقزرونة، وهي متيجة، ومستغانم التي بها طواحين الماء، ووهران ومدينة الخضراء[5]، ويذكر المقدسي أنّ الأرحاء توضع على أفواه الأنهار فإذا خرج الماء المتدفّق أدارها[6]، وإذا كان تدفّق الماء ضعيفا يقوم أصحابها برفع منسوب المياه ثم يدعونها تتساقط كالشلالات، فتعمل قوة التساقط على إدارة العجلة[7]، وهناك أرحية يدوية والتي لا يكاد يخلوا بيت منها، وتُتّخذ هذه الرّحى من صخور معيّنة كالتي توجد بمدينة مجّانة المطاحن[8].

كما انتشرت في مدن المغرب الأوسط الأفران والتي يشرف عليها الخبّاز أو الفَرّان، وكان الخبز المعجون في البيت يُحمل في كثير من الأحيان إلى الفرن ليتمّ طهوه[9]، وكان تحضير الخبز في

1- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 31، 33.
2- البكري، المغرب، ص: 152.
3- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 88.
4- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 248، 251، 253.
5- البكري، المغرب، ص ص: 145، 146، 150، 155، 156، 163.
6- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 125.
7- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 108.
8- البكري، المصدر السابق، ص: 134.
9- روجي إدريس الهادي، الدولة الصنهاجية، ج2، تر: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992، ص: 199.

الفرن أو شراؤه من السوق يغلب على أهل المدينة، لهذا فإنّ الخبّازين يوجدون فيها وقلّما يوجدون في البادية[1]، ويظهر أنّ هذه المهنة كانت منتشرة جدّا حتى ظهرت فتاوى حول الخبّازين والخبز الذي يبيعونه، منها فتوى ليحيى بن عمر عن رجل اشترى خُبزة فكسرها وأكل منها لقمة فيها حجارة، فجاوب أن يردّ ما بقي منها ويرجع له البائع ثمنها[2]، كما شدّد المحتسبون على أصحاب الأفران بضرورة غربلة القمح وتنقيته من الحجارة والعشب قبل طحنه[3].

اشتهرت بعض المناطق في المغرب الأوسط بتجفيف الفواكه وبيعها وتصديرها إلى مختلف الأقطار، فمدينة مرسى الدجاج التي اشتهرت بكثرة زروعها وثمارها لاسيما التين، كان أهلها يقومون بتقطيع التين شرائحا ثم يقومون بتجفيفه، "ومنها يُحمل شرائح طوبا ومنثورا إلى سائر الأقطار وأقاصي المدائن والأمصار وهي بذلك مشهورة"[4]، كذلك اشتهرت مدينة ترنانا بتجفيف التين حيث يذكر البكري أنّ في حصن تونت بترنانا "شجر كثير يُحمل من زبيب تينه إلى ما يليه من النواحي"[5]، وإلى جانب التجفيف كان العمّال يقومون بصنع الرُّبِّ من بعض الفواكه، فقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار أنّه من مدينة جيجل "تُحمل الفواكه والعنب والرُّبُّ إلى مدينة بجاية"[6].

كما عرفت بلاد المغرب الأوسط صناعة النّبيذ وانتشار بيع الخمور وشربها، حيث يذكر ابن الصغير أنّه أثناء الصراع بين الإمام أبي حاتم الرستمي وعمّه يعقوب بن أفلح فسدت تيهرت وفسد أهلها وانتشر شرب الخمر وبيعه في الأسواق وذلك في قوله: "وكان البلد قد فسدت وفسد أهلها في تلك الحروب، واتخذوا للمسكر أسواقا"[7]، وكان أبو عبد الله الشيعي قد أمر رجاله بقتل من خرج ليلا أو شرب مُسْكرا[8]، وعندما نزل المهدي بن تومرت بجاية أهرق الخمر الذي كان يباع

1- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 109.
2- ابن عمر، أحكام السوق، ص: 53.
3- الونشريسي، المعيار، ج 6، ص: 411.
4- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 259.
5- البكري، المغرب، ص: 168.
6- مجهول، الاستبصار، ص: 128.
7- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 99.
8- ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص: 151.

قرب باب البحر[1]، وكان النّبيذ يُصنع من التمر والزبيب والتين والشعير والزهر، وكان يُترك ليختمر فيصير خمرا، ولذلك حرّم العلماء الأنبذة المسكرة[2]، ويضيف ابن حوقل أنّ النبيذ يُصنع كذلك من العسل والذّرة، فذكر أنّ العاملين في صيد المرجان بمرسى الخرز يكثرون من الشرب والخلاعة، وهم ينتبذون نبيذ العسل فيشربونه من يومه ويُسكرهم الإسكار العظيم، ويعمل من الصداع ما لا يعمله نبيذ الذّرة وغيره من الأشربة[3].

هـ-الصناعة الطبيّة:

تتميّز بلاد المغرب الأوسط بالتنوّع الجغرافي والمناخي وهذا ما أدّى إلى تنوّع الغطاء النباتي، فتواجدت بالمغرب الأوسط العديد من الأعشاب الطبيّة، التي كثيرا ما لفتت انتباه الإدريسي الذي كان مهتمّا بعلم النّبات، فقد ذكر العديد من النباتات الطبيّة التي كانت تنبت في جبل مسيون ببجاية وذلك بقوله: "وفي أكنافه جُمل من النبات المنتفع به في صناعة الطبّ مثل شجر الحضض والسقولوفندوريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والرزاوند والقسطون والإفسنتين أيضا وغير ذلك من الحشائش"[4]، وتحدّث في موضع آخر أنّ بقلعة بني حماد عقارب كثيرة سود تقتل في الحال وذكر أنّ أهل القلعة يتحرّزون منها ويتحصّنون من ضررها بشرب نبات الفوليون الحرّاني ويزعمون أنّه ينفع شرب درهمين منه لعام كامل فلا يصيب شاربها شيء من ألم تلك العقارب وهذا عندهم مشهور، وهذا النبات ببلد القلعة كثير[5].

وقد ذكر البكري، الذي لم يكن مهتمّا كثيرا بعلم النبات ولا بصناعة الطبّ، بعض الأعشاب الطبيّة منها عشبة عاقر قرحا[6]، التي توجد بالقرب من مدينة أشير في "فحص أفْيَح

1- البيذق، أخبار المهدي، ص: 13.

2- البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، فتاوى البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام، ج 6، تق وتح: محمد الحبيب الهيلة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002، ص ص: 357-358.

3- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.

4- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 259.

5- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 255.

6- **عاقر قرحا**: نبات عشبي حولي، أوراقه كبيرة وثماره بذور مجنّحة الغلاف دهنية المادة، جذوره وأوراقه وأزهاره عرفية، طعمها حريف لاذع ورائحتها تُهيِّج الأنف. ينظر: خليل حسن إبراهيم الحموي العشاب، شفاء الأمراض الجلدية والمعدية بواسطة الأعشاب، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999، ص: 83.

تُجمع فيه عروق عاقر قرحا، ومن هذا الموضع تُحمل إلى الآفاق"[1]، كما كان عمال المَعاصر يعصرون بعض الثمار والبذور لاستخراج زيوتها التي تستعمل في الطّب كزيت السمسم وزيت الخروع وزيت بذر الكتّان وزيت بذور الفجل وغيرها[2]، ويبدو أنّه كان للمغرب الأوسط أطباؤه وحكماؤه المشهورين حتى أشاد بهم ابن البيطار في قوله عن فوائد جراد البحر: "...فيما حكاه أطبّاء المغرب الأوسط خاصة ينفع من الجذام"[3]، ويذكر ابن خلدون أنّ لأهل البادية طبّ يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثا عن مشايخ الحيّ وعجائزه[4]، كما كان عسل النّحل يستخدم لعلاج الكثير من الأمراض، ويدخل في تركيب وصناعة الكثير من الأدوية، وذلك لقوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾[5].

1- البكري، المغرب، ص: 149.

2- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 112.

3- ابن البيطار، الجامع، ج1، ص: 221.

4- ابن خلدون، المقدمة، ص ص: 546-547.

5- سورة النحل: الآية 69.

المبحث الثاني: مقومات الحياة التجارية بالأندلس

تمهيد:

تتميّز بلاد الأندلس بكبر مساحتها وتنوّع تضاريسها ومناخها، فهي شبه جزيرة مثلّثة الشكل يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث، حيث يحيط بها من جهة الشرق والجنوب البحر الشامي (البحر المتوسط)، ويحيط بها من جهة الغرب البحر المظلم (المحيط الأطلسي)[1]، وهي واسعة المساحة حيث يحدّدها الإدريسي فيقول: "والأندلس طولها من كنسية الغراب التي على البحر المظلم إلى الجبل المسمّى بهيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميل، وعرضها من كنيسة شنت ياقوب التي على أنف بحر الأنقليشين إلى مدينة المرية التي على بحر الشام ستّ مائة ميل"[2]، ويذكر الزهري أنّ بلاد الأندلس حسنة الهواء طيّبة الماء طولها أربعون يوما ويشقّها أربعون نهرا[3].

يصف المقّري بلاد الأندلس فيقول: "الأندلس من الإقليم الشامي، وهو خير الأقاليم وأعدلها هواء وترابا، وأعذبها ماء، وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا، وهو أوسط الأقاليم، وخير الأمور أوسطها"[4]، وتتميّز الأندلس بكثرة تضاريسها فلكلّ منطقة بها جبالها وأنهارها، وهذه الأنهار يصبّ معظمها في المحيط الأطلسي وتنبع كلّها من وسط شبه الجزيرة[5]، ولهذا فإنّ الموقع الجغرافي والتنوّع التضاريسي لبلاد الأندلس جعلها تحت تأثير مناخين أولهما هو مناخ البحر الأبيض المتوسط؛ ويسود هذا المناخ أغلب بلاد الأندلس، كونها تطلّ على البحر المتوسط من جهتين كما ذكرنا آنفا، ويتميّز هذا المناخ بهطول الأمطار على السهول، والثلوج على الجبال في فصل الشتاء مع اعتدال ودفء في درجات الحرارة، وجفاف في فصل الصيف ودرجات حرارة عالية باستثناء المناطق المطلة على الساحل، كما أنّ الجليد الساقط على قمم الجبال كان له أهمية كبرى، ولا سيما عند المزارعين من خلال الاستفادة منه في ري المزارع عند ذوبانه.

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 173؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص: 165.

2 -الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 173.

3- الزهري، الجعرافية، ص: 80.

4 -المقّري، نفح الطيب، ج1، ص: 126.

5 – مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص: 264.

أمّا المناخ الثاني فهو مناخ الساحل الغربي؛ ويؤثّر هذا المناخ على المناطق الشمالية من الأندلس، ويتميّز باعتدال الحرارة طوال السنة، فالشتاء يكون أدفأ نسبيا من المناطق الجنوبية، بينما الصيف معتدل أقرب إلى البرودة، وتستمرّ الأمطار طوال السنة على شكل رذاذ وأمطار هادئة[1]، بينما يسود المناطق الدّاخلية مناخ شبه جاف، وتكثر الأمطار في النصف الشمالي منها، أي من شمال وادي تاجه الذي تقع عليه طليطلة[2]، وقد أثّر هذا التنوّع المناخي على النشاط الفلاحي في الأندلس، ممّا جعل الأندلسيين يبرعون في الفلاحة.

1-الفلاحة:

أدّى التنوّع الجغرافي والمناخي في بلاد الأندلس إلى ازدهار الفلاحة بها وتنوّع المحاصيل الزراعية، فقد شجّع وجود الأراضي الخصبة وتوفّر مياه السقيّ الفلاحين الأندلسيين على استغلال أراضي كثيرة في الزراعة بمختلف أنواع المحاصيل، كما حظي النشاط الزراعي باهتمام كبير من قبل الحكّام الأندلسيين، الذين أنشأوا السدود والقناطر والحدائق، حيث يذكر المقري أنّ الأمير عبد الرحمن الدّاخل ابتنى قصر الرُّصافة وجعل فيه حدائق واسعة، "ونقل إليها غرائب الغُروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما استجلبه من الشام من النَّوى المختار والحبوب الغريبة، حتّى نمت بغرائب الشجر والثمر"[3]، وأنشأ الخليفة عبد الرحمن الناصر في مدينة قرطبة حديقة خصّصها للنباتات الطبيّة، وبعث عدد من المختصّين في علوم النبات إلى العديد من البلدان للبحث عن بذور النباتات، وجلب أنواع من المغروسات الطبيّة والاقتصادية بهدف ضمّها إلى حديقته الضخمة، وعَهِد إلى أكابر علماء النبات للإشراف عليها ومتابعتها[4].

وظهرت بالأندلس مؤلّفات عديدة اهتمّت بالفلاحة وبعلم النّبات، على غرار كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الإشبيلي[5]، وكتاب الفلاحة لابن بصّال الطليطلي[6]، ومؤلفات ابن

1- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية في عصري الإمارة والخلافة، دمشق: دار صفحات، 2016، ص: 34.

2- الجبوري خليل خلف، المرجع نفسه، ص: 264.

3- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 467.

4- الزغول محمد حسين، التاريخ الاقتصادي للدولة الأموية في الأندلس 138-422هـ/756-1031م، تحت إشراف: سعيد الحلاق، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، الأردن، 2016، ص: 95.

5- ابن عوام الإشبيلي، الفلاحة الأندلسية، ج1، ص: 75.

6- لمن أراد الاطلاع أو أخذ فكرة عن هذا الكتاب يمكنه مراجعة مقال: غنيمات مصطفى عبد الله: **"ابن بصال رائد**

وافد في الطبّ والأعشاب الطبيّة[1]، وكتاب عمدة الطبيب في معرفة النبات لأبي الخير الإشبيلي[2]، وغيرها من المؤلفات التي اهتمّت بفنّ الفلاحة والاعتناء بالمزروعات، وتلك التي اهتمّت بالنبات من ناحية فوائده الطبيّة والعلاجية، وكانت كتاباتهم عبارة عن بحوث علمية تطبيقية وليست نظرية، فكان نشاطهم يرتبط بإنشاء الحدائق الخاصة بأقلمة النباتات وإجراء التجارب والاختبارات عليها، وإخضاع الكثير من المعلومات التي أوردوها في كتبهم إلى التجربة والمشاهدة[3].

تنوّعت المحاصيل الزراعية في الأندلس نظرا لتنوّع مناخها وخصوبة تربتها ووفرة المياه فيها، وقد شملت المزروعات الحقلية والتي كان أهمّها القمح والشعير والذّرة، والأشجار والنباتات المثمرة، بالإضافة إلى النباتات الطبيّة، وأهمّ هذه المحاصيل الزراعية:

أ-الحبوب:

تزرع الحبوب في معظم مناطق الأندلس، فهي الغذاء الرئيسي للسكان، ويأتي محصول القمح في مقدمة هذه الحبوب[4]، ويزرع في مدينة جيّان وأبّدة وحصن بيّانة، وبقَرمونة فحص كثير الحنطة، وبمدينة يبورة من الحنطة ما لا يوجد بغيرها[5]، وعُرفت طليطلة بجودة قمحها حتى أنّ "يودع في الأهراء فيلبث سبعين عاما لا يفسد"[6]، ويذكر الإدريسي أنّ في لشبونة فحص بلاطة تزرع فيه الحنطة "فتقيم في الأرض أربعين يوما فتحصد، وأنّ الكيل الواحد منها يعطى مائة كيل وربّما زاد أو نقص"[7]، وبقرطاجنّة إقليم يسمّى الفندون قليل ما يوجد مثاله في طيب الأرض وجودة نموّ الزرع

البحث الفلاحي التجريبي في الثقافة الإسلامية"، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات، كلية الآداب، جامعة الإسراء، م 10، ع1، 2003، ص: 116.

1- عيسى أحمد، تاريخ النبات عند العرب، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ص ص: 100-101.

2- أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ج1، تق وتح: محمد العربي الخطابي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1995، ص ص: 23-24.

3- الزغول محمد حسين، التاريخ الاقتصادي، ص: 96.

4 البكر خالد بن عبد الكريم بن حمود، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1993، ص: 128.

5- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ص: 181، 202- 206.

6 -ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 17.

7-الإدريسي، المصدر السابق، ص: 186.

فيه، ويقال إنّ "الزرع فيه يثمر بسقي مطرة واحدة وإليه المنتهى في الجودة"[1]، ويذكر الزهري أنّ بمدينة مرسية موضع يعرف بشَنْقير تُنبت فيه الحبة الواحدة من القمح مائة وثمانين سنبلة، في كلّ سنبلة مائة وثمانون حبّة طيّبة[2]، وتجود زراعة القمح أيضا بغرناطة[3] التي وصفت بأنّها "بحر من بحار الحنطة ومعدن من معادن الحبوب المفضّلة"[4]، وشريش[5]، وسرقسطة التي يوجد القمح فيها من مائة سنة لا يفسد[6].

ويعتبر الشعير من المحاصيل الأساسية في الأندلس، ويزرع في المناطق القليلة المطر، وخاصة المناطق الجنوبية الشرقية كغرناطة[7] وجيّان[8]، ويزرع أيضا في أبّدة وحصن بيّانة وقرمونة[9]، وبمدينة المرية يُختزن الشعير ستّين وسبعين سنة لا يتسوّس[10]، أمّا الأُرز فكان الفضل للمسلمين في نقله إلى الأندلس من جنوب شرق آسيا عن طريق الفتوحات الإسلامية في الشرق، وزراعته في المناطق الملائمة، حيث يحتاج إلى كميّات كبيرة من المياه[11]، وتعتبر مدينة بلنسية من أهمّ المناطق التي اشتهرت بزراعة الأرز، "فهو ينجب فيها ومنها يُحمل إلى جميع بلاد الأندلس"[12]، وبخصوص الذّرة فقد كانت تزرع في بعض المناطق من جنوب الأندلس كغرناطة، وكانت طعام الفقراء وأهل البوادي خصوصا في فصل الشتاء[13].

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ص: 186، 194.

2- الزهري، الجعرافية، ص: 100.

3 -ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 109.

4- لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تص: محب الدين الخطيب، القاهرة: المطبعة السلفية، 1347هـ، ص: 13.

5- الحميري، الروض المعطار، ص: 340.

6- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 197.

7- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 109.

8- الحميري، المصدر السابق، ص: 183.

9 -الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 203-206.

10- الزهري، المصدر السابق، ص: 101.

11- الزغول محمد حسين، التاريخ الاقتصادي، ص: 102.

12- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 17.

13- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 137.

ب-الأشجار المثمرة:

اشتهرت الأندلس بطيب الفواكه وكثرتها، ولعلّ من أشهر الأشجار المثمرة التي عُرفت بها الأندلس هو شجر التّين، حيث تنتشر زراعته في معظم أقاليم الأندلس وهو كثير بها جدّا، وتشتهر مالقة بالتّين المالقي الذي هو "أحسن التّين لونا وأكبره جرما وأنعمه شحما وأحلاه طعما"[1]، وقد غُرس شجر التين في جميع جهاتها مستديرا بها كالعقد[2]، حيث يشبّهه ابن سعيد المغربي لكثرته بالطوفان الذي لا تزال تحمل منه الركاب والسفن[3]، ومن أشهر أنواع التّين بها هو التّين الرَبّي نسبة إلى ربّة الذي يعدّ من أجود أنواع التّين[4]، ويزرع التّين كذلك في إشبيلية[5]، وتشتهر بها أنواع من التّين منها التّين القُوطِيُّ والشَّعْرِيَّ[6]، ويوجد صِنف من التّين في طليطلة نصفه أخضر والنصف الآخر أبيض طعمه في غاية الحلاوة[7]، ويزرع التّين أيضا في إقليم قرب مدينة شَلَب وفي مدينة دانية ولقنت ومرسية وشَريش[8]، وغيرها من المدن والقرى.

وتأتي بعد أشجار التّين من حيث الكثرة والأهمية أشجار الزيتون، التي تغرس في مناطق واسعة من الأندلس، وتتركّز زراعته خصوصا في الجبال، فتكثر غراسته في جبل العَروس المطلّ على مدينة قرطبة[9]، وفي جبل البرانس الذي زيتونه في منتهى الجودة[10]، ومن أكثر مناطق غراسة الزيتون في الأندلس كورة إشبيلية وخصوصا في جبل الشَرَف الذي "لا تكاد تُشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه"[11]، وقد وصف ابن غالب زيتون هذا الجبل بأنّه: "الدّائم عند اخضراره، النّادر عند اعتصاره، لا يتغيّر به حال ولا يعتريه اختلال، قد أَخذ في الأرض طولا وعرضا فراسخ في

1- ابن الوردي، خريدة العجائب، ص: 67.
2- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 200.
3- ابن سعيد، المغرب، ج1، ص: 423.
4- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 219.
5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 110.
6- المقري، المصدر السابق، ج3، ص 213.
7- ابن سعيد، الجغرافيا، ج2، ص: 09.
8- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 180، 192، 193، 195، 206.
9- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 25.
10- الحميري، الروض المعطار، ص: 435.
11- المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 158.

فراسخ"[1]، ويزرع الزيتون أيضا في مدينة بَلشانة، وفي حصن بيّانة الذي حفّت به أشجار الزيتون الكثيرة[2]، وفي لَبْلَة[3] وقَسْطَلَّة وقرية شَوْذَر وجيّان وقرسيس الذي يتّصف زيتونها بكبر حجمه[4].

ويعدّ العنب من المحاصيل الهامة في الأندلس، ويزرع في مناطق واسعة من الأندلس في لَبلة وشَنْت مارية ووادي الحجارة وقلعة أيّوب وبريانة[5]، وتكثر الأعناب في أبدة التي كاد العنب فيها لا يباع ولا يشترى لكثرته[6]، ويجود العنب في لُورَقة حيث يزن العنقود منه خمسين رطلا عراقيا[7]، وفي مالقة يباع العنب في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير لكثرته[8]، ويزرع كذلك في لقنت ومرسية وبجّانة وشريش[9] وغيرها من البلاد الأندلسية، ومن أصناف الفواكه الأخرى الموجودة بالأندلس الرمّان، ونخصّ بالذكر الرمّان السَّفْرِي الذي فاض على أرجاء الأندلس وصار الأندلسيون لا يفضّلون عليه سواه، وهذا الرمّان قد جُلب من المشرق إلى الأندلس في عهد عبد الرحمن الدّاخل[10]، حيث يروون أنّ الرمّان السّفري أهدته أخت لعبد الرحمن الداخل إليه في جملة هديّة بعثت بها إليه من بغداد إلى الأندلس، وسُمّيَ بذلك سَفْرِيًّا[11]، وتنتشر غراسة الرمّان في غرناطة[12] ومالقة التي تعرف برمّانها المرسيّ الياقوتي الذي لا نظير له في الدنيا[13]، وبطليطلة تغرس أنواع عدّة من الرمّان[14]، ومنطقة وادي الرمّان السهلية التي يبدو بأنّها سمّيت بها الاسم نظرا لكثرة

1- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 21.
2- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ص: 205، 206.
3- ابن غالب، المصدر السابق، ص ص: 20-21.
4- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ص: 233- 234.
5- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 179، 189، 191.
6- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 217.
7- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م5، ص ص: 25-26.
8- المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 152.
9 -الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 193، 194، 200، 206.
10- خالد البكر، النشاط الاقتصادي، ص: 135.
11 ابن العوّام الإشبيلي، الفلاحة، ج2، ص: 174.
12- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 137.
13- المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 152.
14- القلقشندي أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، ج5، القاهرة: دار الكتب الخديوية، 1915، ص: 228.

الرمّان بها[1]، وقد اشتهرت الأندلس بعدّة أنواع من الرمّان منها السَّفْرِي، الذي ذكرناه، والإمليسي والسِّحِّي وهو الدَّوَّاري والفَطِيْسي والمقْدسي والمرْسي والخَزايني والبُرجين وهذه كلّها حلوة الطعم، وهناك نوع اسمه المَرْويني جِرمه كبير ولحمه غليظ ولونه أحمر قان[2].

وكان النّخيل من بين الأشجار المجلوبة من المشرق إلى الأندلس، ويقال أنّ عبد الرحمن الداخل هو أوّل من غرس النّخل بالأندلس في موضع سمّاه الرُّصافة[3]، وغُرس النّخل في بعض الأماكن من الأندلس، ويذكر القزويني أنّ النّخل لا ينجح بجميع بلاد الأندلس إلّا بمدينة ألْش[4]، لأنّ "النّخل ينبت في الرّمل والسهل، وتوافقه الأرض المملوحة"[5]، ويزرع بالأندلس كذلك التّفاح الذي تكثر غراسته في غرناطة[6]، ومنطقة جبل شُلَّيْر[7]، وبسرقسطة التي "ربّما بيع فيها وَسْقُ القارب من التفاح بما تُباع به الأرطال اليسيرة في غيرها وذلك لكثرته"[8]، ويشتهر حصن جِلْيانة من أعمال وادي آش "بالتّفاح الجلياني الذي يتميّز بعظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنّقاء"[9].

وتغرس بالأندلس كذلك أشجار التوت، وذلك بغرض تربية دود الحرير لاستخراج الحرير من شرانقه، وتكثر غراسته في منطقة أَشْكُوني من كورة تُدْمِير، حيث يذكر الحميري أنّ أرضها تُنبت شجر التوت من غير غراسة ولا اعتمال[10]، وتكثر أشجار الزيتون في منطقة بَيْغُو الجبلية[11]، وتوصف مدينة وادي آش بموضع الحرير لكثرة التوت وانتاج الحرير بها[12]، وتعدّ مدينة جيّان من

1- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 234.
2- ابن العوام، الفلاحة، ج2، ص: 173.
3- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م3، ص: 48.
4- القزويني، آثار البلاد، ص: 502.
5- ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص: 343.
6- ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص: 137.
7- الزهري، الجعرافية، ص ص: 93-94.
8- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 96.
9- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 149.
10- الحميري، المصدر السابق، ص: 22.
11- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 235.
12- الرشاطي أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الأندلسي، إقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب

أشهر المدن الأندلسية في انتاج الحرير، حيث ذكر الإدريسي أنّ لها أزيد من ثلاثة آلاف قرية كلّها يربّى بها دود الحرير، وهذا ما يدلّ على الانتشار الكبير لمزارع التوت بها[1].

وتوجد بالأندلس كذلك أصناف كثيرة من الفواكه منها فاكهة الكمثرى التي كانت تزرع كثيرا في مناطق شرق الأندلس، حيث كانت تزرع في تدمير[2] وبلنسية التي بها كمثرى تسمّى الأرزة في قدر حبّة العنب، قد جمع مع حلاوة المطعم ذكاء الرائحة، إذا دخل دارا عُرف بريحه[3]، ويزرع بأحد حصون جبل شلّير من الكمثرى كل عجيبة، وذلك أنّ الكمثرى به يكون منها في وزن الحبّة الواحدة رطل أندلسي، وأمّا الأعمّ منها فكمثرتان في رطل واحد، ولها مذاق عجيب[4]، وانتشرت بالأندلس كذلك زراعة اللوز والجوز والقسطل خاصة في غرناطة[5]، وتنتشر زراعة الجوز أيضا في حصن فرّيرة أحد حصون جبل شلّير وجوزه لا يعدله في الكثرة والطعم شيء من الجوز في غيره من الأقطار[6]، كما زرعت أشجار الجوز في كورة إلبيرة[7]، واللّوز في دانية[8]، ويُزرع في بلنسية حَبُّ الملوك لا يزرع في غيرها من بلاد الأندلس، وهو يجود في أرضها[9]، وتزرع القَرَاصِيا البَعْلَبَكِيَّة في غرناطة، وهي تفوق قراصيا الدنيا منظرا وحلاوة حتى إنّها ليُعْصَر منها العسل![10]

ج-محاصيل أخرى:

اشتهرت الأندلس بزراعة محاصيل أخرى لها قيمة عظيمة في المجالات التجارية والصناعية، ويأتي القطن في مقدمة هذه المحاصيل[11]، حيث اشتهرت إشبيلية بزراعة القطن "الذي يحسن ويزكو

الصحابة ورواة الآثار، وضع حواشيه: محمد سالم هاشم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1999، ص: 115.

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 202.

2- العذري، ترصيع الأخبار، ص ص: 2، 8.

3- المقري، نفح الطيب، م1، ص: 179.

4- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 201.

5- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 137.

6 -الإدريسي، المصدر السابق، ص: 201.

7- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 12.

8- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص 434.

9- الزهري، الجعرافية، ص: 102.

10- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص: 216.

11- خالد البكر، التاريخ الاقتصادي، ص: 136.

في بقعتها، ويعمّ أثر بلاد الأندلس، ويجتاز به المتجهّزون إلى إفريقية وما هنالك"[1]، وبوادي آش الكثير من القطن[2]، وتنتشر مزارع القطن الكثيرة بالرَّندة[3]، بالإضافة إلى القطن فقد ازدهرت بالأندلس زراعة الكتّان خاصة في كورة إلبيرة التي يربو كتّانها على كتّان النيل، ومنها يحمل إلى أقاصي بلاد المسلمين، كما يكثر الكتّان في منطقة جبل شلّير حتى أنّ كتّانه يفضّل على كتّان الفيوم [4]، ويجود الكتّان في مدينة أَنْدَة[5]، وتختصّ مدينة لَارِدَة بكثرة الكتّان وطيبه، ومنها يتجهّز بالكتّان إلى جميع نواحي الثغر[6].

وانتشرت بالأندلس كذلك زراعة قصب السكر الذي يحسن بسواحل إشبيلية[7]، وفي كورة إلبيرة[8]، ويجود قصب السكر في شلوبينية[9] والمنكّب[10] وفيه يُعتصر قصب السكر ويُعمل منه السكر ويقوم بكفاية الأندلس[11]، وتوافق غِراسة قصب السكر الأرض المتطامنة الشمسية بمقربة من الماء، والأرض الرّملة الرَّطبة على شاطئ الأنهار، وكذا الأرض المالحة[12]، ولذا نرى أنّ زراعة قصب السكر تتركّز في مناطق جنوب الأندلس التي تتميّز بالرُّطوبة وارتفاع درجة الحرارة مقارنة بالمناطق الشمالية منها، أمّا بخصوص نبات الحلفاء فقد اشتهرت مدينة لقنت بزراعته ومنها يتجهّز بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر المتوسط[13].

1- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 96.
2- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 192.
3- ابن سعيد، المغرب، ج1، ص: 329.
4- الحميري، المصدر السابق، ص: 24، 112.
5- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 14.
6- الحميري، الروض المعطار، ص: 507.
7- العذري، المصدر السابق، ص: 96.
8- ابن غالب، المصدر السابق، ص: 282.
9- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 111.
10- الونشريسي، المعيار، ج 10، ص: 298.
11- العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص: 185.
12- ابن العوام، الفلاحة، ج2، ص: 433.
13- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 193.

د-التّوابل والأفاويه[1] والنباتات الطبيّة والعطريّة:

اشتهرت الأندلس بزراعة الزّعفران في الكثير من أقاليمها فيذكر الإدريسي أنّ بمدينة واد الحجارة من غلّات الزعفران الشيء الكثير، ويُتجهّز به منها ويُحمل إلى سائر العمالات والجهات[2]، ويجود الزعفران في بَاغُهْ إحدى مدن كورة إلبيرة[3]، وفي مدينة بلنسية ينبت الزعفران ويزكو بها[4]، ويكثر الزعفران في مدينة بيّاسة التي لا مثيل له في الجودة[5]، وفي طليطلة زعفران "متناهي الفضل تتفاوت جودته على كلّ زعفران"[6]، "ويتجهّز به منها الرّفاق إلى الآفاق"[7]، ويذكر ابن العوّام الإشبيلي أنّه غرس الزعفران في إحدى قرى إشبيلية "فجاء مجيئا صالحا"[8]، ويزرع الكمون والكراويا والشونيز وحب الرشاد كذلك بإشبيلية[9].

اشتهرت منطقة جبل شلّير بزراعة مختلف أنواع الأفاويه الهندية[10]، حيث تشبه عقاقيره عقاقير الهند، وعُشبه يستعمل في صناعة الأدوية[11]، ويزرع فيه سُنْبُل فائق الطِّيب[12]، وينبت السنبل الروميّ الطيّب في جبل مدينة شقورة، وفي إقليم الفُنْدون بقرطاجنّة الخلفاء ينبت السنبل في منتهى الجودة [13]، وبجبل أندة يوجد القَسْط الطيِّب المرّ المذاق[14]، وينبت بِلَبْلَة القرنفل الفاضل

1– **الأَفَاوِيه**: جمع أَفْوَاه، وهو ما أُعدَّ للطِّيب من الرياحين والبقول وغيرها، وهو أيضا ما يعالج به الطِّيب. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 3495.

2- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 189.

3- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ص: 12-13.

4- القزويني، آثار البلاد، ص: 513.

5- أبو الفدا، تقويم البلدان، ص: 177.

6- ابن غالب، المصدر السابق، ص: 17.

7 -المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 143.

8- ابن العوام، الفلاحة، ج4، ص: 209.

9- ابن العوام، المصدر نفسه، ص ص: 9، 13، 16، 17.

10- المقري، المصدر السابق، ص: 200.

11- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص: 216.

12- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 98.

13- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ص: 105، 151.

14- ابن غالب، المصدر السابق، ص: 37.

ويجود بها العُصْفُر[1]، كما زرعت مختلف الأفاويه والعقاقير في جبل شيبة بمدينة قَبْرة[2]، وفي جبل الثّلج بغرناطة الذي توجد "على ذروته في الصيف أجناس الأفاويه وضروب العقاقير"[3]، وأفضل أنواع الأفاويه هو المَحْلَب وهو نوع من "الأشنان لا يوجد في شيء من الأرض إلّا بالهند وبالأندلس"[4]، ومن العقاقير الطبيّة الموجودة في الأندلس المرّ الطيّب الذي يوجد بجبال قلعة أيوب، والكهرباء في بشذونة وهي أطيب كهرباء الأرض، وهاتان المادتان الصمغيتان تدخلان في تحضير الأدوية والعقاقير، ويوجد في جزيرة سَطِين الزَّبد النفيس المصمّغ الطرفين، ويُجلب نبات الجنطيانا – وهو عقار رفيع– من لبلة ومنها يُحمل إلى جميع الآفاق[5]، وينبت في جبل شقورة نبات الأشْقَاقُل الذي يفوق غيره في الجودة[6]، ويوجد في ناحية دلّاية العود وهو عود التَّجُوج لا يفوقه العود الهندي ذَكاء وعطرا ورائحة[7].

وتَنبت في الأندلس مختلف أنواع الأزهار والرياحين والأحباق، منها ما هو برّي ومنها ما تتمّ غراسته، وقد ذكر ابن العوام الإشبيلي أنواعا كثيرة من الرياحين والأزهار التي كانت تستعمل لأغراض طبيّة ولصناعة العطور وللزّينة، منها الخِيري والسَّوْسَن والنَّيْلُوفَر والبهار والنّرجس والنّسرين والأَذَرْيُون وغيرها[8]، وتكثر النواوير وأصناف الأزاهر في جبل شيبة الذي بمدينة قبرة، ويُقطف فيه النّرجس والورد[9]، وفي جبل شقورة ينبت الورد الذَّكيّ العَطر[10]، ويزرع البنفسج في إشبيلية وقرطبة[11]

1- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 169.
2- الحميري، المصدر نفسه، ص: 149.
3- القزويني، آثار البلاد، ص: 547.
4- المقري، نفح الطيب، م1، ص: 200.
5- البكري، المسالك والممالك، ص: 896.
6- الحميري، المصدر السابق، ص: 105.
7- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 37.
8- ابن العوام، الفلاحة، ج5، ص: 33.
9- الحميري، المصدر السابق، ص: 149.
10- الحميري، المصدر نفسه، ص: 105.
11- ابن العوام، المصدر السابق، ص: 63.

وينبت البري منه في جبل شنترة[1]، ويكثر الحَبَق بالمرية وقادس وشلطيش[2]، ويكثر نبات حبق الراعي أو المَرْزَنْجوش بجهة طليطلة[3]، وينبت البابونج في طليطلة وقرطبة وإشبيلية[4].

2-المعادن والأحجار الكريمة:

تزخر الأندلس بثروة معدنية هائلة، حيث لا يكاد يخلو إقليم من أقاليمها من شتّى أنواع المعادن وحتى الأحجار الكريمة، حيث استغلّها المسلمون منذ فتحهم للأندلس، واعتمدوا في عملية استخراجها على السكّان المحليّين، وأخذوا عنهم الخبرة في استخراج هذه المعادن والأحجار النفيسة، وتعلّموا طريقة تصفيتها وتنقيتها من الشوائب وصقلها.

أ-المعادن:

تنتشر المناجم في العديد من أقاليم الأندلس، وذلك بغرض استخراج المعادن القيّمة الموجودة في الصخور والجبال، ومن الأهم المعادن الموجودة بالأندلس:

-الذّهب: وهو من أغلى المعادن الموجودة في الأندلس، وكان يُستخرج بكثرة من مجاري الأودية ومصبّات الأنهار، وكان يُجمع من وادي لاردة الكثير منه[5]، ويُلتقط الذهب والتِّبْر من مَصبّ نهر تاجُه في المحيط الأطلسي قبالة مدينة لشبونة[6]، ويُلقط من نهر حَدَارُه الذي يشقّ مدينة غرناطة "سُحالة الذّهب الخالص"[7]، ويُعرف "بالذّهب المدني"[8]، وهو ذهب أحمر "ليس في الأرض أطيب منه، ...وهذا الذّهب إذا اجتمع منه فإنّه يُباع مِثقاله زائدا على جميع الذّهب بالرُّبع والخُمُس"[9].

1- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 113.
2- أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب، ج1، ص: 158.
3- أبو الخير الإشبيلي، المصدر نفسه، ص: 162.
4- المصدر نفسه، ص: 69.
5- الزهري، الجعرافية، ص: 82؛ البكري، المسالك والممالك، ص: 897؛ الرشاطي، إقتباس الأنوار، ص: 95.
6- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 184.
7- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م4، ص: 195.
8- الحميري، الروض المعطار، ص: 45.
9- الزهري، المصدر السابق، ص ص: 95-96.

ويكثر الذّهب في كورة إلبيرة[1]، ويُحمل منها إلى "سائر بلاد الأندلس"[2]، ويذكر الحميري أنّه يوجد معدن الذّهب على مقربة من مدينة فُرْنَجولُش التي تقع بالقرب من حصن المدوّر[3]، وتوجد مناجم الذّهب أيضا في مدينة شانت ياقوب[4]، وفي حصن المعدن الذي يقع قرب مدينة لشبونة يَقذف البحر عند هيجانه هناك بالذّهب والتّبر، ويقوم أهل تلك البلاد في زمن الشتاء بجمع الذّهب وتصفيته وتنقيته حتى ينقضي الشتاء[5].

-الفضّة: وتأتي بعد الذّهب من حيث القيمة والأهمية، وهي من المعادن المشهورة والكثيرة في الأندلس، حيث تتواجد مناجم الفضّة بكثرة في جبال حمَّة بجّانة[6]، وتوجد معادن الفضّة بساحل تدمير حيث كان يستخرج منها "كل يوم ثلاثون رطلا"[7]، ويوجد معدن الفضّة أيضا بناحية إلبيرة[8]، إلّا أنّه "قليل وطيّب"[9]، ومن إلبيرة تُحمل الفضّة إلى "سائر بلاد الأندلس"[10]، وعلى مقربة من مدينة فُرْنَجولُش توجد معادن الفضّة بموضع يعرف بالمرْج[11]، وتوجد أيضا في جبال قرطبة[12]، وفي جهة إشبيلية[13]، ويوجد بإقليم كُرْتِيش من أعمال قرطبة "معدن فضّة جليل"[14]، وفي قطر لَوْشَة

1- الأصطخري، المسالك، ص: 44؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 12.
2- القزويني، آثار البلاد، ص: 502.
3- الحميري، الروض المعطار، ص: 440.
4- ابن سعيد المغربي، المغرب، ج2، ص: 473.
5- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 184.
6- البكري، المسالك والممالك، ص: 898.
7- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 02.
8- الأصطخري، المصدر السابق، ص: 44.
9- الحكيم أبو الحسن علي بن يوسف، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكّة، تح: حسين مؤنس، مجلّة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مدريد، المجلد 5، العدد 1-2، 1958، ص: 23.
10- القزويني، المصدر السابق، ص: 502.
11- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 207.
12- القزويني، المصدر السابق، ص: 552.
13- الحكيم، المصدر السابق، ص: 23.
14- البكري، المصدر السابق، ص: 898.

من أعمال غرناطة معدن الفضّة الجيّد[1]، وتوجد بمرسية كذلك "معادن فضّة غزيرة متّصلة المادة"[2].

-الحديد: وهو من المعادن المنتشرة في الأندلس، ويتواجد الحديد في إلبيرة[3]والمرية[4]، ويُستخرج الحديد من بجّانة[5]، ووادي آش[6]، وفي جبال طليطلة[7]، ويكثر في جبال حصن قسنطينة الحديد معدن الحديد الطيّب المتّفق على طيبه وكثرته، ومنه يُتجهّز به إلى جميع أقطار الأندلس[8]، ويُجلب من الموضع المسمّى بُرت ياقَة القريب من مدينة برشلونة الحديد المسمّى بالشَّلْق، وهو حديد أسود تُعمل منه آلات الحرب[9]، ويتواجد الحديد كذلك في بلنسية[10]، وفي مدينة فِرِّيش التي تقع قرب قرطبة وهي أكثر البلدان معادن الحديد[11].

-النّحاس: وهو من المعادن الكثيرة بالأندلس خاصة في الإقليم الشمالي منها، حيث يُستخرج منه أجود أنواع النّحاس وهو الصُّفْر الذي يكاد يُشبه الذّهب[12]، ويُستخرج النّحاس كذلك من جبال طليلطة[13]، كما تنتشر معادن النّحاس في إلبيرة[14]، وبجّانة[15]، وأكشبونة[1]، وكان النّحاس يُستخرج من مناجم حجر النار في إقليم وَلْبة[2].

1- المقري، نفح الطيب، م1، ص: 148.

2- الحميري، الروض المعطار، ص: 539.

3- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 12.

4 -المقري، نفح الطيب، م1، ص: 162.

5- شيخ الربوة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر، لايبزيغ، 1923، ص ص: 242-243.

6- لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، جمعه: أحمد مختار العبادي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1983، ص: 88.

7- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 188.

8- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 207.

9- الزهري، الجعرافية، ص: 104.

10- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 14.

11- ابن غالب، المصدر نفسه، ص ص: 18-19.

12- المقري، المصدر السابق، ص: 200.

13- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 188.

14- ابن غالب، المصدر السابق، ص: 12.

15- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 39.

-الرصاص والقصدير: وهي من المعادن المتوفّرة في الأندلس[3]، ويوجد معدن الرصاص في جبال طليطلة[4]، وبساحل تدمير[5]، وفي إلبيرة[6]، وبمدينة بَرْجَة وهي من أعمال المرية[7]، ويوجد كذلك في مدينة قبرة[8]. أمّا القصدير فيوجد بناحية إفرنجة وليون، وبأكشبونة معدن القصدير لا نظير له في الجودة ويشبه الفضّة[9].

-الزئبق: وهو كثير جدّا بالأندلس، حيث كان يُستخرج من عدة مناطق: منها حصن مِسْطاسَة من عمل قلعة أُورِيط[10]، ويُستخرج الزّئبق كذلك من موضع يسمّى بَطْروش بالقرب من قرطبة، ويُجلب إلى جميع الأقطار[11]، ويستخرج الكثير منه من جبل البرانس[12]، ويوجد الزئبق الجيّد الغزير المادة، لا ينقطع، في جبال متّصلة بحصن البلوط، ومنه ينتشر إلى كل الآفاق[13]، وبشمال قرطبة في منطقة حصن أبال يُستخرج الزئبق ويُحمل إلى جميع أقطار الأرض، ونظرا لكثرة هذا المعدن فقد خصّص لاستخراجه أزْيَد من ألف رجل، بعضهم يقوم بالنزول وقطع الحجر، وبعضهم يقوم بنقل الحطب لحرق المعدن وإذابته وسبكه، والبعض الآخر يقوم بإيقاد النار وتشغيل الأفران للحرق، وكان عمق الحفرة التي يُستخرج منها أكثر من مائتي وخمسين قامة[14]، ولهذا تعتبر الأندلس من

1- أرسلان شكيب، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج1، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص: 183.

2- كولان، الأندلس، ص: 104.

3- البكري، المسالك والممالك، ص: 898.

4- الأصطخري، المسالك، ص: 42.

5- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 02.

6- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 98.

7- ابن سعيد المغربي، المغرب، ج2، ص: 228.

8- أرسلان شكيب، الحلل السندسية، ص: 183.

9- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 143.

10- البغدادي صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، م3، تح وتع: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، ط1، 1992، ص: 1270.

11- الزهري، الجعرافية، ص: 87.

12- البكري، المسالك، ص: 898.

13- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 18.

14- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ص: 213-214.

أشهر المناطق إنتاجا للزئبق في العصر الوسيط، ومنها يصدّر إلى سائر بلاد الإسلام والكفر[1]، وللزئبق استخدامات كثيرة أهمّها تنقية الذّهب[2].

-التُّوتْيا[3]: وهو معدن يُستعمل في صبغ النحاس[4]، ويوجد في إلبيرة[5]، وفي شلوبينية[6]، وبجبال قرطبة[7]، وتوجد في قرية بَطِرْنَة في ساحل إلبيرة أجود التوتيا التي فاقت جميع معادن التوتيا طيبا[8]، وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النّحاس[9].

-معادن أخرى: وتحتوي الأندلس على معادن أخرى كالإثْمِد[10] وهو الكُحل، ويوجد هذا المعدن بناحية مدينة طرطوشة، وهو مشبّه بالكحل الأصبهاني في الجودة، ومنها يُحمل إلى جميع البلاد[11]، ويوجد كذلك ناحية جبل شلّير بمنطقة بَسْطَة جبال الإثمد، ومنه يُجلب إلى المغرب[12]، وفي مدينة شَوْذَر يوجد معدن الكحل الإثمد، ويُقال أنّه يزيد مع زيادة القمر وينقص مع نقصانه[13]، ويستخرج معدن الإثمد من الجبل المعروف بأَطْرِيجَرْش، ويُعرف بالكحل الإثمد القرطجنّي، ومنه يُجلب إلى بلاد المشرق[14].

1- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 144.

2- كونستبل أوليفيا ريمي، التجارة والتجار في الأندلس، تع: فيصل عبد الله، الرياض: مكتبة العبيكات، ص: 280.

3- **التُّوتْيَا**: هو حجر معدني يدخل في المستحضرات الطبية، ويُستعمل دخانه في تخليص النحاس من الحجارة والرمل اللذين يخالطانه. ينظر: القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ليدن: مطبع بريل، ص: 214.

4- البكري، المسالك، ص: 898.

5- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 12.

6- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م1، ص: 244.

7- المقري، المصدر السابق، ص: 143.

8- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 199.

9- المقري، المصدر السابق، ص: 143.

10- **الإثمد**: هو حجر له معادن كثيرة يخالطه الرصاص، وهو ينفع العيون اكتحالا ويحسّنها، وأجوده هو الإثمد الأصبهاني. ينظر: القزويني، المصدر نفسه، ص: 210.

11- البكري، المصدر نفسه، ص: 898.

12- الزهري، الجعرافية، ص: 96.

13- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص: 243.

14- الزهري، المصدر السابق، ص: 80.

ويوجد بالأندلس أنواع عديدة من معدن الكبريت[1] منها الكبريت الأحمر والأصفر[2]، ويستخرج الكبريت من قرية حمَّة ببجّانة[3]، ويوجد الكبريت الأحمر في منطقة بَلْيارش قرب مدينة مرسية، ومنها يجلب إلى أقطار الأرض كلّها وإلى العراق واليمن والشّام وحتى إلى الهند[4].

وتوجد بالأندلس أيضا معادن الشَّبِّ والزَّاج[5]، حيث يوجد بمدينة لَبْلة عينان إحداهما تَنبعث بالشبّ والأخرى تنبعث بالزّاج[6]، وعلى مقربة من مدينة إشبيلية توجد عين الزّاج، حيث يَنعقد الزّاج على ضفّتي هذه العين[7]، ويوجد أيضا بمدينة كُونْكَة عين تَنبع بالشبّ وعين تَنبع بالزّاج[8].

وتحتوي الأندلس كذلك على معدن الزَّنْجَفَرْ[9] الذي يستخرج من بلد مَسطاسة[10]، ومن حصن أبال الذي يُتجهّز منه بالزنجفر إلى جميع الأقطار[11]، ويوجد أيضا بفحص قرطبة[12]، وبفحص البلوط[13]، ويوجد معدن الطَّفْل الأندلسي بجبال طليطلة[14]، في قرية تسمّى مَغَام، جبالها

1- يدخل الكبريت في علاج العديد من الأمراض خاصة الجلدية كالبرص والبهاق والقوباء، ويدخل كذلك في أعمال الذهب. ينظر: القزويني، عجائب المخلوقات، ص: 244.

2- البكري، المسالك، ص: 898.

3- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 39.

4- الزهري، الجعرافية، ص ص: 99، 31.

5- **الزَّاج**: وهو مادة كيميائية ملحية وكبريتية وحجرية على شكل مسحوق، تختلف ألوانها من حمرة وصفرة وخضرة والزرقة، يستخدم الأساكفة والصبّاغين الأصفر منه كصمغ، ويستخدم أيضا في الطب. ينظر: القزويني، المصدر السابق، ص: 226.

6- الحميري، المصدر السابق، ص: 168.

7- الزهري، المصدر السابق، ص: 88.

8- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص: 244.

9- **الزَّنْجَفَرْ**: هو حجر ذو لون أحمر مائل إلى الصفرة يستخدم في صباغة المنسوجات والأقمشة، كما يستعمل في علاج القروح والجراحات. ينظر: القزويني، المصدر السابق، ص: 228.

10- المقري، نفح الطيب، م1، ص: 455.

11- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 214.

12- شيخ الربوة، المصدر السابق، ص: 242.

13- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 18.

14- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 111.

وترابها الطِّين المأكول الذي ليس على قرارة الأرض مثله، يُتجهّز به منها إلى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراق والترك، وهو نهاية في لذاذة الأكل، ويستعمل في التنظيف وغسل الشَّعر[1].

واشتهرت الأندلس أيضا باحتوائها على عدّة مقاطع رخام لألوان شتّى من الخُمري والأحمر والأبيض والمجزّع[2]، حيث يوجد الرخام الأبيض الناصع والخمري بجبل قرطبة[3]، ويوجد الرخام الأبيض بحصن فرِّيش الذي به مقطع للرخام الرفيع الجليل، والرّخام الفرّيشي أجلّ الرخام بياضا وأحسنه ديباجا وأشدّه صلابة[4]، وتوجد مقاطع الرخام أيضا في إلبيرة[5]، حيث يوجد في مدينة قَسْطيليَّة إحدى أعمالها مقطع رخام لين أبيض[6]، ويوجد بناحية مدينة سَلبانيّة الرخام الأبيض الملكي الناصع[7]، ويقال أنّ أكثر مدينة سرقسطة مبني من الرخام الرَّخْوِ[8]، وببَاغُه بالقرب من غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة موشّاة في حمرة وصفرة[9]، وعلى مقربة من مدينة مرسية مضيق يُسمّى عين الأسْود، وهو شقّ في جبل من الرخام الأحمر له حافّتان عن يمين وشمال ارتفاع كل واحدة منهما خمسون قامة[10].

والملح من المعادن الموجودة في الأندلس، ويدخل في الاستعمالات اليومية، وتوجد مناجم الملح الصخري ورواسب الملح على الساحل في قادس والمرية ولقنت[11]، ويوجد في سرقسطة الملح

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 188.
2- أبو الفدا، تقويم البلدان، ص: 167.
3- المقري، نفح الطيب، م1، ص: 201.
4- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 207.
5- القزويني، آثار العباد، ص: 502.
6- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 12.
7- شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص: 243.
8- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 23.
9- المقري، المصدر السابق، ص: 201.
10- الزهري، الجعرافية، ص ص: 99-100.
11- كولان، الأندلس، ص: 104.

الذّراني، ويتميّز هذا الملح بأنّه ملح أبيض صاف وأملس وهو من أجود أنواع الملح[1]، وبجزيرة يابسة مَلَّاحة لا ينفذ ملحها لكثرته[2].

ب-الأحجار الكريمة:

اشتهرت الأندلس بأنواع عديدة من الأحجار الكريمة أشهرها الياقوت، وهو حجر صاف شفاف مختلف الألوان أحمر وأصفر وأخضر وأزرق، والأحمر هو أنفسها وأشرفها، وهو حجر قليل الوجود عزيز[3]، ويوجد هذا الحجر في ناحية حصن مُنْت ميور من عمالة مالقة، إلّا أنّه دقيق جدا لا يصلح للاستعمال لصغره[4]، ويوجد كذلك في ناحية مدينة بجّانة[5] في خندق يعرف بقرية ناشرة أشكال مختلفة من حجر الياقوت والذي يبدو كأنّه مصنوع، وهو حسن اللون صبور على النار[6]، ويوجد بالأندلس أيضا حجر اللازورد، وهو نوع من الأحجار الكريمة المشهورة، له رخاوة تزيده نبلا في أعين الناس، ويدخل كذلك في علاج أمراض العيون[7]، ويوجد اللازورد الجيّد بناحية لورقة من بلد تُدمير[8]، ويوجد أيضا في جبل شُلَّير[9].

ويوجد بالأندلس حجر البجادي بناحية مدينة أشبونة في جبل هناك يتلألأ فيه ليلا كالسُّرُج[10]، وهو حجر متعدّد الألوان والمشهور منه هو البنيّ القاتم، وقد يشبه الياقوت لكنّه رخيص إذا ما قورن بالأحجار الثمينة، ويوجد أيضا بناحية أشبونة جبل فيه معدن الجزع[11]، وهو نوع من العقيق اليماني مخطّط بخيوط بيض وزرق[12]، ويوجد بالأندلس حجر المَرْقَشِيتا، وهو حجر

1- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 22.
2- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 198.
3- القزويني، عجائب المخلوقات، ص: 241.
4- البكري، المسالك والممالك، ص: 897.
5- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 37.
6- المقري، نفح الطيب، م1، ص: 142.
7- القزويني، المصدر السابق، ص: 234.
8- البكري، المصدر السابق، ص: 897.
9- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 98.
10- البكري، المسالك، ص: 897.
11- القزويني، آثار البلاد، ص: 497.
12- عبد الرزاق بن أحمد بن حمدوش الجزائري، كشف الرموز في بيان الأعشاب، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1928، ص:52.

هشّ في نوعان أحدهما يشبه الذهب والآخر يشبه الفضّة، وفيه النحاسي والحديدي أيضا، وكل يُشبه ما شُبِّه به، ويسمّى أيضا حجر النور لمنفعته للبصر[1]، وتوجد المرقشيتا في جبال أَنْطاندة التي لا نظير لها في الدنيا، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها[2]، وتوجد المرقشيتا بأنواعها المختلفة كذلك في جبل شُلَّيْر[3].

وتحتوي الأندلس أيضا على أحجار أخرى كالمَغْنِيسْيَا وحجر الطَّلق[4]، ويوجد هذا الحجر بين الحجارة المتشققة، ويتورّق أوراقا براقة كالزجاج[5]، وحجر اليهودي وهو حجر على شكل البلوط، ومن خاصيته تفتيت الحصى التي تكون في المثانة والكِلية، ويوجد هذا الحجر في جبل على بعد خمسين ميلا من مدينة شنترين[6]، ويوجد أيضا في ناحية حصن البونت[7]، وحجر الشادنة أو شاذِنْج ويسمّى أيضا حجر الدم، له منافع طبيّة عديدة فقد سمّي حجر الدم لأنّه يقطع الدم المنبعث ويشفي الجروح وقروح العين[8]، ويستخرج هذا الحجر من جبال قرطبة[9]، ويوجد حجر المغناطيس الجاذب للحديد بموضع يُعرف بالصنهاجيين من كورة تُدمير[10]، إضافة إلى ذلك يوجد بالأندلس اللؤلؤ بناحية مدينة برشلونة، والمرجان في ساحل بحر إلبيرة من عمل المرية، حيث يستخرج منه في الشهر نحو ثمانين قنطارا[11].

3-الصناعة:

عرفت بلاد الأندلس تقدّما صناعيا كبيرا، تعود جذوره إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي للبلاد، حيث يذكر الإدريسي أنّه عندما فتح المسلمون مدينة طليطلة وجدوا فيها مئة وسبعين

1- ابن حمدوش، كشف الرموز، ص: 159.
2- البكري، المسالك، ص: 897.
3- ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص: 98.
4- البكري، المصدر السابق، ص: 897.
5- ابن حمدوش، المصدر السابق، ص: 62.
6- الحميري، الروض المعطار، ص: 33.
7- البكري، المصدر السابق، ص: 897.
8- القزويني، عجائب المخلوقات، ص: 228.
9- القزويني، المصدر نفسه، ص: 552.
10- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 38.
11- البكري، المصدر السابق، ص: 897.

تاجا من الذّهب مرصّعة بالدّر وأصناف الجواهر، ووجدوا بها ألف سيف مجوهر ملكيّ، كما وجدوا فيها من الدّر والياقوت وآنية الذّهب والفضّة الشيء الكثير[1]، وهذا ما يدلّ على ازدهار الصناعات بالأندلس قبل الفتح، خاصة الصناعات المعدنية.

ويذكر ابن خلدون أنّ رسوخ الصنائع في الأمصار إنّما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها، فالأمصار التي استبحرت في الحضارة لمّا تراجع عُمرانها وتناقص، بقيت فيها آثار الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، وهذا هو حال الأندلس التي فيها "رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة... كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو والآلات والأوتار والرقص وتضنيد الفرش في القصور، وحُسن الترتيب والأوضاع في البناء، وصوغ الآنية من المعادن والخَزف وجميع المواعين... وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده، فتجدهم أَقْوَم عليها وأَبْصَر بها، وتجد صنائعها مُستحكمة لديهم... وما ذاك إلّا لما قدّمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط، وما بعدها من دولة الطوائف وهلمّ جرا، فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قُطر"[2]، فالعرب لم يكونوا أهل صناعات وإنّما استعانوا بالسكان المحليّين في الأندلس بادئ الأمر، ثم شاركوهم في حرفهم وصناعاتهم حتى بلغوا في ذلك درجة كبيرة من الرقي والإتقان[3].

اهتمّت الدولة الأموية بالأندلس والدول التي تلتها بالصناعة اهتماما بالغا، بعد أن شاهدت الأوضاع التي وصلت إليها بقية الأقاليم من خلال الصناعة، فكان لوفرة عوامل النهوض الصناعي من مواد أولية وأيد عاملة أثر كبير في تطوّر الصناعة بالأندلس[4]، دون أن نغفل الدور الذي قام به حكّام الأندلس في تشجيع الصناعة ودعمها، فقد أدخل الأمير عبد الرحمن الداخل الكثير من الصناعات بالأندلس، فلم يكد أمره يستقرّ بها حتى أمر ببناء القصر بقرطبة، وبنى المسجد الجامع، وقد استعان في بنائه على جملة من الصنّاع لتزيّين باب مقصورة الجامع وجدار

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ص: 187-188.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص ص: 438-439.

3- المزايدة عمر زعل محمد، الحياة الاقتصادية في الأندلس في عهد الخليفة الناصر، رسالة دكتوراه في التاريخ، تحت إشراف: حسين فلاح الكساسبة، جامعة مؤتة، الأردن، 2009، ص: 117.

4- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص: 122.

المحراب بالذّهب والفسيفساء[1]، كما ساير عبد الرحمن الأوسط الازدهار الحضاري ببغداد، فشيّد القصور وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف، وبنى المساجد بالأندلس، وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطُّرُز واستنبط عملها، واتخذ السكّة بقرطبة، وفي أيامه دخل الأندلس نفيس الوطاء وغرائب الأشياء، وسيق ذلك إليه من بغداد وغيرها[2]، ولن يتمّ ذلك بطبيعة الحال إلّا بجلب العمّال والصنّاع.

وقام الخليفة الحكم المستنصر بإرسال وفد إلى ملك الروم لجلب الفسيفساء للمسجد الجامع، داعيا إلى مجيء الصانع لتركيبها، وعند مجيئه عمد إلى إرسال مماليكه مع الصانع ليتعلموا الصناعة، "فوضعوا أيديهم معه في الفسيفساء المجلوبة، وصاروا يعملون معه، فأبدعوا، وأرْمَوا عليه، واستمرّوا بعد ذلك مُنفردين دون الصانع القادم"[3]، يوضّح لنا هذا النص مدى اهتمام الخلافة بالصناعات في الأندلس، والعمل على وجودها فيها دون الحاجة إلى جلبها من مكان آخر، وهذا الاهتمام نجده من خلال كثرة المصانع التي انتشرت في أغلب مدن الأندلس، وكان لهذا الاهتمام دور إيجابي في تنشيط الموانئ الأندلسية، من خلال تصدير البضائع واستيراد ما يحتاجه الأندلسيون من البلدان الأخرى[4]، فتعدّدت وتنوّعت الصناعات في بلاد الأندلس، وظهرت العديد منها، ولعلّ من أبرزها:

أ-الصناعات النسيجية:

اشتهرت الأندلس بالصناعات النسيجية المميّزة، ويمكننا أن نصنّفها إلى نوعين، النوع الأول هو دُور الطِّراز التي أنشأتها الإمارة الأموية، وتعرف أحيانا باسم طراز الخاصة، وكان إنتاجها مقصورا على ما يحتاجه الأمير وأفراد أسرته ورجال دولته من الثياب والملابس[5]، وكان أوّل من أدخل الطراز إلى الأندلس حسب موريس لومبار هو عبد الرحمن الأوسط، وكان موقعه في القصر وذلك لإنتاج الأقمشة الفاخرة لسدّ حاجاته[6]، وسار على نهجه من جاء من بعده، وكان القائم

1- المقري، نفح الطيب، ج1، ص ص: 546-547.
2- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 91.
3- ابن عذاري، المصدر نفسه، ص ص: 237-238.
4- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص ص: 123-124.
5- المزايدة عمر، الحياة الاقتصادية، ص: 123.
6- لومبار موريس، الإسلام في مجده، ص: 127.

على دار الطراز هو موظف يسمّى صاحب الطراز، وكثيرا ما شغل هذا المنصب الصقالبة خاصة في عهد الخليفة الناصر[1]، وكان صاحب الطراز أيام الحكم المستنصر هو جعفر الفتى[2]، وانتقلت دُور الطراز من القصور إلى الأثرياء لتعمّ الأندلس كلها[3].

أمّا النوع الثاني من أنواع الصناعات النسيجية فهو طراز العامة، الذي انتشرت في عدد كبير من المدن الأندلسية، وتميّزت بإنتاج أنواع خاصة من المنسوجات، كالأقمشة الناعمة، ونسيج الحرير السميك، ومختلف أنواع الثياب والأكسية من الكتّان والقطن والحرير والخزّ وغيرها[4]، ومن أهم أنواع الصناعات النسيجيّة:

-المنسوجات الحريرية:

احتلّت صناعة المنسوجات الحريرية مكانة بارزة في المجتمع الأندلسي، وساعد على ذلك وفرة المواد الأولية اللازمة لهذه الصناعة، إذ اعتنى الأندلسيون عناية فائقة بتربية دودة القزّ، وزراعة أشجار التوت التي تشكّل مصدر الغذاء الرئيسي لها كما تقدمنا، وقد بذلت النساء الأندلسيات جهدا لا يستهان به في هذا المجال، فكنّ يساعدن في تحضين بيض دود الحرير ورعايته من شهر شباط فيفري إلى أن يفقس في شهر آذار مارس من كل سنة[5].

وقد حظيت المرية منذ تأسيسها بشهرة عالمية في صناعة المنسوجات الحريرية، فإليها انتقلت صناعة الحرير التي ازدهرت في بجّانة إبّان القرنين الثالث والرابع للهجرة، كما ورثت أيضا قرطبة حاضرة الخلافة في صناعة الوَشْيِ والدِّيباج، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية واضمحلال قرطبة في عصر الفتنة[6]، فقد ذكر ياقوت الحموي فيما يختصّ بصناعة الوشي والديباج بالمرية أنّه: "يعمل بها الوشي والديباج فيُجاد عمله، وكانت أوّلا تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يُثْقَف في

1- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 223.
2- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 387.
3- لومبار موريس، الإسلام في مجده، ص: 127.
4- المزايدة عمر، الحياة الاقتصادية، ص: 124.
5- القرطبي أبو الحسن عريب بن سعيد الكاتب، التقويم في قرطبة، ليدن: بريل، 1961، ص ص: 33، 41.
6- سالم عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية، ص: 155.

الأندلس من يُجيد عمل الدِّيباج إجادة أهل المرية"[1]، ويذكر الإدريسي أنّه كان بمدينة المرية أيام المرابطين من "طُرُز الحرير ثمانمائة طراز، يعمل بها الحُلَل والدِّيباج والسَّقْلاطون والأصبهاني والجرجاني والسُّتور المُكلّلة والثياب المُعيّنة والخُمَر والعتّابي والمَعاجِر وصنوف أنواع الحرير"[2]، ويذكر ابن سعيد المغربي نقلا عن ابن فرج أنّه: "حَدَث فيها (أي المرية) من صنعة الوَشْيِ والدّيباج على اختلاف أنواعه، ومن صنعة الخَزِّ وجميع ما يعمل من الحرير، ما لم يُبْصَرْ مثله في المشرق ولا في بلاد النصارى"[3]، فكانت المرية بذلك مفتاح الرزق والكسب وموطن الحُذّاق وأصحاب الصناعات[4]، وكانت منسوجاتها الحريرية والأَرْدِيَّة المعمولة ببجّانة تُصدَّر إلى مصر ومكّة واليمن وغيرها[5].

واشتهرت قرطبة بصناعة الأقمشة الناعمة، والمنسوجات الحريرية السميكة وغيرها[6]، وأشاد ابن حوقل الذي زار الأندلس في القرن الرابع للهجرة عن ما اختصّت به الأندلس من الصناعة الحريرية وتفوّق أهلها في صناعتهم عن أهل العراق[7]، وهذا ما جعل الحكم المستنصر يفتخر بما يُحاك له في بلد الأندلس من الخزّ والوشي وأصناف الثياب التي لا يحاك بمثلها في المشرق، واستغنى بذلك عمّا يُجلب إليه من المشرق[8]، وكانت منتجات دار الطراز بقرطبة ممّا يُهادى به، فعبد الرحمن الناصر كان يَخلع على قواد البربر دَرَارِيع الديباج والخز، وعمائم الشُرَب المذهّبة، وكان الحكم المستنصر يهادي أمراء البربر بالعدوة كثيرا من فاخر الكسوة، وكان المنصور بن أبي عامر يهادي ملوك النصارى ومن حسن بلاؤه من جنوده في الحروب والغزوات بفاخر أنواع المنسوجات من

1- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص: 119.

2- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 197. للتعرّف أكثر على أنواع المنسوجات الحريرية، ينظر: سالم عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية، ص ص: 157-158.

3- ابن سعيد المغربي، المغرب، ص ص: 193-194.

4- سالم عبد العزيز، المرجع السابق، ص: 156.

5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 109.

6- سالم سيد عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ص: 154.

7- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 109.

8- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، تح: الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليغلاوي، بيروت: دار المنتظر، ط1، 1996، ص: 180.

صناعة دار الطرز بقرطبة[1]، حيث يذكر ابن عذراي أنّه وزّع في غزوة شنت ياقب "ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شُقَّة من صنوف الخزِّ الطِّرازيّ، وإحدى وعشرين كساء من صوف البحر، وكساءين عَنْبَريّين، وأحد عشر سِقْلاطُونا، وخمس عشرة مُرَيَّشات، وسبعة أنماط ديباج، وثوْبَيْ ديباج رومي، وفَرْوَي فَنَك"[2].

وتصنع المنسوجات الحريرية والطرز الشريفة أيضا في جيّان[3]، ويُصنع في مرسية من أصناف الحُلَل والدّيباج الشيء الكثير[4]، واختصّت كل من مالقة ومرسية بصنع ثياب الحرير الموشّاة بالذّهب ذات الصنائع الغريبة[5]، والمرية التي فيها مصنع للحلل المَوْشِيَة النفيسة[6]، وكان يُعمل فيها الدّيباج المحكم الصَّنْعة مثل العَداديات، وثياب السُّنْدُس الأبيض، وهو ديباج أبيض كلّه، وفيها اسْتُنْبِطَت الثياب المعروفة بالخُلْدِي، ليس في ثياب الحرير كلّها أتمّ منها مجالا ولا جمالا، لذلك سُمّيت بهذا الاسم وهو مشتقّ من الخُلْد[7]، كما اشتهرت غرناطة وبَسْطَة بصنع نوع من الثياب الحريرية يُعرف بالمُلبَّد المُختَّم، وهو ذو ألوان عجيبة[8].

-المنسوجات القطنية والصوفية والكتّانية:

برع الأندلسيون في صناعة المنسوجات القطنية والصوفية والكتّانية، وذلك نظرا لتوفّر المواد الخام، فقد انتشرت مزارع القطن والكتّان في مناطق عديدة بالأندلس، إضافة إلى توفّر الأندلس على ثروة حيوانية لا بأس بها، وتوفّرها على الأيادي العاملة من أصحاب المهن والصنّاع المهرة، واشترك الرجال والنساء في غزل وحياكة الصوف والقطن والكتّان، حيث كان غزلهم يقارب في

1- سالم عبد العزيز، قرطبة، ص: 155.
2- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 297.
3- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 13.
4- ابن سعيد المغربي، المغرب، ج2، ص: 245.
5- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 140.
6- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 220.
7- الزهري، الجعرافية، ص ص: 101-102.
8- المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 201.

جودته الحرير[1]، وكان أكثر صناعة النساء الغزل، وأكثر صناعة الرجال الحِياكة[2]، وكان لهؤلاء الحاكّة أسواق خاصة يقصدها الناس[3].

اشتهرت إشبيلية بزراعة أجود أنواع القطن، فكانت منسوجاتها القطنية تُحمل منها إلى جميع نواحي الأندلس والمغرب، "ويجتاز بها المتجهّزون من التجّار إلى إفريقية وما هنالك"[4]، كما انتشرت صناعة وغزل الصوف في الأندلس، وذلك لوفرة الأغنام والمراعي، وقد تفوّقت المنسوجات الصوفية الأندلسية على المنسوجات الأرمنيّة، وفاقتها في الحسن والجودة والصباغة[5]، ويذكر ابن حوقل أنّه كانت تصنع بالأندلس لُبُودٌ[6] مرتفعة ثمينة من الصوف، لا تضاهيها لبود على وجه الأرض، وكان يُعمل منها للأمراء والحكام "لبود ثلاثينيّة يُقَوَّمُ اللَّبد منها بالخمسين والستين دينارا، غير أنّه قد جُعل عروضها خمسة وستة أشبار فهي من محاسن الفَرش"[7]، ويبدو أنّ هذه اللُّبْد كانت تُنسج من خيوط الصوف، وتزيّن بخيوط الذّهب والفضّة والجواهر للأمراء والأثرياء.

وكان أهل الأندلس يرتدون وقت المطر رداء يُعرف بالمَمْطَرِ، وهو ثوب صوف يُتوقّى به من المطر[8]، وكانوا يرتدون في الشتاء ثوبا يُعرف بالمَلَفِّ[9]، وهو ثوب حسن العمل مصنوع من الصوف متقن الصنع يباهي ثياب الخزّ[10]، وتُعمل بمدينة قَلْشانة ثياب تُعرف بالقَلْشَانِيَّة مُخترعة

1- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص: 127.

2- الزهري، الجعرافية، ص: 102.

3-ابن عبد الرؤوف أحمد بن عبد الله، رسالة ابن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحتسب، نشرت ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص: 104.

4- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 96؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، م1، ص: 195.

5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 109.

6- **اللَّبِدُ**: جمع اللُّبُود، من البُسُطِ ما كان مصنوعا من الصوف، واللُّبْدُ كذلك ما يُوضَع تحت السَّرْج، وأَلْبَدَ السَّرْجَ: عمل له لِبْدًا. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص: 3985.

7- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 109.

8- ابن سعيد المغربي، المغرب، ج1، ص: 127.

9- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 134.

10- الزهري، المصدر السابق، ص: 76.

الصنع غريبة العمل[1]، وتُصنع بمدينة كُونْكَة من الأَوْطِيَّة كلّ غريبة، وهي فُرش متَّخذَة من الصوف[2].

أمّا المنسوجات الكتّانية فكانت تُنسج في بلنسية الثياب الغالية من الكتّان[3]، ومنها تُسفَّر لأقطار المغرب[4]، وتُعمل ببجّانة أردية من الكتّان فتُحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها، وكانت تُصنع من الكتّان ثياب للعامّة وللحكّام تضاهي الثياب الدَّيْبَقيّة المصرية[5]، وقامت بِبَاجَة مراكز لصناعة الكتّان أيام حكم بني عبّاد[6]، "وصنعت في حصن بَكِيران قرب مدينة شاطبة ثياب بيض تُباع بالأثمان الغالية، ويعمّر الثوب منها سنين كثيرة، وهي من أبدع الثياب عَتاقَة ورِقَّة، حتى لا يُفَرَّق بينها وبين الكاغد (الورق) في الرقة والبياض"[7]، واشتهرت كل من قرطبة[8] وإلبيرة[9] ولاردة[10] بصناعة المنسوجات الكتّانية من ثياب وأكسية وغيرها.

ب-الصناعات المعدنية:

-الصناعات الذّهبية والفضّية: استغلّ المسلمون في الأندلس مناجم الذّهب والفضّة في الكثير من الصناعات واستخدموها في صناعة الحليّ وفي تزيين المساجد والقصور، وفي صناعة الأواني والتحف الفنية.

فكانت الحليّ تشكّل وتصاغ وفقا للأساليب الفنية القوطية التي كان يحتفظ بها المعاهدة من النصارى، أو الأساليب الشرقية وعلى الأخص الطراز العراقي، حيث كان تجّار الحليّ والصّاغة

1- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 163.
2- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 195.
3- الزهري، الجعرافية، ص: 102.
4- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 221.
5 -ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 109.
6- المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 159.
7- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 192.
8- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 108.
9- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص: 244.
10- الحميري، المصدر السابق، ص: 168.

المشارقة يفدون إلى قرطبة لبيع مجوهراتهم للأمراء والخلفاء[1]، ويذكر ابن عذاري أنّه وفد على المنصور بن أبي عامر تاجر جواهر من عَدَن بجوهر كثير وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى التاجر ماله[2]، وكانت سوق الذهب رائجة في الأندلس، وكان الصاغة ومعظمهم من اليهود يشتغلون بصياغة الحليّ في منطقة تعرف بالصّاغة، "وكانت علب المصاغ العاجية عند نساء الخاصّة من أهل الأندلس تمتلئ بالعقود المرصّعة باليواقيت والفصوص، والخواتم والأقراط والأساور والدُّملُج والخلاخيل والتيجان، والدلايات الذهبية المرصّعة باليواقيت والزمرّد"[3]، وكان الأمراء والخلفاء لا يبخلون على زوجاتهم وجواريهم بشيء من الحلي والجواهر، فيذكر ابن الأبّار أن الأمير عبد الرحمن الأوسط أمر لجارية من حظاياه بعقد جوهر كانت قيمته عشرة آلاف دينار[4]، وأعطى لجاريته طَرُوب، التي كان شديد الكلف بها، حليّا قيمته مائة ألف دينار[5].

واستعمل الذهب والفضّة في تزيّين المساجد والقصور، وقد أطنب المؤرخون والجغرافيون في وصف مسجد قرطبة، حيث يذكر الإدريسي أنّه: "ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقا"[6]، وقد زيّن مسجد قرطبة بالذّهب والفضّة ومختلف أنواع الجواهر، فيذكر البكري أنّ قباب مقصورته مذهّبة وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء، وثريات المقصورة فضّة محضة[7]، وكان باب المقصورة من ذهب مضروب، وطول الباب وأوصاله من فضّة[8]، ويوجد عن شمال المحراب بيت فيه عُدَد وطُشوت ذهب وفضّة تستعمل لإيقاد الشموع في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم، وتوجد في أعلى القبّة تفّاحات مصنوعة من الذّهب والفضّة، تَسَعُ الكبيرة منها ستّين رطلا من الزيت[9]، لعلّها كانت تستعمل لإيقاد السُّرُج.

1- سالم عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة، ص: 144.
2- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 291.
3- سالم عبد العزيز، المرجع السابق، ص: 144.
4- ابن الأبّار، الحلة السيراء، ج1، ص: 116.
5- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 349.
6- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 208.
7- البكري، المسالك والممالك، ص: 901.
8- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 26.
9- الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 210، 212.

أمّا عن القصور فقد كان بمدينة الزهراء قصر يُقال له مجلس القَلْبَق حيطانه من الذهب والزجاج[1]، وقراميده من ذهب وفضّة[2]، كما اشتهرت الأندلس بصناعة التماثيل والتحف الفنية من الذهب والفضة الخالصة، التي كانت تزين بها القصور والأحواض والنافورات، فكان بمدينة الزهراء حوض منقوش مذهّب بالتماثيل، حيث كان عليه اثنا عشر تمثالا من الذّهب الأحمر مرصّع بالدّر النفيس العالي ممّا صنعه بدار الصَّنعة بقصر قرطبة[3]، كما استعمل الذهب والفضّة في تزيين الأسلحة والسرج والملابس والرايات والبنود، ونفهم من ذلك أنّ الأندلسيون برعوا في الصياغة وصناعة التحف الفنية الجميلة وغيرها من خالص الذهب والفضّة.

-الصناعات الحديدية والنحاسية والبرونزية:

يعدّ الحديد من أكثر المعادن استخداما في المجالات الصناعية، وكان سببا في ازدهار الصناعة في الأندلس لتوفّره في مدن عديدة من الأندلس[4]، حيث استخدم الحديد في صناعة الأبواب سواء أبواب البيوت أو القصور أو الأبواب الضخمة التي تستخدم لحماية وتحصين المدن والحصون، فكان لمدينة قرطبة سبعة أبواب من حديد[5]، وكان لمدينة طرطوشة أربعة أبواب كلّها ملبّسة بالحديد[6]، وصنع الحدّادون آلات الحدادة كالمزاليج والمفصلات[7] والمسامير[8] والصُّنوج الحديدية[9]، وآلات الحرب كالدّروع والسيوف والبيضات والرماح[10]، وتميّزت بعض مدن الأندلسي بصناعة الآلات والعُدَد الحديدية، فاشتهرت مدينة شلطيش بصناعة الحديد الذي يعجز عن صنعة

1- الزهري، الجعرافية، ص: 87.

2- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 31.

3- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 231.

4- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص: 124.

5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 108.

6- الحميري، الروض المعطار، ص: 391.

7- سالم عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة، ص: 135.

8- السَّقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي، آداب الحسبة، اعتنى به: كولان وليفي بروفنسال، باريس، ص: 72.

9- ابن عبدون، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، نشرت ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص: 40.

10- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 55.

أهل البلاد لجفائه[1]، وتعمل الدّروع والبَيْضات الرّشيقة وآلات النحاس والحديد في مدينة وَشْقَة التي اشتهرت بأنّها دار صنعة[2]، واشتهرت إشبيلية بصناعة الفولاذ عالي الجودة[3].

أمّا الصناعات النحاسية والبرونزية فتعدّدت بالأندلس، فقد برع الأندلسيون في صناعة التحف الفنية النحاسية والبرونزية من قناديل وشمعدانات وثريّات وتماثيل والمباخر وغيرها، حيث يذكر الإدريسي أنّ لجامع "قرطبة عشرين بابا كلّها مصفّحة بصفائح النّحاس وكواكب النّحاس وفي كل باب منها حلقتان في نهاية الإتقان"[4]، و"فيه تَنُّور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح"[5]،كما كانت أبواب الجوامع تكسى بصفائح من البرونز على غرار مصراعي باب جامع إشبيلية الموحدي[6]، وقد عثر بأرضية أحد منازل قرطبة على ثلاثة عشر تحفة من البرونز والنحاس الأصفر، أهمّها مبخرة من النحاس مزدانة برسوم حيوانية وطيور وزخارف نباتية، ومنها أيضا مهراس من البرونز مزيّن بزخارف بارزة مطروقة[7]، كما صنع الأندلسيون من البرونز تماثيل برونزية على هيئة حيوانات وطيور، كانت توضع حول البرك والأحواض تمجّ المياه من أفواهها، والتي اشتهرت في عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف[8]، وصنعوا من النحاس والبرونز أيضا الأدوات والأواني المنزلية كالأمقاص السكاكين[9]، والأسطال المتّخذة من الصُّفْر (وهو النحاس الأصفر)[10].

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 179.
2- الزهري، الجعرافية، ص: 82.
3- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 202.
4- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 210.
5- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 520.
6- سالم عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة، ص: 136.
7- سالم عبد العزيز، المرجع نفسه، ص: 137.
8- مورينيو مانويل جوميث، الفن الإسلامي في إسبانيا، تر: السيد عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ص: 400.
9- المقري، المصدر السابق، ص: 201.
10- الزبيدي أبو بكر محمد بن حسن بن مذحج، لحن العوام، تح: رمضان عبد التواب، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 2000، ص: 120.

ج-صناعة السفن:

توفّرت بالأندلس المواد الضرورية لصناعة السفن، كالخشب الصنوبري القويّ الذي تصنع منه ألواح السفن والصواري والقرى والمجاديف، وخشب الطَّخْش لصناعة القسي والسلاليم وبعض الرماح والتروس، ومعدن الحديد اللازم لعمل المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف والكلاليب والعرّادات، والقطران والزفت لقلفطة السفن حتى لا تؤثر المياه في ألواحها المغمورة في البحر، والقطران والكبريت اللازمان لصناعة النفط البحري الذي لا ينطفئ إذا سقط في الماء، وغيرها من المواد اللازمة لصناعة السفن وحمايتها[1].

وكانت أخشاب السفن في الأندلس تجلب من أشجار الصنوبر خاصة من صنوبر جبال طرطوشة الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ، فهو خشب يتميّز بلونه الأحمر الصافي الدَّسم، لا يتغيّر سريعا ولا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره من الخشب، وتُتّخذ منه المراكب الكبار والصواري والقرى[2]، ويجلب خشب الصنوبر كذلك من قادس[3]، ومن صنوبر حصن قَلْصة الذي يحمل إلى دانية وبلنسية[4]، وصنوبر شلطيش الموصوف بالجودة[5]، وصنوبر جزيرة يابسة الجيّد العود[6].

لم يكن للمسلمين منذ افتتاح الأندلس أسطول بحري حربي منظم، وذلك لاشتغال أمراء بني أمية في إخماد الثورات الداخلية ومجابهة الممالك النصرانية في الشمال، إلى أن فوجئت البلاد بالغارة النورماندية في سنة 229هـ/843م، (ينظر: الملحق رقم 06)، حيث نبّهت هذه الغارة الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى ضرورة الاهتمام بتحصين السواحل وعلى زيادة الاهتمام بالبحرية عن طريق إنشاء دور لصناعة السفن[7]، "فأمر بإقامة دار صناعة بإشبيلية، وأنشأ المراكب واستعدّ

1- سالم عبد العزيز والعبادي أحمد مختار، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، 1969، ص: 57.

2- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 190.

3- الحميري، الروض المعطار، ص: 448.

4- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 195.

5- الحميري، المصدر السابق، ص: 344.

6- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 198.

7- سالم عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية، ص ص: 33، 35.

برجال البحر من سواحل الأندلس فألحقهم، ووسّع عليهم، فاستعدّ بالآلات والنفط"[1]، ولا يسجّل هذا الأمر ميلاد البحرية الإسلامية في الأندلس، لأنّ البحرية كانت موجودة بالفعل منذ أيام الحكم الربضي، ولكنّه يسجّل تنظيما للبحرية الإسلامية، وحشدا لطاقات الأندلس في هذا المجال[2].

وشهدت الفترة التي حكم فيها الأمير عبد الرحمن الأوسط تطوّرا ملحوظا في صناعة السفن، حيث ابتنى دور صناعة للسفن في مناطق عدّة بالأندلس، وأنشأ كذلك دارا لصناعة الأسلحة اللازمة للسفن في مدينة قَرَمُونة[3]، ويبدو أنّ دور صناعة السفن هذه قد أنشأت عددا لا بأس به من السفن الحربية، حيث جهّز سنة 234هـ/848م أسطولا مكونا من ثلاثمائة مركبا لغزو جزيرتي مَيُورْقَة ومِنُورْقَة[4]، وفي سنة 266هـ/879م أمر ابنُه الأمير محمد بن عبد الرحمن بإنشاء المراكب بقرطبة ليتوجّه بها إلى البحر المحيط قائده ابن مغيث[5].

بلغت صناعة السفن خلال القرن 4هـ/10م مبلغا عظيما، حيث أولى عبد الرحمن الناصر اهتماما كبيرا بالأساطيل البحرية، فعمل على إنشاء أسطول قويّ يدفع به عن الأندلس الأخطار الخارجية المتمثلة في خطر الغزو الفاطمي والنورماندي وحتى العباسي[6]، حتى انتهى أسطول الأندلس أيامه إلى مائتي مركب أو نحوها، وكان قائد أساطيله هو ابن رماحِس[7]، وأرسل سنة 323هـ/934م أسطولا مكونا من أربعين مركبا، عشرين حرّاقات فيها النفط والآلات البحرية، وعشرين فيها الرجال المقاتلة، وكان عدّة ركّابه من الجند ألف رجل، ومن البحريّين ألفين، تحت قيادة القائد عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة[8]، وفي عهد الناصر ارتفعت مكانة المرية وأصبحت

1- ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص ص: 82-83.

2- سالم عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية، ص: 35.

3- سالم عبد العزيز وعبادي أحمد مختار، تاريخ البحرية، ص: 161.

4- ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح: محمود على مكي، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1994، ص: 144.

5- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص ص: 103-104.

6- سالم عبد العزيز وعبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص: 174.

7- ابن خلدون، المقدمة، ص: 287.

8- ابن حيان القرطبي، المقتبس، ج5، اعتنى بنشره: ب.شالميتا، تح: ف.كورينطي و م.صبح، مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، 1979، ص: 366.

أهم موانئ الأندلس وأشهر مراسيها وأعمرها، وكان خليجها العميق يضمّ معظم وحدات الأسطول الأموي في الأندلس[1]، كما كان مرفأها هو مرفأ الأندلس للحطّ والإقلاع[2]، وأنشأ عبد الرحمن بالمرية دار صناعة، وقسّمها إلى قسمين، القسم الأول تصنع فيه المراكب الحربية والآلة والعدّة، والقسم الثاني فيه القيسارية[3].

كما أنشأت دور لصناعة السفن في العديد من مدن الأندلس البحرية، على غرار مدينة دانية التي أنشأت بها دار لصناعة السفن، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق، ومنها يخرج الأسطول الحربي للغزو[4]، وتُنشأ أكثر المراكب في جزيرة يابسة وذلك لجودة خشبها[5]، وتنشأ المراكب السَّفرية والحراريق في مدينة لقنت[6]، وأنشأ المنصور بن أبي عامر أسطولا كبيرا في الموضع المعروف بقصر أبي دَانِس غرب الأندلس، وجهّزه برجاله البحريين وصنوف المرتجلين، وحمل الأقوات والأطعمة والعُدَد والأسلحة[7]، وسيّر هذا الأسطول في سنة 387هـ/997م، ليشترك في غزو مدينة شنت ياقب، فسارت السفن في نهر دويرة، وبفضل هذا الأسطول أغار المسلمون على جزيرة شنت مانكش وغيرها[8].

د-الصناعات الغذائية:

استفاد الأندلسيون من وفرة المحاصيل الزراعية في بلادهم، فاستغلوا قسما كبيرا منها في الأغراض الصناعية الأخرى، ومن هذه الصناعات الغذائية ما يتعلق بالأطعمة ونحوها، ومنها ما يتعلق بمستلزمات الحياة[9]، وقد عرف الأندلسيون صناعة ألوان مختلفة من الأطعمة، منها الجبن الذي اختصت بصناعته مدينة شريش، حيث يعتبر جبنها من أطيب وألذّ الأجبان[10]، وقد جدّد

1- سالم عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية، ص: 37.
2- ابن خلدون، المقدمة، ص: 287.
3- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 86.
4- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 192.
5- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص: 424.
6- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 193.
7- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 295.
8- سالم عبد العزيز والعبادي أحمد مختار، تاريخ البحرية، ص: 188.
9- البكر خالد بن حمود، التاريخ الاقتصادي، ص: 202.
10- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 184.

زرياب في الأطعمة المعروفة وانتشرت وصفات جديدة ابتكرها، كما أدخل إلى الأندلس خضروات لم تكن شائعة[1]، منها بقلة الهليون وهو أوّل من اجتناها بالأندلس ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله[2]، ومن الأطعمة التي اخترعها الأندلسيون نوع من الطبيخ يسمّى التَّفايا، وهو طعام يحضّر من لحم الضأن الفتيّ وماء الكزبرة الرطبة، ويجعل فيها بندق ولوز مقشّر مقسوم[3].

وتعدّ صناعة الحلويات من الصناعات الغذائية الرائجة في الأندلس من أشهرها حلوى تعرف بالمجبّنات، وهي نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها، وتقلّى بالزيت الطيّب، وكانت تصنع بكثرة في مدينة شَرِيش لتوفّر الجبن، ويقول أهل الأندلس فيها: من دخل شريش ولم يأكل بها المجبّنات فهو محروم[4]، كما صنع الأندلسيون أصنافا أخرى من الحلوى مثل الكعك والمسمّنات[5] والخَبِيص والزلابية المحلّاة بالعسل[6]، وصنعوا حلواء تسمّى الناطف، والذي يتكوّن من اللوز والجوز والفستق[7]، كما كان صنع الأندلسيون المربّى من القرع والزنجبيل والسفرجل والتفاح، وصنعوا العسل اللطيف أو الرُّبّ من العنب[8]، وربّما صنعوا من التّين خبزا يؤكل في المجاعة[9].

واشتهرت الأندلس بصناعة واستخراج الزيت، خاصة زيت الزيتون، واختصّت إشبيلية بوفرة وجودة زيتها الذي يستخرج من أشجار الزيتون بجبل الشرف[10]، وزيت إشبيلية من أطيب الزيوت وأجودها، حيث يخزّن تحت الأرض عشرين أو ثلاثين سنة وأكثر فلا يفسد، بل ويزداد حسنا،

1- هونكه زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط8، 1993، ص: 490.

2- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 127.

3- المقري، المصدر نفسه، ص ص: 127-128. (ينظر إلى الحاشية أيضا).

4- المصدر نفسه، ج1، ص: 184.

5- السقطي، آداب الحسبة، ص: 39.

6- اللخمي ابن هشام، المدخل إلى تقويم اللسان، تح: حاتم صالح الضامن، بيروت: دار البشائر الإسلامية،ط1، 2003، ص: 268.

7- الزبيدي، لحن العوام، ص: 164.

8- السقطي، المصدر السابق، ص: 44.

9- ابن العوام، الفلاحة الأندلسية، ج2، ص: 233.

10- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 178.

ومنها يجلب الزيت إلى جميع بلاد الأندلس وبلاد الروم وأفريقية ومصر واليمن وغيرها[1]، كما انتشرت بالأندلس صناعة الخمور، وتذكر بعض المصادر أنّ الحكام في الأندلس ورعاياهم كانوا يشربون الخمر ويبتاعونها في أسواقهم جهارا[2]، وكان الأمراء كثيرا ما يسهرون في مجالس الأنس مع ندمائهم من الشعراء والمغنيين، حيث كان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجالس المغني زرياب على النبيذ وسماع الغناء[3]، أمّا في عهد ملوك الطوائف فكان شرب الخمر شائعا، ويذكر ابن بسام الشنتريني أنّ ملوك الطوائف قد اشتغلت آذانهم بالخمر والأغاني[4]، ولم يكن شرب الخمر مقتصرا على الأمراء والحكام بل شمل حتى الرعية، حيث أمر ابن عبدون المحتسب بأخذ سلاح الشبّان عند حضورهم الأعراس قبل أن يشربوا[5].

كما أبدع الأندلسيون في طحن الغلال من خلال إنشاء المطاحن والأرحاء على الأنهار والعيون التي كانت منتشرة في معظم أرجاء الأندلس[6]، "فكان بمدينة جيّان اثنتا عشرة عينا عليها أرحية"[7]، حتى أنّ الأرحاء الطاحنة كانت تتّخذ على بعض أبواب المنازل بجيّان لوفرة مياهها[8]، وكانت المياه تجلب إلى الأرحاء في حال لم يكن هناك نهر أو عين، إذ عمد أهالي مدينة طرّكونة إلى جلب المياه إلى المطاحن من البحر في طريقة محكمة[9]، واشتهرت مدينة قرطبة بكثرة الأرحاء على واديها، فكانت تزيد على خمسة آلاف حجر[10]، كلّها مخصصة لطحن الحبوب والأقوات، كما انتشرت بالأندلس دكاكين الفرّانين والخبّازين، حيث يقوم هؤلاء بعجن الخبز وتهيئته، فكانوا يصنعون أنواعا عدّة من الخبز منها الخمير والفطير وغيرها[11].

1- الزهري، الجعرافية، ص: 89.
2- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص: 92.
3- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 125.
4- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق2، م1، ص: 943.
5- ابن عبدون، رسائل ابن عبدون، ص: 54.
6- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص: 132.
7- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 234.
8- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 71.
9- المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 202.
10 المقري، المصدر نفسه، ج3، ص: 217.
11- ابن عبد الرؤوف، رسالة ابن عبد الرؤوف، ص ص: 89-90.

إذن فقد امتلكت كل من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس العديد من المقوّمات التي ساهمت في تطوير اقتصادهما وفي تنشيط الحركة التجارية الداخلية والخارجية بهما، فقد تميّز كل من الإقليمين بشساعة الأراضي وخصوبتها وبالتنوّع الجغرافي والمناخي، والذي ساهم في تنوّع وتعدّد المنتجات الزراعية المختلفة، إضافة إلى توفّرها كلا الإقليمين على ثروة حيوانية معتبرة والمتمثلة في الخيل والغنم والبقر وحتى الإبل، بالنسبة للمغرب الأوسط، كما لا ننس غناهما بالمعادن، ممّا ساهم في تطوّر الصناعة، خاصة الصناعات المعدنية وصناعة السفن، إضافة إلى الصناعات النسيجية، بالنسبة للأندلس.

الفصل الثالث:

دور الموانئ في تنشيط الملاحة البحرية والحركة التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس.

المبحث الأول: النقل البحري

1-الطرق البحرية

2-أساليب ووسائل النقل البحري

3-عوائق الرحلة البحرية وأخطارها

المبحث الثاني: الأسواق وآليات التعامل التجاري

1-الأسواق

2-العملة

3-المكاييل والأوزان

المبحث الثالث: السلع والبضائع المتبادلة بين المغرب الأوسط والأندلس

1-الصادرات المغرب الأوسط إلى الأندلس

2-الواردات المغرب الأوسط من الأندلس

تمهيد:

استطاع تجار المغرب الأوسط والأندلس خلق أجواء من عمليات التبادل التجاري بين الضفتين، وذلك بتعويض نقص المواد الخام والمنتوجات عن طريق الاستيراد، كما قاموا بتصدير مختلف المنتوجات المصنعة لديهم إلى العديد من البلدان، وبحكم التقارب الجغرافي والسياسي والثقافي بين العدوتين نشأ تقارب وتبادل اقتصادي تجاري وثيق الصلة بين المغرب الأوسط والأندلس، وأدّى هذا التقارب إلى إنشاء مراكز تجارية ساحلية والمتمثلة أساسا في الموانئ، وظهور طرق بحرية ساهمت في ربط موانئ العدوتين وتسهيل عمليات الإبحار، وفي تنشيط الملاحة البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

المبحث الأول: النقل البحري

1-الطرق البحرية:

تعتبر الطرق البحرية رابطا تجاريا رئيسيا بين بلاد المغرب الأوسط والأندلس، وذلك بحكم الطبيعة الجغرافية للإقليمين، إذ لا حدود برية بينهما، وهذا ما جعل من التنقل عبر البحر ضرورة لابد منها، كما ساعد تقابل الضفتين وتقاربهما على إنشاء خطوط ملاحة بحرية ساهمت في ربط موانئ العدوتين بشكل مباشر.

أ-دور الأندلسيين في ربط موانئ العدوتين:

أدّت الموانئ دورا هاما في ربط العدوة المغربية بالعدوة الأندلسية عبر شبكة من الطرق البحرية، وقبل أن نتطرّق إلى هذا الدور الكبير الّذي قامت به الموانئ لابدّ أن نشير إلى سبب اختيار الأندلسيين لسواحل المغرب الأوسط بالذّات واستغلالهم للمراسي وبنائهم للموانئ، وهذا ما لفت انتباه الجغرافيين كثيرا آنذاك، فنرى أنّ الكثير منهم ركّزوا على ذكر المسافات البحرية الفاصلة بين سواحل المغرب الأوسط والأندلس، وكثيرا ما نراهم يذكرون موانئ المغرب الأوسط ومدنه الساحلية وما يقابلها من موانئ ومدن الأندلس الشرقية، ويدلّ هذا على مدى كثافة التّنقّلات البحرية بين العدوتين، حتى أصبحت ظاهرة تفرض نفسها على الجغرافيين نظرا لأهميتها.

اتّسمت العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس بطابعها البحري، وذلك بحكم الموقع الجغرافي وتقارب الضفتين وتقابلهما، فمرسى مدينة أرشقول مثلا يقابله من بر الأندلس

مرسى قابطة بني أسود والمسافة بينهما مجريان[1]، ومدينة وهران تقابل مدينة المرية من ساحل بحر الأندلس وسعة البحر بينهما مجريان[2]، وعرض البحر بين مدينة مستغانم إلى ساحل دانية من الأندلس نحو ثلاث مجار ونصف[3]، ويقابل مرسى جزائر بني مزغنة من بر الأندلس مرسى بنشكلة بينهما ست مجار[4]، وعرض البحر عند بجاية إلى جهة طرطوشة من الأندلس ثلاث مجار[5]، وهكذا فقد ساعد الوضع الجغرافي لكل من بلاد المغرب الأوسط والأندلس في ارتباطهما عن طريق البحر بمسالك بحرية قصيرة، إذا ما قارناها بمناطق أخرى، ولذا أصبح البحر المتوسط ومعابره المائية جسرا تجوبه السفن ذهابا وإيابا[6].

كذلك ما قام به البحّارة الأندلسيون من إنشاء للمدن والثغور على طول ساحل المغرب الأوسط، وقد استقرت في هذه المدن جاليات أندلسية، نذكر على سبيل المثال مدينة تَنَس التي أصبحت محطّة تجارية هامّة تختلف إليها السفن الأندلسية في فصل الشتاء، حيث يذكر البكري أنّ تنس الحديثة أسّسها وبناها البحريون من أهل الأندلس، منهم الكركري وأبو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم، وذلك سنة 262هـ/875م، ويسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل إلبيرة وأهل تدمير، ويذكر أنّ هؤلاء البحّارة الأندلسيون كانوا يشتّون في تنس إذا سافروا من الأندلس في مرسى على ساحل البحر، حتى تجمّع إليهم بربر المنطقة وسألوهم أن يتّخذوا من قلعة تنس سوقا ويجعلونها سكنى فأجابهم الأندلسيون إلى ذلك[7]، ونلاحظ من خلال رواية البكري أنّ البربر أو السكان المحليون اعتادوا على تواجد البحّارة الأندلسيين بالمنطقة، ولمسوا منهم الأمان، لذا طلبوا منهم أن يتخذوا قلعة تنس سكنا وسوقا لهم، وذلك لما رأوه من ازدهار لتجارتهم ونفوقها بسبب

1- البكري، المغرب، ص: 170.

2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 252، 257.

3- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 141.

4- البكري، المصدر السابق، ص: 171.

5- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص ص: 142-143.

6- بورملة خديجة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط من ق6 إلى ق7 الهجري/ 12-15م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، تحت إشراف: عبد القادر بوباية، جامعة أحمد بن بلة –وهران–، 2017-2018، ص: 130.

7- البكري، المصدر السابق، ص ص: 146-147.

تواجد هؤلاء الأندلسيين، حتى أنّهم ترجّوهم "ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة"[8]، حسب رواية البكري.

وقد أخذت العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأوسط والأندلس تنمو وتتوطّد، وازداد نشاط البحّارة الأندلسيين في سواحل المغرب الأوسط، فبعد تنس قام البحّارة الأندلسيون بتأسيس مدينة وهران، حيث يذكر البكري أنّ من بنى وهران هو محمد بن أبي العون ومحمد بن عبدون، وجماعة من الأندلسيين البحريّن الذين ينتجعون مرسى وهران، باتّفاق منهم مع قبائل نفزة وبني مسقن وهم من أزداجة، وذلك سنة 290هـ/903م[9]، ليتوسع نشاط هؤلاء البحّارة إلى ناحية الشرق، حتى أصبحت مدينة بجاية عامرة بأهل الأندلس، وأصبح ميناؤها مقصدا للتجار والعلماء من الأندلسيين وغيرهم، وعقدت اتصالات وثيقة مع موانئ الأندلس، فاستفادت بجاية من هذا الانفتاح البحري[10]، وغدت بذلك "السفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة"[11].

وقد ساهم هذا الانفتاح البحري لسواحل المغرب الأوسط والإقبال الكبير للبحّارة الأندلسيين، في تنشيط حركة الملاحة البحرية بين العدوتين المغربية والأندلسية[12]، حيث أضحت الأساطيل التجارية في موانئ الأندلس، مالقة ودانية وبلنسية والمرية، تجوب موانئ المغرب الأوسط حاملة على ظهرها البضائع على تنوّعها، سواء كانت زراعية وخصوصا من ثمار الأندلس، أو منتوجات صناعية من نتاج المعامل في المدن الأندلسية[13]، كما غدت الموانئ الأندلسية مزدحمة بالسفن التجارية المحمّلة بالأقمشة الثمينة والأشربة المتنوعة وشتّى أنواع المحاصيل[14].

وإذا تساءلنا عن سر هذه العلاقة الاقتصادية الوطيدة بين المغرب الأوسط والأندلس، فلا يجب أن نستبعد العلاقات السياسية بين الإقليمين، خاصّة في عهد الدولة الرستمية بالمغرب

8- البكري، المغرب، ص: 147.

9- البكري، المصدر نفسه، ص: 156.

10- فاليرين دومينيك، بجاية، ص ص: 55، 61.

11- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 260.

12- Dominique Valérian , Réseaux d´échanges et littoralisation de l´espace au Maghreb (7-11 siècle) , p : 88.

13- بورملة خديجة، التجارة الخارجية، ص ص: 177-178.

14- بروفنسال ليفي، الحضارة العربية في إسبانيا، ص: 47.

الأوسط والأموية بالأندلس، وقد كان سرّ هذا التقارب الملفت للنّظر بين الدولتين، خاصة وأنّ لكلّ منهما مذهبها وتوجّهاتها الخاصّة، الأهداف والمصالح المشتركة للإقليمين في مجالات عدّة، وما يهمّنا منها هو المجال الاقتصادي، فقد رأى الأندلسيون في المغرب الأوسط أرضا خصبة لتسويق منتجاتهم الصناعية وجلب المواد الأولية، والأكثر من ذلك أنّهم اعتبروا المغرب الأوسط طريقا رابطا بين الأندلس وبلاد السودان، ذلك أنّ بلاد السودان كانت تحتوي على أثمن البضائع في العصر الوسيط، يتصدّرها الذّهب ويليه الرقيق ثم الملح، كما أنّ سكّان المغرب الأوسط كانوا بحاجة إلى المنتوجات الأندلسية، خاصة المواد المصنّعة بشتّى أنواعها، وقد شكّل هذا التقارب تكاملا بين الإقليمين في المجال الاقتصادي، وهكذا فقد نجح الأندلسيون في تكوين شبكة تجارية منحتهم مكانة رائدة في التجارة مع المغرب الأوسط خاصة والبحر المتوسط عامة، مستخدمين معرفتهم بأمور والملاحة والبحر، وكذلك مهاراتهم التجارية[15].

ب-أهم الطرق البحرية بين العدوتين:

تكاثفت عوامل عدّة في إعادة تنشيط المسالك البحرية من جديد بين العدوتين، بل وساهمت في ظهور طرق بحرية جديدة، والجدير بالذّكر أنّ هذه الطرق البحرية كانت في تغيّر مستمر وذلك لأسباب سياسية وأمنية واقتصادية وغيرها، حيث توجد طرق رئيسية تربط بين موانئ كل مدينتين متقابلتين من العدوتين المغربية والأندلسية، وتوجد طرق متشعبة تربط بين أكثر من مرسيين، كما يمكن لمرسى واحد أن يرتبط بمرسيين من مراسي الضفة المقابلة أو أكثر، وتميّزت بعض هذه الطرق البحرية بنشاط أكبر مقارنة بباقي الطرق، ومن أهم هذه الطرق: (ينظر: الملحق رقم 05).

-الطريق البحري الرابط بين مرسى ترنانا ومرسى مريّة بجّانة:

يذكر البكري أنّ مرسى ترنانة من أرض المغرب الأوسط يحاذي من برّ الأندلس مرسى مريّة بجانة[16]، ويبدو أنّ هذا الطريق قديم حيث أنّه كان يربط بين مرية بجّانة، قبل أن تتمصر وتصبح مدينة المرية، بمرسى مدينة ترنانا.

15- Dominique Valérian : La diaspora andalouse et le commerce des ports maghrébins (11-15 siècle), p 18.

16- البكري، المغرب، ص: 170.

-الطريق البحري الرابط بين وهران والمرية:

يذكر الإدريسي أنّ مدينة وهران تقابل مدينة المرية من ساحل بحر الأندلس وأنّ سعة البحر بينهما مجريان[17]، ولذا فقد ارتبطت المدينتين بطريق بحري هام، في حين يذكر ابن سعيد المغربي أنّ مرسى أرشقول يقابل من بر الأندلس مدينة المرية وعرض البحر بينهما درجتان[18]، ويبدو أنّ كلا المدينتين –وهران وأرشقول– مرتبطتان بحريا بمدينة المرية، ويضيف البكري أنّ مرسى جبل وهران يقابل من بر الأندلس مرسى أشكوبرش، بينهما مجريان ونصف[19]، ويذكر كذلك أبو الحسن علي القلصادي (ت891هـ/1486م) أنّه أثناء انطلاقه في رحلته، كان قد ركب البحر من مرسى المنكّب قاصدا مرسى مدينة وهران، أمّا في طريق عودته فقد ركب البحر من مرسى وهران حتى بلغ مرسى مدينة المرية[20]، رغم أنّ زمن رحلة القلصادي متأخر كثيرا عن الفترة قيد الدراسة، إلّا أنّنا نرى أنّ الطريق البحري الرابط بين وهران والمرية قد ظلّ نشطا رغم مرور عدّة قرون، وهذا ما يدلّ على كثافة التنقلات بين موانئ المدينتين، كما نرى أنّ مدينة وهران تربطها عدّة طرق بحرية بمجموعة من مدن ومراسي العدوة الأندلسية على غرار مدينة المرية والتي يعتبر طريقها رئيسيا، وهناك طرق فرعية كالطريق الرابط بين المرسى الكبير بوهران ومرسى أشكوبرش بالأندلس، والطريق الرابط بين ميناء وهران وميناء مدينة المنكّب.

-الطريق البحري الرابط بين مرسى عين فرّوج ومرسى آقلة:

يقابل مرسى عين فرّوج من أرض المغرب الأوسط مرسى آقلة من أرض الأندلس، ومرسى آقلة هو مرسى مدينة لورقة وبينهما ثلاث مجار[21].

17- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 252، 257.

18- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 140.

19- البكري، المغرب، ص: 170.

20- القلصادي أبو الحسن علي الأندلسي، رحلة القلصادي، در وتح: محمد أبو الأجفان، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ص ص: 95، 161.

21- البكري، المصدر السابق، ص ص: 170-171.

-الطريق البحري الرابط بين مرسى قصر الفلوس ومرسى قرطاجنّة:

يوازي مرسى قصر الفلوس من برّ الأندلس مرسى مدينة قرطاجنّة[1]، وقرطاجنّة هي فرضة مدينة مرسية، وفي مينائها ترسو المراكب الكبار والصغار[2]، إذن يمكننا اعتبار أنّ هذا الطريق البحري يربط أرض المغرب الأوسط بمدينة مرسية الأندلسية، وأنّ المراكب التي تقصد مدينة مرسية، تبحر من مرسى قصر الفلوس متّجهة نحو مرسى قرطاجنّة، ومنها إلى مدينة مرسية، حيث المسافة بين المدينتين –قرطاجنّة ومرسية– في البرّ أربعون ميلا[3].

-الطريق البحري الرابط بين مدينة مستغانم ومدينة دانية:

يذكر ابن سعيد المغربي أنّ عرض البحر بين مدينة مستغانم إلى ساحل دانية من الأندلس نحو ثلاث مجار ونصف، ومستغانم هي من فُرَض مغراوة[4]، واستنادا إلى قول ابن سعيد يبدو أنّ ميناء مدينة مستغانم قد أضحى من الموانئ المقصودة، فقد تمّ اعتماد هذا الميناء من قبل قبيلة مغراوة، وتمّ ربطه بميناء مدينة دانية الأندلسية، لتسهيل عملية التنقّل من مدينة مستغانم إلى بلاد الأندلس.

-الطريق البحري الرابط بين تنس ومرسى شنتبول:

يقابل مرسى تَنس من مراسي العدوة الأندلسية مرسى شَنْتَبُول[5] من أعمال مدينة لقنت[6]، لقنت[6]، وكما ذكرنا سابقا، فقد كانت لمدينة تنس علاقة وثيقة بالبحريين الأندلسيين، لذا فمن الطبيعي وجود خطّ بحري يربط المدينة بالأندلس، فقد تمّ ربط مرسى المدينة إذن بأحد المراسي الأندلسية المقابلة له، وهو من مراسي مدينة لقنت البحرية، كما كان هناك خطّ بحري يربط بين مدينتي تنس ومرسية، حيث كانت الرحلة المباشرة بين ميناء تنس وميناء مرسية تدوم أربعا وعشرين ساعة، ويصل أقصى حدّ للسرعة إلى اثني عشر أو ثلاثة عشر ميلا في الساعة، والمتوسط حوالي

1- البكري، المغرب، ص: 171.

2- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 151.

3- الحميري، المصدر نفسه، ص: 151.

4- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 142.

5- البكري، المصدر السابق، ص: 171.

6- ذنون طه عبد الواحد: **"التبادل التجاري بين الموانئ الجزائرية والأندلس في القرنين الخامس والسادس للهجرة"**، من أعمال الملتقى الدولي: الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا، جامعة الجزائر 2، 2009، ص: 415.

خمسة أميال في الساعة الواحدة[1]، ونرى أنّ مدينة تنس كانت تربطها عدّة طرق بحرية بالموانئ الأندلسية، وهذا إذا رأينا إلى كثرة الرحلات الأندلسية إليها، كما أنّ تنس سكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل إلبيرة وأهل تدمير[2]، ولذا نعتقد أنّ كِلا موانئ الكَوْرَتَين الأندلسيتين كانت تربطها طرق بحرية مباشرة بمدينة تنس، أو على الأقل ترتبط تنس بميناء واحد من موانئهما.

-الطريق البحري الرابط بين مرسى جزيرة وقور ومرسى مدينة لقنت:

يقابل مرسى مدينة لقنت الأندلسية مرسى جزيرة وقور من أرض المغرب الأوسط والمسافة بينهما خمس مجار[3]، ويقع مرسى جزيرة وقور بين مدينتي تنس وشرشال، وسمّي بهذا الاسم لأنّ هذا المرسى تقابله جزيرة قريبة من البرّ[4]، أين تشكّل التضاريس الجغرافية هناك حوض يسمح برسوّ السفن، ونتيجة لقرب هذا المرسى من مدينة شرشال تمّ ربط هذه المدينة بحريا ومباشرة بمدينة لقنت الأندلسية[5].

-الطريق البحري الرابط بين مدينة جزائر بني مزغنة ومدينة بنشكلة:

تقابل مدينة جزائر بني مزغنّى من برّ الأندلس مدينة بَنْشَكَلَة بينهما ست مجار[6]، ولا نستبعد وجود طريق بحري يربط بين مراسي هاتين المدينتين، حيث وصفت مدينة جزائر بني مزغنّى بأنّها مقصد للسفن الأندلسية[7]، ومَعْبر مهمّ لبلاد الأندلس[8]، ويوجد أيضا خط بحري يربط مدينة الجزائر بجزيرة ميورقة، وهو الطريق البحري الذي سلكه الناصر الموحدي عند قيامه بغزو جزيرة

1- بشاري لطيفة: "**النقل البحري في إمارة بني عبد الواد من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13-16م)**"، من أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا، جامعة الجزائر 2، 2009، ص: 445.

2- البكري، المغرب، ص: 147.

3- البكري، المصدر نفسه، ص: 171.

4- نفسه، ص: 171.

5- مجهول، الاستبصار، ص: 132.

6- البكري، المصدر السابق، ص: 171.

7- البكري، المصدر نفسه، ص: 152.

8- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 228.

ميورقة، حيث خرج أسطوله من جزائر بني مزغنّى متوجّها إلى مدينة ميورقة، التي انتزعها من المرابطين سنة 600هـ/1203م[1].

-الطريق البحري الرابط بين مرسى الدجاج وجزيرة ميورقة:

يقابل مرسى الدجاج من جزائر الأندلس جزيرة ميورقة[2]، ذكر البكري أنّ مدينة مرسى الدجاج يسكنها الأندلسيون وقبائل كتامة[3]، نرى من خلال حديث البكري أنّ نشاط البحّارة الأندلسيين قد امتدّ إلى الشرق ليشمل هذه المدينة أيضا، ولتسهيل تنقّلات الأندلسيين إلى مدينة مرسى الدجاج، تمّ شقّ طريق بحريّ يربط هذه المدينة بإحدى جزر الأندلس وهي ميورقة.

-الطريق البحري الرابط بين مدينة بجاية ومدينة طرطوشة:

يذكر البكري أنّ: "مرسى مدينة بجاية أوّلية عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيّها نهر كبير تدخله السفن المحمّلة، وهو مرسى مأمون شتوي قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس"[4]، نرى من خلال وصف البكري أنّه لا يوجد طريق بحري مباشر يربط بين مدينة بجاية وإحدى مدن العدوة الأندلسية، لأنّها خرجت عن محاذاة الجزيرة الأندلسية، لكن وفي نفس الوقت يشير إلى أنّ مدينة بجاية عامرة بأهل الأندلس، بينما يذكر ابن سعيد المغربي الذي جاء بعد البكري أنّ عرض البحر عند بجاية إلى جهة طرطوشة من الأندلس ثلاث مجار[5]، ومنه نستنتج أنّ الأندلسيين كانوا يقصدون ميناء مدينة بجاية من خلال تنقلهم إلى أحد موانئ المغرب الأوسط ومنه إلى بجاية، لكن ونتيجة لكثرة تنقلات الأندلسيين إلى بجاية فقد صار لزاما عليهم إيجاد طريق بحري يربط بجاية مباشرة بأحد موانئ الأندلس، وذلك لتسهيل تنقلات الأندلسيين إليها، فتمّ شقّ الطريق البحري الرابط بين مدينة طرطوشة ومدينة بجاية.

ولعلّ هذا الطريق البحري لم يساعد البحارة كثيرا في رحلتهم إلى بجاية وربّما قد عرّض سفنهم للقرصنة أو التّيْه أو غيره من المخاطر، لذلك فقد تمّ إيجاد طريق بحري آخر يربط إحدى

1- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 232.
2- البكري، المغرب، ص ص: 170-171.
3- البكري، المصدر نفسه، ص: 150.
4- نفسه، ص: 172.
5- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص ص: 142-143.

الجزر الأندلسية وهي جزيرة ميورقة بمدينة بجاية، فكانت السفن التي تريد التوجّه إلى بجاية تنطلق من أحد موانئ الأندلس فتقصد أوّلا ميناء ميورقة ومنه تتوجّه إلى ميناء بجاية، فمثلا كانت السفن تخرج من ميناء مدينة بلنسية أو مدينة المرية قاصدة ميناء ميورقة ومنه تتوجّه إلى ميناء بجاية، وتمّ شق طرق بحرية أخرى بين بجاية وبعض الموانئ الأندلسية لكنّها بقيت طرقا فرعية، كالطريق الرابط بين لقنت وبجاية، والطريق الرابط بين بلنسية وبجاية[1].

-الطريق البحري الرابط بين مرسى الخرز وجزيرة سردانية:

يذكر البكري أنّ المراسي التي تلي مرسى الدجاج من ناحية الشرق قد خرجت عن محاذاة جزيرة الأندلس[2]، بينما يذكر ابن سعيد المغربي أنّ مدينة مرسى الخرز تقابل جزيرة سردانية[3]، وقد كانت جزيرة سردانية تابعة للأندلس أيام حكم مجاهد العامري للجزائر الشرقية، حيث افتتحها سنة 406هـ/1015م، واختطّ بها مدينة واسعة[4]، (ينظر: الملحق رقم 06)، لذا لا نستبعد وجود طريق بحري يربط الجزيرة بمرسى الخرز، والذي بقى نشطا حتى بعد تغلّب الصليبيّين على الجزيرة[5]، حيث كانت تستهوي الأندلسيين تجارة المرجان الذي يستخرج من بحر مرسى الخرز، لذا كان لزاما عليهم إيجاد طريق بحري يربط بين الأندلس ومرسى الخرز، فكان المرجان المستخرج منها يباع للتجّار بالأموال الطائلة[6].

-الطرق البحرية الرابطة بين تلمسان والأندلس:

ترتبط تلمسان بالأندلس عن طريق سواحلها التي تعتبر بوابتها تجاه عالم المتوسط، ولتلمسان عدد من السواحل أهمّها أرشقول حيث يذكر البكري أنّ "أرشقول ساحل تلمسان"[7]، ويذكر البكري أيضا أنّ مرسى مدينة أرشقول يقابله من برّ الأندلس قابطة بني أسود[8]، ويسمّيه

1- فاليرين دومينيك، بجاية، ج2، ص ص: 690، 692-693، 703.
2- البكري، المغرب، ص: 172.
3- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص ص: 142-143.
4- عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الثاني، ص: 191.
5- فاليرين دومينيك، المرجع السابق، ص: 795.
6- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 291.
7- البكري، المصدر السابق، ص: 165.
8- البكري، المصدر نفسه، ص: 170.

الإدريسي طرف قابطة بني أسْود، ويقع هذا المرسى بين مدينة قرطاجنّة ومدينة المرية حيث يبعد عن هذه الأخيرة مسافة اثنا عشر ميلا[1]، وتقابل أرشقول كذلك مدينة المرية من أرض الأندلس[2]، لذا فقد ارتبطت المدينتين بخط بحري.

وتعدّ هنين كذلك فرضة لمدينة تلمسان، يفصلها عنها ثلاثون ميلا[3]، وهي أيضا تقابل مدينة المرية[4]، ويربطهما طريق بحري، وهو الطريق نفسه الذي سلكه خالد بن عيسى البلوي أثناء رحلته إلى الحجاز، حيث خرج من بلده قتورية متّجها نحو المرية ومن مينائها أبحرت السفينة التي ركبها متّجهة إلى مرسى هنين[5]، وسلك الطريق البحري نفسه أثناء رحلة العودة، حيث خرج من مدينة تلمسان قاصدا مدينة هنين ومنها وافقوا: "قرقورة كانت هناك قد كملت وسقا، وخفقت بنودها للسفر خفقا، وقلدت القرية وعملت على المرية"[6]، يخبرنا البلوي من خلال طريق ذهابه وعودته من رحلته عن وجود طريق بحري مباشر يربط مدينة هنين بمدينة المرية، وقد دامت رحلته هذه يومين فقط، حيث خرجوا من ميناء المرية يوم الأحد، السابع من جمادى الأولى، ووصلوا إلى ميناء هنين صباح يوم التاسع من جمادى الأولى المذكور، وقد قطع المركب المسافة بين الميناءين في هذه المدّة وجيزة، لأنّهم أبحروا في "أطيب هواء وأحسن استواء"[7]، وبفضل سواحلها –أرشقول وهنين– ارتبط تلمسان ببلاد الأندلس بشكل غير مباشر.

2-وسائل وأساليب النّقل البحري:

أ-السفن:

تعتبر السفن وسيلة النقل البحرية الأولى والرئيسية، لذا فقد تعدّدت وانتشرت دور صناعة السفن على طول الشريط الساحلي لبلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، وتنوّعت بذلك أنواع

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 194.
2- ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص: 140.
3- ابن سعيد، المصدر نفسه، ص: 140.
4- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص: 150.
5- البلوي خالد بن عيسى الأندلسي، رحلة البلوي المسماة: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج1، تح: الحسن السائح، المغرب: مطبعة فضالة، ص ص: 144، 146-148.
6- البلوي، المصدر نفسه، ج2، ص: 151.
7- نفسه، ج1، ص: 148.

السفن المنشأة، وتنقسم أساسا إلى سفن حربية وسفن سفرية وتجارية، إضافة إلى القوارب والمراكب المخصصة للصيد والنزهات، ولعلّ السفن المستعملة للتجارة هي تلك السفن المتخصصة في نقل الركّاب والبضائع، والتي يطلق عليها عادة "المراكب الحمّالة الجافية"[1] و"السفن السفرية"[2]، وكانت هذه السفن تقوم بنقل البضائع والأشخاص عبر الموانئ المغربية والأندلسية، وفي أيّام الحرب تتحوّل وظائفها من تجارية إلى عسكرية، حيث كانت وقت الحرب تتجمّع كلّها في مكان واحد للقيام بالحملة العسكرية[3]، كما ترافق الأساطيل التجارية سفن حربية لحمياتها من أيّ عدوان محتمل.

ازدهرت البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الفاطميين الذي أنشأوا العديد من دور صناعة السفن، لكنّهم اهتمّوا بإنشاء المراكب الحربية أكثر من المراكب السفرية والتجارية، بينما نرى أنّ صناعة السفن قد بلغت أوجّها عهد عبد الرحمن الناصر[4]، الذي اهتمّ بإنشاء المراكب والحربية والسفرية على حدّ سواء، فانتعشت بذلك البحرية التجارية الأندلسية، حيث سيطرت على معظم الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرنين 4-5هـ/10-11م، لامتلاكها أسطولا تجاريا قويّا فاق باقي الأساطيل، وظهور ضرب من المراكب الأندلسية التجارية الكبيرة العالية الجدران، ومزوّدة بالأشرعة اللاتينية، وهذا النوع من المراكب هو خلفية للمركب التجاري الذي ساد البحر المتوسط فيما قبل[5]، وهذا ما نستشفّه من خلال النشاط التجاري المزدهر الذي شهدته الموانئ الأندلسية وحتّى موانئ المغرب الأوسط، حيث اعتبرت هذه الأخيرة في كثير من الأحيان فرضة وسواحلا للأندلس على غرار تنس ووهران.

تختلف السفن التجارية عن السفن الحربية من حيث الشكل والتركيب والحجم، كما تميّزت السفن الأندلسية عن السفن المغربية، لكن لا نستبعد صناعة أنواع السفن نفسها في الغرب الإسلامي رغم وجود اختلافات طفيفة بينها، حيث كانت معظم السفن التجارية المتوسطية مزودة بالأشرعة، وتميل إلى أن تكون واسعة ومدوّرة، وأبطأ من القادس (ينظر: الملحق رقم 01) أو

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 179.

2- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 181.

3- لويس أرشيبالد، القوى البحرية، ص: 242.

4 لويس أرشيبالد، المرجع نفسه، ص: 232.

5- رمضان رابح، النشاط التجاري بالأندلس خلال القرنين 4 و5 هـ/ 10و11م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، تحت إشراف: بن معمر محمد، جامعة وهران، 2007-2008، ص: 132.

السفينة المزوّدة بالمجاديف والتي كانت تشكّل الأساطيل البحرية، والقوادس من السفن هي بعكس السفن المدوّرة، فهي ذات هيكل طويل وضيق ما يجعلها سريعة وفائقة المناورة، وعمق جرّها الضحل يجعلها غير مرغوبة للنقل أو الشحن أو الاستخدام في أعالي البحار، فهي على ما نعتقد تناسبها المهام العسكرية أكثر من المهام التجارية، أمّا سفن التجارة فهي أكثر ثباتا وتحمّلا، ومع ذلك كانت تتفادى الإبحار في الشتاء[1].

وكانت السفينة العادية في العصر الوسيط تتكوّن من الأجزاء التالية: ظهر مقسّم إلى ثلاثة أقسام، ساحة للقتال عند طرفي السفينة، وبرج المراقبة في آخر السفينة، ثم وسط السفينة، وعلى السفينة مكان متسع لبحارة التَّجْديف، هذا إن كانت السفينة تعتمد على المجاديف في إبحارها، أمّا السفن الشراعية الكبيرة فلم تكن تعتمد على المجاديف نظرا لضخامتها وارتفاعها، وتحتوي السفينة على الصواري التي تحمل الأشرعة، وللسفينة دفّة في آخرها، كما أنّ مؤخرة السفينة تنتهي ببروز يشبه منقار الطائر، وتوجد كذلك غرفة لقائد السفينة[2]، وعلى العموم فإنّ السفن السفرية تختلف عن السفن الحربية، إذ أنّها تعتبر الأكبر حجما والأبطأ سيرا، وتعتمد في إبحارها على الرياح التي تسيّرها عن طريق الأشرعة، بينما تعتمد السفن الحربية على الأشرعة والمجاديف على حدّ سواء.

أمّا عن أنواع السفن فينبغي أوّلا التنبيه إلى ما ذهب بشأنه بعض الباحثين من صعوبة التميّيز بين السفن الحربية ونظيرتها المختصّة بنقل المسافرين والبضائع، إلّا أنّ تحديد طبيعة بعض أصناف المراكب البحرية جاء صريحا في عدّة إشارات[3]، وهناك مراكب نفهم دورها من سياق الحديث، كما أنّ بعض المراكب مزدوجة الدَّور، حربي وتجاري، وقد عرّفنا آنفا بعدد من السفن المنشأة في بلاد المغرب الأوسط والأندلس، ولكنّنا الآن سنقوم بحصر المراكب السفرية والتجارية وتميّيزها عن الحربية، والإشارة إلى السفن المزدوجة الدَّور، ومن أهمّ هذه المراكب:

1- كونستيل أوليفيا، التجارة والتجار، ص: 63.

2- ماهر سعاد، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، مصر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص: 211.

3- الجعماطي عبد السلام، النقل والمواصلات بالأندلس، ص: 182.

1-الأجْفَان:

(جمع جَفْن) وهي السفن عموما[1]، وتعرف أيضا بالسفن المستديرة، ومنها استمدّت اسمها "الجفنة" وهي أشبه بالقصعة، وقد بُنِيَت لتعمّر أطول فترة ممكنة، وتستخدم في نقل الشحنات الثقيلة، وتعتمد الأجفان بشكل كلي في إبحارها على الأشرعة[2]، وقد وردت في بعض المصادر بصيغة "المراكب الحمّالة الجافية"[3]، وبصيغة "أجفان مسافرة"، ويتّضح من السياق أنّها خصّصت لحمل المسافرين مقابل أجرة تدفع مسبقا[4].

2-القَرَاقِير:

جمع قَرْقُورَة وهي السفينة العظيمة التي تحمل الزاد والكراع والمتاع للأسطول، كما كان لها دور آخر وهو نزع الطين والرمال من قاع الخلجان والموانئ[5]، وتذكر المصادر الإسلامية أنّها نوع من السفن المسيحية الضخمة، حيث يذكر ابن عذاري أنّها من مراكب الإفرنج التي كانت تشنّ الغارات على غرب الأندلس[6]، ويصف الزهري شكل هذه السفينة وكيفية إبحارها فيقول: "وذلك أنّه كانت تخرج من هذا البحر مراكب عظام كان أهل الأندلس يسمّونها القَراقير، وهي مراكب كبار بِقُلوع مربّعة، تجري إلى أمامها وإلى خلفها، وكان يخرج فيها أقوام يُعرفون بالمجوس"[7]، ويقصد بالمجوس النورمان، وقد شكّل هذا الصنف من المراكب قسما من الأسطول الإسلامي، واختصّت باسم "القرقورة" سفينة طويلة وضخمة لتموين الجيوش في البحر، لها ثلاثة قلاع، ويمكن أن تكون بثلاث طبقات، وباستطاعتها حمل نحو ثمانين من الخيل[8]، ويبدو أنّ هذه السفينة من السفن المزدوجة الدّور، حيث كان يعتمد عليها أيام الحرب في نقل الجنود والمؤن والخيل، أمّا في أيام

1- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة، ص: 60.

2- زيتون عادل، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دمشق: دار دمشق، ط1، ص 1980، ص ص: 55-56.

3- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 179.

4- الجعماطي عبد السلام، المرجع السابق، ص: 60.

5- عبادة عبد الفتاح، سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام، مصر: مطبعة الهلال، 1913، ص: 6.

6- ابن عذاري، البيان المغرب: قسم الموحدين، ص: 201.

7- الزهري، الجعرافية، ص: 92.

8- الجعماطي عبد السلام، المرجع السابق، ص: 65.

السفن فكانت تخصّص لنقل الرّكّاب والبضائع، وهذا ما يوضّحه أكثر حديث البلوي عن رحلة عودته حيث يذكر أنّه ركب قرقورة كانت متوجهة من هنين إلى مدينة المرية[1].

3-الشّيطِيّات:

مفردها الشِّطِّي، وهو نوع من المراكب الصغيرة يتّخذ للاستطلاع ونقل الأخبار إلى رؤساء الأساطيل، بفضل صغر حجمه واستخدامه المكثّف للمجذّفين، وبالتالي فسرعته كبيرة نسبيا، ويطلق اسم الشِّيطِّيات أيضا على السفن الإسلامية المخصّصة لنقل المسافرين[2]، حيث كان الشِّطِّي من المراكب المخصصة لنقل المسافرين بين العدوتين المغربية والأندلسية، ويذكر ابن بطوطة أنّه ركب الشطي في رحلته إلى الأندلس وذلك بقوله: "فركبت البحر من سبتة في شطي لأهل أصيلا، فوصلت إلى بلاد الأندلس"[3]، وعلى العموم فإنّ مركب الشطي من المراكب المتخصصة في أغراض التجارة، ذات الشراعين[4].

4-الأغْرِبَة:

مفردها غُراب، وهي من أقدم أنواع السفن الحربية، كانت معروفة عند القرطاجيين والرومان وغيرهم، ولم تزل معروفة عند بلدان المتوسط، ويظهر أنّ اسمها مأخوذ من الغراب، لأنّ القدماء كانوا يصنعون بعض سفنهم على أشكال الطيور، فيجعلون رأس السفينة أو مقدّمتها على شكل رأس غراب أو شكل طير من الطيور تفاؤلا أو إشارة إلى أنّه في الماء كالطيور في السماء[5]، ولم تفلح معظم الدراسات في تحديد موطن الأغربة بدقة، فنرى أنّ الزهري يشير إلى أنّ أوّل من استنبط المراكب المسمّاة بالغربان والقَطائع هم سكان بيجة (بيزا) الإيطالية[6].

1- البلوي، رحلة البلوي، ج2، ص: 151.

2- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة البحرية، ص: 65.

3- ابن بطوطة محمد بن عبد الله الطنجي المعروف، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تق وتح: محمد عبد المنعم العريان، مر: مصطفى القصّاص، بيروت: دار إحياء العلوم، ص: 677.

4- الجعماطي، المرجع السابق، ص: 66.

5- عبادة عبد الفتاح، سفن الأسطول الإسلامي، ص: 7.

6- الزهري، الجعرافية، ص: 78.

ويمكن القول أنّ الغراب هو مركب متوسطي أكثر ممّا هو عربي أو أوربي، حيث نجد تسمياته تنتقل من لغة إلى أخرى في حوض البحر المتوسط، بدءا بكلمة Kárabos اليونانية، وGuarapi في النصوص اللاتينية، مرورا بلفظِ Corvetta في رومانثية الأندلس، قبل أن تصل إلى صيغتي Corbeta أو Carapas في الإسبانية، وبالرجوع إلى تسميتها فتبدو عربية فصيحة، حيث يرى بعض الدارسين –كما أشرنا– إلى أنّ الغراب سفينة من اختراع القرطاجيين[1]، أمّا عن مهام هذه السفينة فهي ذات طابع عسكري، لكنّنا نرى إشارات تكشف عن استعمال الغراب في نقل المسافرين، حيث يذكر البلوي أنّه أثناء انطلاقه في رحلته من المرية كان قد ركب "غراب دار الصنعة"[2]، كما تكشف بعض الأشعار أنّه استعمل في الرحلات الترفيهية على طول مجاري الأنهار الأندلسية[3]، حيث يصف ابن خفاجة الأندلسي في شعره سباقا للمراكب، كان من بينها مركب الغراب في قوله:

حَيْثُ اسِتَقَلَّ الجِسْرُ فوقَ زَوارِقٍ **** نُسِقَتْ، كَمَا تَتَوَاكَبُ الأَحْبَابُ
لَمْ تَسْتَبِقْ، وكَأَنَّها مُصْطَفَّةٌ **** دُهْمٌ، تُنَازِعُكَ السِّباقَ، عِرابُ
مِنْ كُلِّ غَرْبِيبِ الأدِيمِ لَوْ أنَّهُ **** قَبِلَ النَّعِيبَ لَعِيفَ مِنْهُ غُرَابُ[4].

ب-سعة المراكب:

تنوّعت أحجام وسعة مراكب البحر الأبيض المتوسط، فمنها من وصف بأنّه مركب كبير، وذلك لأنّه كان يتسع لعدة مئات من المسافرين، حيث تذكر إحدى رسائل الجينيزة أنّ مركبا سافر إلى إشبيلية وعلى ظهره ستة وثلاثون أو سبعة وثلاثون من اليهود وثلاثمائة مسلم تقريبا[5]، وتتراوح حمولة السفينة التجارية بين 300 إلى 600 طن[6]، كما وصلت حمولة بعض القراقير إلى الألف

1- الجعماطي، دراسات في تاريخ الملاحة، ص ص: 62-63.
2- البلوي، رحلة البلوي، ج1، ص: 147.
3- الجعماطي، المرجع السابق، ص: 63.
4- ابن خفاجة إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الهواري، ديوان ابن خفاجة، شر وتق: عمر فاروق الطباع، بيروت: دار القلم، ص: 37.
5- كونستيل أوليفيا، التجارة والتجار، ص: 68.
6- زيتون عادل، العلاقات الاقتصادية، ص: 57.

طن، وعليها ما يقارب السبعمائة شخص ما بين بحّار وجندي[1]، أمّا بالنسبة للمراكب الصغيرة أو المتوسطة الحجم فلم تكن حمولتها بذلك الوزن وإنّما كانت تكتفي بحمل السلع الخفيفة وعدد أقل من الأشخاص، ويذكر دومينيك فاليرين أنّ جفنا صغيرا لتاجرين من بونة كان محمّلا بسلع قيمتها 5000 دينار[2]، مع أنّه لم يذكر نوع السلع المحمولة إلّا أنّنا نفترض أنّها من البضائع التي خفّ وزنها وغلا ثمنها على غرار الجواهر والتوابل وغيرها من البضائع الثمينة.

كما أنّه لا يمكننا تحديد سعة وحجم المراكب المصنّعة في الفترة ما بين القرنين 3هـ/9م إلى 6هـ/12م بشكل أدق، وذلك نظرا لندرة المعلومات حولها، لكن هذا لم يمنعنا بأن نخمّن سعتها من خلال بعض النصوص على غرار ما ذكره الإدريسي حول العاملين باستخراج المرجان من مرسى الخرز، حيث يذكر أنّه خصّص لاستخراجه خمسون قاربا أو أكثر، في كل قارب عشرون رجلا أو أكثر[3]، ويمكننا التخمين أنّ القارب من الحجم المتوسط إلى الكبير نوع ما، هذا إذا ما فكّرنا –بالإضافة إلى العمال– في حجم ووزن المرجان المستخرج والآلات المخصصة لاستخراجه، وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ حجم السفن خلال الفترة قيد البحث كان في تغيّر مستمر طيلة القرون الثلاثة، حيث أصبحت المراكب أوسع وحمولتها أكبر، واستطاعت بعض السفن السفرية استيعاب ألفي شخص ناهيك عن طاقم السفينة والعاملين عليها[4].

ج-العاملون في النقل البحري:

يوجد على رأس كلّ أسطول قائد ورئيس، ويقال للقائد أمير البحر[5]، يدبّر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته، ورئيس يدبّر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف أمر إرسائه في مرفئه[6]، ويعرف رئيس الملّاحين أو النَّوَاتِية[7] بالربّان، وكانت الوظائف والمهام الملقاة على عاتق الربّان كثيرة ومتعدّدة،

1- ماهر سعاد، البحرية في مصر الإسلامية، ص: 363.

2- فاليرين دومينيك، بجاية، ج2، ص: 712.

3- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 290.

4- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: 283.

5- ماهر سعاد، المرجع السابق، ص: 272.

6- ابن خلدون، المقدمة، ص: 287.

7- **النَّواتِيَة**: مفردها النُّوتي، وهو الملّاح الذي يدير السّفينة في البحر، والكلمة معرّبة من اللفظة الإغريقية (Nautaa)، أو اللاتينية (Nauticus) بمعنى بحّار وملّاح. ينظر: سعاد ماهر، المرجع نفسه، ص :273 (الهامش رقم 1)؛ أبو القاسم

تتطلّب معرفته بعدّة ثقافات، فقد كان عليه تدبير جري الأسطول بالرّيح أو المجاديف، وأن يعرف مسالك البحر ومجاريه، وأن يعرف المنازل والمسافات والقياس والإشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها، ومواسم البحر وآلات السفينة، وغيرها من الأمور الملاحية[1].

أمّا بخصوص ملكية السفن فعادة ما تكون السفينة مُلكا لمجموعة من الأشخاص أو مُلكا لشخص واحد، وهو ما يسمّى بربِّ السفينة وإن كانوا جماعة سمّوا بأرباب السفينة[2]، ويحرص مُلَّاك أو أرباب السفن على تزويد سفنهم بالعمّال والبحّارة لبدء رحلة بحرية ناجحة، وفي العديد من الحالات كان مالك السفينة يقوم بتجهيز السفينة من خلال وُكَلَائِه، مانحا ربّان السفينة تعليمات وتوجيهات خاصة فيما يتعلّق باختيار طاقم السفينة[3]، وحتّى إن قام مالك السفينة بكرائها جاز له كراء طاقمها معها، وهذا ما اتّفق عليه أهل العلم على جواز "اكتراء النواتية وإجارتهم في السفن كذلك"[4]، كما حرص أرباب السفن والرَّبابنة على اختيار رجال أقوياء البنية ويتّصفون بالمهارة ويتمتعون بالاحترام اللازم لتكوين طاقم مثالي للسفينة[5].

وكان لربابنة السفن ورؤسائها والعاملين عليها قوانين ونظم تلزمهم بها عاداتهم البحرية[6]، فكان رئيس النواتية يقوم بتوزيع المهام على بقية الطاقم، ويسمّى بالرئيس أو "الرايس"[7]، ويعتمد الربّان بشكل كبير على بقية الطاقم فهم مساعدوه، وتختلف رتبهم ومهامهم، حيث يلي الربّان في المرتبة وكيل المركب، وهو بمثابة القيّم على نقل البضائع بواسطة السفينة، كما أنّه يتكلّف بإصلاح الأعطاب التي تلحق بالسفينة، من حيث شراء المواد اللازمة لإصلاحها من خشب وقطران وغيرها، وتوفّر طاقم السفينة أيضا على دَليلٍ للطرق البحرية، وكان يعتمد على هذا النوع من الأَدِلَّاء أثناء السفر في الرحلات البحرية الطويلة أو الصعبة، وتوفّر الطاقم أيضا على النُّظّار وهم

القاسم القروي، أكرية السفن، ص: 61 (الهامش رقم 112).

1- ماهر سعاد، البحرية، ص ص: 274- 275.

2- أبو القاسم القروي، المصدر السابق، ص ص: 66-67.

3- دينين فولو دوروثي و إم فولو جيمس، عصر الملاحة البحرية، تر: خلود الخطيب، مر: سامر أبو هواش، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط1، 2012، ص: 159.

4- القروي، المصدر السابق، ص: 61.

5- دوروثي فولو وجيمس فولو، المرجع السابق، ص: 160.

6- ماهر سعاد، المرجع السابق، ص: 277.

7- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة، ص: 122.

الحرّاس المكلّفون بمراقبة البحر انطلاقا من المحارس أو الأبراج، وعلى حمّالي المراكب وكان عملهم مقتصرا على شحن السفن وتفريغها[1]، كما احتوى على مساعدين يتناوبون على حراسة السفينة من جميع جوانبها[2].

3-عوائق الرحلة البحرية وأخطارها:

واجهت الملاحة المتوسطية عدّة مشاكل والمعيقات، والمتمثلة أساسا في الرياح والهول البحر واللصوص والأعداء، حيث كانت الملاحة في العصر الوسيط عاجزة عن التغلّب على الرياح والأمواج لاستعمالها الأساليب البدائية، كما أدّى وجود ديانتين مختلفتين في حوض البحر المتوسط إلى تأجيج الصراعات بين المسلمين والنصارى وانتشار ظاهرة القرصنة البحرية[3].

أ-أهوال البحر:

اعترضت حركة الملاحة البحرية عدّة معيقات طبيعية، تمثّلت أساسا في العواصف والمعابر المائية الخطرة والتيارات والخلجان والصخور، وفي بعض الأحيان اعتراض الأسماك الكبيرة[4]، ولعلّ أخطر ما تواجهه السفن عند إبحارها العواصف الهوجاء، والتي تتسبّب في كثير من الأحيان في غرق السفن أو تَلَف البضاعة على أقل تقدير، وتسبّبت العواصف كذلك في تحطيم السفن وتمزيق أشرعتها، ويصف الرحّالة ابن جبير إحدى العواصف الهوجاء التي اعترضتهم في رحلة ذهابه إلى المشرق فيقول: "...وزاد البحر اهتياجا وأَرْبَدَّت الآفاق سوادا، واستشرَت الريح والمطر عصوفا، حتى لم يلبث معها شراع، فلُجِئَ إلى استعمال الشرع الصغار، فأخذت الريح أحدها ومزّقته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشُّرُع فيها..."[5].

وقد عانى بحّارة الغرب الإسلامي من التيارات البحرية والمعابر المائية الخطرة خاصة في المضائق وما بين الجزر، فقد وصفت الملاحة في مضيق جبل طارق بالعسيرة والصعبة، وتزداد

1- الجعماطي عبد السلام، دراسات، ص ص: 122- 128.

2- دوروثي فولو، المرجع السابق، ص: 162.

3- مراحة خالد، "**الملاحة البحرية في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط: دراسة في كتاب أكرية السفن لمؤلفه أبو القاسم القروي**"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، العدد 89، 2015، ص: 133.

4- زيتون عادل، العلاقات الاقتصادية، ص: 61.

5- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: 10.

صعوبة في شهر يناير[1]، وقد وصفه المقري ووضّح مكمن خطورته بأنّه: "صعب المجاز لأنّه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتطاول فيه والماء يدور"[2]، حيث أنّ كثافة الماء ومنسوبه في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي مختلفان، وعلى غرار مضيق جبل طارق، شكّل مضيق صقلية مكمنا لعطب السفن، نظرا لضيقه واضطراب مياهه وشدّة ريّاحه، وقد عايش الرحالة ابن جبير تجربة عبور هذا المضيق وعبّر عنه بشكل دقيق[3] قائلا: "وهذا المضيق ينحصر فيه البحر إلى مقدار ستّة أميال، وأضيق موضع فيه ثلاثة أميال، يعترض من برّ الأرض الكبيرة إلى برّ جزيرة صقلية، والبحر بهذا المضيق ينصبّ انصباب السيل العَرِم، ويغلي غَليان المِرْجَل، لشدّة انحصاره وانضغاطه، وشقّه صعب على المراكب، فاستمرّ مركبنا في سيره، والريح الجنوبية تسوقه سوقا عنيفا، وبرّ الأرض الكبيرة عن يميننا، وبرّ صقلية عن يسارنا"[4].

كما اشتهرت بعض سواحل جزر البحر المتوسط بصعوبة اجتيازها، على غرار سواحل جزيرة سردانية، حيث يصف ابن جبير كيف تمكّن المركب الذي استقلّه من المرور بأعجوبة حذاء ساحل الجزيرة فيقول: "فارقنا برّ سردانية المذكورة، وهو برّ طويل جَرَينا بحذائه نحو المائتي ميل، ومنتهى دور الجزيرة، على ما ذُكر لنا، إلى أزيد من خمس مئة ميل، ويسّر الله علينا في التخلّص من بحرها، لأنّه أصعب ما في الطريق، والخروج منه يتعذّر في أكثر الأحيان"[5].

كما عُرفت بعض سواحل الجزر بركود الرياح فيها خلال أوقات من السنة، ممّا يؤدي إلى تعذّر الملاحة فيها مؤقتا، حيث تلبث السفن في سواحلها إلى حين تجدّد هبوب الريّاح لاستئناف إبحارها، على غرار بعض سواحل جزيرة صقلية، ويتحدّث أبو حامد الغرناطي عن تجربته في اجتياز ساحل صقلية أثناء سفره إلى المشرق فيقول: "وقد أقمت في البحر مقابل هذه الجزيرة خمسة أيام لم يكن لنا ريح، ثم رحلنا عنها يوم السادس إلى إسكندرية"[6]، والأمر نفسه بجون زديك في ناحية

1- الجعماطي، دراسات في تاريخ الملاحة، ص: 20.
2- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 146.
3- الجعماطي، المرجع السابق، ص: 20.
4- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 293.
5- ابن جبير، المصدر نفسه، ص: 10.
6- أبو حامد الغرناطي، المعرب، ص: 68.

سفاقس من بلد إفريقية، حيث يشتهر هذا الجون بركود الرياح فيه، ويُذكر أنّه: "من نَشَب في ذلك الجون ولم تساعده رياح مؤتاة له مسخّرة، ربّما حال عليه فيها الحَوْل"[1].

ب-القرصنة واعتراض العدوّ:

تعتبر ظاهرة القرصنة واعتراض أساطيل الأعداء من أكثر المخاطر والمعيقات التي واجهت الملاحة في الغرب الإسلامي، حيث كان لعامل الدين أثره في تأجيج الصراعات بين المسلمين والنصارى، وكل جانب كان يرى أنّه على حق وأنّ الآخر كافر، لذا يتوجّب القضاء عليه والاستحواذ على خيراته، واستنادا إلى هذا المعطى فإنّ المركب كان يتحوّل تلقائيا عند لقائه مركبا معاديا أو عند دخوله أرض الحرب، من مركب تاجر إلى مركب قرصان[2].

وتصف المصادر هؤلاء القراصنة بال: "لصوص في البحر"[3]، حيث كان هؤلاء القراصنة يعترضون السفن المعادية فينهبون ما فيها ويأسرون ركّابها ليبيعوهم في سوق النخاسة، وقد تعرّضت الكثير من السفن الإسلامية إلى النهب من قبل مراكب الأعداء، وتتعدّد في كتب النوازل الاعتداءات التي يتعرّض لها أصحاب المراكب والتجّار، فتذكر بعض نوازل الونشريسي عن "من سافر بمال قراض في البحر فأخذه العدوّ وجميع ما معه"[4]، وتذكر نازلة أخرى "عمن اكترى مركبا لرجال تعرّض لهم لصوص في البحر فأخذوا المتاع وتركوا المركب، وكيف لو كانوا رومًا أخذوا المتاع والمركب دون الرجال في بعض الطريق"[5]، كما تعدّدت اعتداءات مراكب النصارى كثيرا في بحر الزُّقاق[6].

ولم تكن القرصنة مقتصرة على النصارى فقط، فهنالك من المسلمين من امتهنوا اللصوصية في البحر وسلب المراكب وركّابها، ولم يميّزوا بل المسلم والكافر، ونستشفّ ذلك من خلال نازلة وردت لدى الشيخ أبي عمران الفاسي عن مركب اعترضه لصوص في البحر، فأجاب: "إذا أخذوا

1- العَزفي أبو العباس، دعامة اليقين في زعامة المتقين، تح: أحمد التوفيق، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، ص: 64.
2- خالد مراحة، الملاحة البحرية، ص ص: 133-134.
3- البرزلي، فتاوى البرزلي، ج3، ص: 650.
4- الونشريسي، المعيار، ج8، ص: 204.
5- البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص: 650.
6- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص: 83.

المتاع دون المركب، فالكراء ثابت كما لو سرق المتاع لصوص مسلمون أو غاصب ظلوم..."[1]، فالقرصنة لم تكن نتاج الخلاف الديني وحسب، وإنّما كانت نتاجا أيضا للخلافات السياسية والمذهبية ضمن الديانة الواحدة[2]، فقد ورد في نصٍّ عند ابن الأثير أنّه: "في سنة 344هـ/955م، أنشأ عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس مركبا كبيرا لم يعمل مثله، وسيَّر فيه أمتعة إلى بلاد المشرق فلقي في البحر مركبا فيه رسول من صقلية إلى المعزّ، فقطع عليه أهل المركب الأندلسي، وأخذوا ما فيه وأخذوا الكتب التي إلى المعزّ..."[3].

وقد كثرت هجمات القراصنة النّصارى على الساحل الشرقي لبلاد المغرب منذ القرن 5هـ، وأصبحت عمليات القرصنة البحرية متبادلة بين الطرفين المسيحي والإسلامي، ففي سنة 480هـ/1087م قام الجنويون إلى جانب البيزيّين بأمر من البابا فكتور الثالث بالهجوم على مدينة المهدية، وتعرّضت مدينة بجاية ما بين سنتي 531هـ/1136م و532هـ/1137م لهجوم الجنويين، وفي سنة 1136م استولى بعض البجائيين على مراكب جنوية[4].

وكردّ على الهجومات المتكررة للأساطيل النصرانية على السواحل المغربية قام البجائيون بتأسيس أسطول قوي ومجهّز للإغارة على النصارى في البحر وغزو سواحل الفرنج[5]، مستغلين ضعف النصارى واختلال مركز دولتهم، وهو ما ذكره ابن خلدون في قوله: "ثم فشل ريح الفرنجة واختلّ مركز دولتهم بإفرنسة، وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولا متعدّدة فتنبّهت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل أفريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر، يضعون الأسطول ويتخيّرون له أبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين

1- أبو القاسم القروي، أكرية السفن، ص: 141.

2- خالد مراحة، الملاحة البحرية، ص: 134.

3- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص ص: 253-254.

4- نشاط مصطفى، جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ/1212م إلى سنة 759هـ/1358م، الرباط: مطابع الرباط نت، ص ص: 31-32.

5- برنشفيك روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج1، تع: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988، ص: 227.

غفلة منها فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى"[1].

كما تسبّب غزو الأساطيل النصرانية إلى توقّف النشاط الملاحي وعمليات التنقّل بين العدوتين المغربية والأندلسية، فيذكر الإدريسي أنّ أكثر سكان مرسى الدجاج يفرّون منها زمن الصيف ومدّة السفر خوفا من قصد الأساطيل إليها[2]، والأمر نفسه بالنسبة لمدينة القل حيث يذكر الإدريسي أيضا أنّ هذه المدينة بها: "ديّار وناس ساكنون بها وهم الآن في أيام سفر الأسطول يرحلون إلى الجبال ولا يبقون بها شيئا من آثارهم وإنّما يبقى بالقُل في زمن الصيف الرجال فقط"[3] وغيرها من مدن المغرب الأوسط، إذن فهذه الاختلافات الدينية والسياسية والمذهبية كانت هي المسؤولة عن الاضطرابات التي عرفها البحر المتوسط، وأدّت في كثير من الأحيان إلى نشر الذعر في هذا البحر ووقف النشاط الملاحي وعمليات التنقّل بين ضفتيه، إلّا أنّه يجب الاعتراف أنّ بفضل هذه الاختلافات عملت الدوّل المتوسطية على تطوير أساطيلها والإبداع في التقنيات الملاحية وإعطاء دفعة قوية للنشاط البحري[4].

المبحث الثاني: الأسواق وآليات التعامل التجاري

1-الأسواق:

يُعْرف السوق بأنّه موضع البِياعات والمكان الذي تُجلب فيه التجارة وتُساق فيه المبيعات[5]، وقد شكّلت الأسواق عصب الحياة الاقتصادية في الغرب الإسلامي[6]، فهي المجال الذي تتمّ فيه عملية التبادل التجاري من بيع وشراء، والأسواق من المرافق الحيوية والضرورية لأي دولة، ولا تقتصر أهميتها في كونها مجالا لتبادل السلع والمنافع، بل إنّها تعكس ذلك التفاعل الاجتماعي بين

1 ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 578.

2 الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 259.

3 الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 274.

4 خالد مراحة، الملاحة البحرية، ص: 134.

5- ابن منظور، لسان العرب، ص: 2154.

6- بلهواري فاطمة، "**التبادل التجاري بين مدن بلاد المغرب خلال القرن 4هـ/10م**"، مجلة إنسانيات، العدد 42، الجزائر، 2008، ص: 74.

عناصر اجتماعية مختلفة، فهي ترتاد من قبل العامة والخاصة، الصغار والكبار، الرجال والنساء يوميا[1].

تذكر المصادر الوسيطية في غالب الأحيان أربعة أصناف من الأسواق، أوّلها الأسواق اليومية، وهي الأسواق الدائمة التي تقام في المدن، وتنظيمها لا يختلف عن تنظيم الأسواق في المدن الإسلامية عامة، بحيث يختصّ كل جانب من السوق بنوع معيّن من السلع، حيث يوجد في كل مدينة سوق أو أكثر يحتوي على مجموعة من الحوانيت التي تزخر بأصناف البضائع من كل نوع ولون[2]، أمّا الصنف الثاني فهي الأسواق الأسبوعية، وهي الأسواق التي تقام في يوم معيّن من أيام الأسبوع، وكانت تعرف باسم ذلك اليوم، حيث كان يبنى السوق في صباح ذلك اليوم، ويفضّ في آخر النهار من اليوم نفسه[3].

والصنف الثالث هو الأسواق الموسمية، وكانت تعقد لأيام معدودة في الشهر أو السنة، حيث كانت تقام خلال المناسبات الدينية الهامة في السنة، وحسبما أكّدت المصادر فإنّ هذه الأسواق كانت تعجّ بضروب السلع وأنواع المتاجر[4]، وكان التجار وعامة الناس يقصدونها من كل حدب وصوب، أمّا الصنف الأخير من الأسواق فهو ما يعرف بالأسواق العسكرية، وهي أسواق تنتقل مع الجيوش الغازية وهي تتبع سيرها وتحطّ رحالها أمام معسكراتها، وتبقى المعلومات عن هذا النوع من الأسواق شحيحة[5].

أ-الأسواق بالمغرب الأوسط:

يبدو أنّ الأسواق في المغرب الأوسط كانت منظمة، ذات شهرة واسعة النطاق، وحركة دائبة تدخل إليها البضائع، وتخرج منها باستمرار، وقد عرفت هذه الأسواق تنظيما خاصا

1- بلعربي خالد، "**الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني**"، دورية كان التاريخية، العدد السادس، ديسمبر، 2009، ص: 32.

2- الخليفات محمد عطا الله، "**أسواق الأندلس في عصر الدولة الأموية 138-422هـ/755-1030م**"، مجلة المشكاة، المجلد الأول، جانفي 2014، ص: 145.

3 بلعربي خالد، المرجع السابق، ص: 32.

4- بلهواري فاطمة، التبادل التجاري، ص: 75.

5- بلعربي خالد، الأسواق، ص: 33.

بالتوقيت الذي يتراوح ما بين اليوم والأسبوع والموسم –كما أسلفنا الذكر–[1]، حيث انتشرت الأسواق اليومية في معظم مدن المغرب الأوسط، فكثيرا ما تحدث الجغرافيون عن هذه الأسواق ووصفوها بأوصاف عدّة، فمثلا ابن حوقل ذكر بأنّ لمدينة بونة أسواق حسنة[2]، ووصف البكري سوق مدينة مرسى الخرز بـ"العامرة"[3]، والأمر نفسه بالنسبة للإدريسي الذي وصف أسواق مدينة تيهرت بأنّها عامرة[4]، ووصف سوق حصن تاكلات قرب بجاية بـ"الدائمة"[5]، ووصف صاحب كتاب الاستبصار أسواق مدينة تنس بـ"الحَفيلة الكثيرة"[6]، كما انتشرت الأسواق اليومية في عدد من مدن المغرب الأوسط على غرار مدينة المسيلة[7] ومرسى الدجاج[8] وجزائر بني مزغنّة[9] ووهران[10] وتلمسان[11] وغيرها.

أمّا بالنسبة للأسواق الأسبوعية فكانت تقام في مناطق عدّة بالمغرب الأوسط، وغالبا ما كانت تقام في يوم محدّد في الأسبوع كسوق حصن كزناية الذي كان يعقد كل يوم جمعة ويقصده بشر كثير[12]، وكذلك سوق بني زندوي الذي يعقد في حصن للقبيلة يوم الجمعة[13]، وهناك أسواق لم يضبط لها يوم محدّد فقد ذكر الإدريسي أنّ لمدينة مازونة سوق لها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر[14]، كما كانت بعض الأسواق تعقد في المناسبات الدينية وفي بعض المواسم، كالأسواق

1- بلهواري فاطمة، التبادل التجاري، ص: 76.
2- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 79.
3- البكري، المغرب، ص: 141.
4- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 256.
5- الإدريسي، المصدر نفسه، ص 262.
6- مجهول، الاستبصار، ص: 133.
7- البكري، المغرب، ص: 144.
8- البكري، المصدر نفسه، ص: 150.
9- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 80؛ البكري، المصدر السابق، ص: 152.
10- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 252.
11- البكري، المغرب، ص: 164.
12- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 254.
13- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 267.
14- نفسه، ص: 272.

التي كانت تعقد في مدينة مرسى الخزر في موسم صيد المرجان لبيع ما تمّ استخراجه من المرجان[1]، وقد عرفت الأسواق أيضا تنظيما على مستوى الأمكنة، حيث قُسّم السوق فيها حسب نوعية البضائع المعروضة للبيع[2].

كما نُسبت بعض الأسواق إلى أسماء القبائل المشرفة عليها[3] كسوق بني زندوي[4]، وسوق هوّراة[5]، أو إلى أسماء الأشخاص القائمين عليها[6]، كسوق ابن وردة بتيهرت وكان ابن وردة هذا مقدم العَجم بتيهرت، فكان صاحب شرطة الإمام أفلح لا يجسر على دخول سوقه هيبة[7]، وكذلك سوق إبراهيم[8]، وسوق يوسف[9] وغيرها، ومن الملاحظ أنّ الكثير من الأسواق قد تمصّرت وأصبحت مدنا أو قرى على غرار مدينة فكّان، حيث يذكر البكري أنّها كانت سوقا قديمة

من أسواق زناتة فمدّنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني[10] سنة 338هـ/949م[11]، وكذلك مدينة سوق حمزة[12] التي نزلها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان[13]، إضافة إلى قرية سوق كرام[14]، وحصن سوق الخميس[15] وغيرها، ويرجع ذلك إلى الإقبال الكبير للسكان عليها، وربّما رأت بعض

1- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 239.

2- بلهواري فاطمة، التبادل التجاري، ص: 76.

3- بلهواري فاطمة، المرجع نفسه، ص: 76.

4- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 267.

5- البكري، المصدر السابق، ص: 146.

6- فاطمة بلهواري، المرجع السابق، ص: 7.

7- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص: 54.

8- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 251.

9- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 267.

10- **يعلى بن صالح اليفرني:** بهو يعلى بن محمد بن صالح اليفرني رئيس بني يفرن، المقيمين في نواحي تلمسان، ولي أمر بني يفرن بعد مقتل أبيه محمد بن صالح، فعلى صيته وعظم أمره، واختطّ مدينة فكّان، دخل في طاعة الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، فملك وهران وتيهرت واستفحل أمره في المغرب الأوسط. ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، ص: 24.

11- البكري، المغرب، ص: 167.

12- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص: 302.

13- **حمزة بن الحسن:** هو حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنهما–، وهو من أبناء الحسن بن سليمان الذي دخل المغرب. ينظر: البكري، المصدر السابق، ص: 149.

14- البكري، المصدر نفسه، ص: 146.

15- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 262.

القبائل أنّه من الجيد اتخاذ بعض هذه الأسواق مدنا وقرى للسكن والاستقرار فيها، كما أنّ الدور الكبير الذي قامت به الأسواق من تنشيط الحركة التجارية والمساهمة في تطوير وإنعاش الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط، قد جعل من مناطق انعقادها مراكزا لجذب السكان ولإيواء وجمع القبائل المتناثرة.

ب-الأسواق الأندلسية:

اشتهرت الأندلس بكثرة أسواقها نظرا لازدهار الحياة الاقتصادية فيها، ونتيجة لوفرة المنتوجات الزراعية وتطوّر الصناعات الأندلسية، إلى جانب توفر الأمن والاستقرار، فقد انتشرت الأسواق في المدن والقرى وحتى في المناطق النائية ورؤوس الجبال، وذلك لتزويد المارة والمسافرين بما يحتاجون إليه من مؤونة[1]، حيث لا يمشي فيها الإنسان ثلاثة فراسخ إلّا وجد فيها الخبز والزيت في الحوانيت على طول سفره[2].

عُرفت المدن الأندلسية بأسواقها العامرة، فقد احتوت معظم تلك المدن على أكثر من سوق يومية دائمة، تباع فيه مختلف المنتوجات، فمثلا كان لقرطبة والمدن التابعة "لها ما يكفيها من الأسواق والفنادق وسائر الصناعات"[3]، وكانت أسواق مدن الأندلس مرتبة ترتيبا حسنا، بحيث وجد لأهل كل حرفة سوق خاصة بهم، تخصصت ببيع سلعة معينة من السلع التجارية[4]، وكانت كل جماعة من التجار يجلسون معا في قسم واحد، ولهذا فإنّ السوق الرئيسية في كل مدينة تتألف من عدد من الأسواق المختلفة حسب الاختلاف المهني فيما بينها[5]، فكان بمدينة قرطبة سوق خاصة بالعطّارين[6] والصيادلة، تباع فيها مختلف أنواع العقاقير والأعشاب الطبية والتوابل، والعطور والمسك والعنبر واللُّبَان وغيرها[7]، وسوق خاصّة بالصوّافين والحرّارين والشقّاقين[1]، وأسواق أخرى خاصة بالحصّارين والكتّانين والبزّازين والخرّاطين والقصّابين والخشّابين والفرّائين[2].

1- الخليفات محمد عطا الله، أسواق الأندلس، ص: 144.

2- الزهري، الجعرافية، ص: 80.

3- الحميري، الروض المعطار، ص: 456.

4 محمد عطا الله الخليفات، أسواق الأندلس، ص: 145.

5- البكر خالد بن عبد االكريم، النشاط الاقتصادي، ص: 240.

6- ابن حيان، المقتبس، تح: شالميتا، ص: 383.

7- السقطي، آداب الحسبة، ص ص: 41-43.

وكان بمدينة غرناطة سوق للفخّارين، "وبربض البيّازين في غرناطة تَحُفُّ دكاكين الشُّهود والعطّارين"[3]، وقد ذكر الإدريسي أنّ لمدينة مالقة "أسواق عامرة ومتاجر دائرة"[4]، فكان بها سوق خاصّة بالحدّادين المختصّون بصناعة الآلات الحديدية كالسكّاكين والأمقاص وغيرها، وأخرى خاصة بالدبّاغين وبصنائع الجلد كالأغشية والحُزُم والمدورات، وبها أيضا سوق ممتدٌّ لِعَمل الخُوص من الأطباق، وسوق أخرى خاصة بالفخّارين حيث يصنع بها الفخّار المذهّب الذي لا يوجد مثله[5]، وبمدينة إشبيلية أيضا أسواق كثيرة، وأكثر تجارة أهلها بالزيت[6]، ولمدينة لورقة أسواق كثيرة وفي ربضها سوق العطر[7]، وكان بمدينة المرية سوق خاصة بالحرير حيث تباع فيها مختلف المنسوجات الحريرية التي اشهرت مدينة المرية بصناعتها[8]، وكان بمدينة طليطلة أسواق منتشرة منها سوق خاصة بالفرّائين[9].

كما انتشرت في عدد من مدن الأندلس أسواق النخاسة، يعرض فيها الرقيق من الغلمان والجواري الذين جلبوا بواسطة الحملات العسكرية الموجّهة ضد الدويلات النصرانية في شمال الأندلس أو بواسطة القوافل التجارية التي كانت تجلبهم من أنحاء متفرقة من أوروبا[10]، وقد انتشرت أسواق النخاسة في معظم مدن الأندلس كطليطلة وإشبيلية وغيرها[11]، وكان للرقيق الجواري سوق نافقة بالأندلس، وذلك لأنّها كانت مربحة وتُدِرُّ على أصحابها أموالا طائلة، وقد تباينت أسعار

1- ابن حيان، المقتبس، تح: شالميتا، ص: 383.
2- الخليفات محمد عطا الله، أسواق الأندلس، ص: 146.
3- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص: 214.
4- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 200.
5- القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص: 219.
6- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 178.
7- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 196.
8- نفسه، ص: 197.
9- ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص: 53.
10- البكر خالد بن عبد االكريم، النشاط الاقتصادي، ص: 242.
11- المزايدة عمر زعل محمد، الحياة الاقتصادية في الأندلس، ص ص: 160-161.

الجواري؛ فالمتعلمات والجميلات وصغيرات السن كنّ أغلى ثمنا، لذلك حرص تجّار الجواري من أجل زيادة أسعارهن على تعليمهن وتطوير مواهبهن[1].

وكانت الأسواق الأندلسية تتميّز بنظافتها، حيث يذكر الإدريسي أنّ لمدينة بَسْطَة سوق نظيفة[2]، ويذكر ابن حوقل أنّ مدينة قرطبة تتميّز بفسحة أسواقها ونظافة محالّها[3]، وحرصا على نظافة المدينة كانت الأسواق تُقام في الأرباض أو خارج أسوار المدينة خاصة الأسواق المخصصة للماشية والدواب، فقد كان بقرطبة سوق للدواب يقام خارج أسوارها[4]، وتباع في أسواق الدواب مختلف أصناف الماشية والدواب، وكانت عملية البيع والشراء لا تتمّ في الغالب إلّا بعد إجراء الفحص اللازم للدابّة بواسطة البَيْطار للتأكّد من سلامتها[5]، وكثيرا ما كانت تحدث مناوشات بين الباعة والمشترين، فقد روي أنّه دخل رجل على الخليفة عبد الرحمن الناصر وقد زعم أنّه اشترى حمارا فوجد فيه عيبا، فرفع ذلك إلى القاضي فردّ حكمه إلى أهل السوق فأفتوا أنّه عيب حديث، فقال له الخليفة الناصر: "تجاوزت القاضي وأهل السوق في هذه المسألة الوضيعة"، ثم أمَر به فضُرِب ونودِيَ عليه بذلك مُجَرِّسا[6].

أقامت الكثير من المدن الأندلسية –إلى جانب الأسواق اليومية– أسواقا حافلة خصّص لها يوم محدّد من الأسبوع، فكانت تُقام سوق حافلة بقرية شَوْذَر كل يوم ثلاثاء[7]، وبمدينة قَبْرَة كانت تقام سوق جامعة يوم الخميس[8]، وكان لمدينة قَرْمونَة سوق جامعة يوم الخميس كذلك[9]، وكان التجار يجتمعون في هذه الأسواق من كل حدب وصوب، جالبين معهم مختلف البضائع والسلع من خضر وفواكه وتوابل وأقمشة وأواني وغيرها من السلع المتنوعة، وكان يقصد هذه الأسواق

1- الخليفات محمد عطا الله، أسواق الأندلس، ص: 148.
2- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 202.
3- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 107.
4- عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج2، ص: 182.
5- البكر خالد بن عبد االكريم، المرجع السابق، ص: 241.
6- ابن سعيد المغربي، المغرب، ج1، ص: 185.
7- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 117.
8- الحميري، المصدر نفسه، ص: 149.
9- نفسه، ص: 159.

الكثير من سكان المناطق المجاورة فيجتمع عليها خلق كثير ولذلك سمّيت بالأسواق الجامعة والحافلة، وقد ساهمت هذه الأسواق في إنعاش الحركة التجارية الداخلية بالأندلس.

2-السِّكّة والنقود:

استعمل المسلمون النّقد الثنائي كقطعتين نقديّتين رئيسيتين هما الدّينار الذّهبي والدّرهم الفضّي، بالإضافة إلى عملات صغيرة من أجزاء الدّينار والدّرهم كالدّانق والمثقال، واستخدموا النّحاس والخلائط المعدنية في صكّ الفلوس، وكانت الدولة تحدّد وزن الدينار الذهبي والدرهم الفضّي وقيمتهما، وكانت تضرب على أيدي المزيّفين وتعاقبهم بأشدّ العقوبات، أمّا العملة النحاسيّة فكانت تعدّ عدّا، كما كانت الدولة تُجبر رعاياها على التعامل بعملة الدّولة[1].

ويعرّف ابن خلدون السِّكَّة بأنّها: "النّظر في النقود المُتعامل بها بين الناس، وحفظها ممّا يُداخلها من الغشّ أو النقص... ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاسْتِجَادَة والخُلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتُّخِذ لذلك، ونُقِشَ فيه نقوش خاصة به"[2]، وكان شكل الدينار والدرهم دائريا أو مربّعا أحيانا (العملة الموحدية)، وغالبا ما كان يُضرب على أحد وجوه العملة ذكر كلمة الجلالة والصلاة على النبيّ والبسملة، وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة أو عامله وتاريخ الضرب، واسم المدينة التي سُكَّ فيها، وكانت المسكوكات تُحلّى بالخط الكوفي[3].

أ-السّكّة والنقود في المغرب الأوسط:

جرت العادة على تغيير تقاليد الدولة عند تغيّر الحاكم، ومنها تغييّر السكّة، ولذلك فقد تغيّرت السكّة في بلاد المغرب الأوسط مرات عديدة منذ الفتح الإسلامي لها، وذلك بتداول عدة دول على حكمها، ففي العهد الرستمي لم يذكر المؤرخون مباشرة قيام الرستميين بإنشاء دار السكّة وإن كان المرجّح أنّهم فعلوا ذلك، حيث تذكر بعض المراجع أنّه كانت للرستميين سكّتهم التي يتعاملون بها، وأنّهم قاموا بسكّ هذه العملة، وإن كانت هذه العملة لم يعثر على نماذج منها

1- العناسوة محمد، "**المسكوكات مصادر وثائقية للمعلومات في التاريخ الإسلامي: دراسة تحليلية للعملات الأندلسية والفاطمية والمرابطية والموحدية في المغرب العربي**"، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية، المجلّد 43، العدد 1، 2016، ص: 160.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص: 258.

3- العناسوة محمد، المرجع السابق، ص: 160.

حتى الآن[1]، عدا بعض الفلوس البرونزية المضروبة في تيهرت، قد ضرب على أحد وجهيها "ضرب هذا الفلس بيتهرت"، وعلى الوجه الآخر: "ممّا أمر به راشد بن قادم"[2]، ويذكر الباروني أنّه في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب كثر المسافرون إلى بلاد السودان للإتّجار واستجلاب التبر وضربه دراهم ودنانير للتعامل واتّخاذه حليّا[3]، وقد تداول الناس بتيهرت الدّراهم والدّنانير، وذلك في قول ابن الصغير في وصفه لنزاهة يعقوب بن أفلح أنّه "ما جسّ بيده دينارا ولا درهما"[4]، ويذكر الدرجيني أنّ عبد الوهاب بن رستم بعث ألف دينار إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبا[5]، وغيرها من الإشارات التي تدلّ على أنّه كان للرستميين عملتهم التي يتداولونها.

وبدخول بلاد المغرب الأوسط تحت حكم الفاطميين تكون النقود الفاطمية قد حلّت محلّ النقود المحليّة، وقد ضرب الفاطميون نقودهم على طراز العملة العباسية إلى جانب ذكر اسم الخليفة عبيد الله المهدي أوّل خلفائهم، وفي عام 358هـ/969م أمر الفاطميون بإحداث تغيير جذري في طراز العملة من حيث التصميم، فقاموا بنقش كتاباتهم في ثلاث دوائر متحدة في المركز بدل الترتيب الأفقي الذي كانت تُنقش عليه كتابات بالعربية منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان هدفهم من وراء ذلك هو التأكيد على أحقيتهم في الخلافة[6].

وقد أتاحت الدّنانير الفاطمية المكتشفة للمؤرخين أن يقدّموا تفاصيل وافية حول الدّينار الفاطمي، وتفيد النقود المكتشفة أنّ وزن الدّينار كان يتأرجح بين 4.05 غرام و4.20غ، وكان ينخفض وزنه في بعض الأحيان ليصل إلى 3.72غ[7]، وكان للدّينار أجزاء هي نصف وربع أو رباعي، وثمن أو ثماني، وسدس أو سداسي، ونظرا لاختلاف وتغيّر وزن الدّينار فقد كانت تختلف أوزان أجزائه[8]، وكان صرف دينار الذهب ثمانية دراهم فضّة، وصرف مثقال الذهب 12 درهما، وفي عهد المعزّ لدين الله الفاطمي كان صرف الدّينار المعزّي 15 درهما ونصف درهم، ليبلغ صرف

1- الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية، ص: 235.
2- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 173.
3- الباروني أبو الربيع سليمان، مختصر تاريخ الإباضية، طرابلس، ص: 44.
4- ابن الصغير، أخبار الأئمة، ص: 98.
5- الدرجيني، طبقات، ج1، ص: 56.
6- العناسوة محمد، المسكوكات، ص: 161.
7- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 175.
8- الونشريسي، المعيار، ج5، ص ص: 73، 76؛ جودت، المرجع السابق، ص: 175.

الدّراهم بالنسبة للدّينار الواحد في بعض الأوقات ما بين 77 و100 درهم[1]، وكانت قيمة الدّينار بالنسبة للدّرهم تتغير بمرور السنين وتغيّر الأحوال.

ويتجزّأ درهم الفضّة إلى نصف درهم ويسمّى القيراط، وللدّرهم ربع وثمن ونصف ثمن ويسمّى الخرنوبة أو الخرّوبة[2]، ويبدو أنّ الخرّوبة كانت مصنوعة من النّحاس، وكان تحويل نقود الفضّة التي هي الدرهم والقيراط إلى نقود نحاسية (الخرّوبة) من العادات الجاري بها العمل والتي يسمح بها الفقهاء[3]، ويذكر البكري أنّ درهم أهل تنس يساوي اثنا عشر درهما صقلية، وكان درهم أهل أرشقول يساوي ثماني خراريب والخروبة أربع حبّات شعير[4]، وتظهر أهمية هذه الأجزاء والعملات النحاسية في أنّها تساعد على إجراء العمليات التجارية البسيطة، خاصة أيام الرخاء الاقتصادي وتوفّر السلع، حيث تنخفض الأسعار فتزداد الحاجة إلى النقود البسيطة وتقلّ الحاجة إلى النقود الثمينة[5].

كان الزيريون يضربون السكّة وذلك منذ عهد زيري بن مناد، لكنّهم ينقشون عليها اسم الخليفة الفاطمي، الذي يدينون له بالتبعية، وفي شعبان من سنة 441هـ/1049م أمر المعزّ بن باديس بتبديل السكّة، بعد إعلانه القطيعة مع الفاطميين، فأمر بإزالة أسمائهم من النقود والرايات والبنود، فضُرِب الدينار المسمّى بالتّجاري، ونُقش على الوجه الأول له: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[6]، وفي الوجه الثاني: لا إله إلّا الله محمد رسول الله، وضُرِب منها دنانير كثيرة[7]، وضرب الحماديون السكّة أيضا ويبدو أنّ أوّل من ضربها باسمه من بني حمّاد هو المنصور بن الناصر بن علناس، ولم يصف المؤرخون نقوده[8]، لكن ابن خلدون وصف لنا نقود يحي بن العزيز الحمّادي في قوله: "سكّته في الدّينار

1- إدريس الهادي روجي، الدولة الصنهاجية، ج2، ص: 257 (ينظر كذلك إلى حاشية الكتاب).
2- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 240.
3- إدريس الهادي روجي، المرجع السابق، ج2، ص ص: 256-257.
4- البكري، المغرب، ص ص: 147، 165.
5- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص: 177.
6- الآية 85 من سورة آل عمران.
7- ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص: 278.
8- الطمار محمد، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010، ص: 186.

كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه، فدائرة الوجه الواحد: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]، والسطور "لا إله إلّا الله ومحمد رسول الله، يعتصم بحبل الله يحي بن العزيز بالله الأمير المنصور، ودائرة الوجه الآخر: "بسم الله الرحمن الرحيم ضُرب هذا الدّينار بالنّاصريّة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة"، وفي سطوره الإمام أبو عبد الله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي"[2].

كما كان للمرابطين عملتهم الخاصة من الذّهب والفضّة، يتعامل بها السكان في أنحاء الدولة، وأنشئت لذلك الدّور لسكّ النّقود، وقد تعدّدت هذه الدّور في عهد المرابطين فكانت دار السكّة بمراكش وأخرى بسجلماسة وأخرى بتلمسان[3]، ويصف لنا ابن عذاري الدّينار المرابطي في عهد يوسف بن تاشفين فيقول: "دينار تِبْر في إحدى صفحتيه "لا إله إلّا الله محمد رسول الله"، وتحت ذلك "أمير المسلمين يوسف بن تاشفين"، وفي الدّاير ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[4]، وفي الصفحة الأخرى اسم أمير المؤمنين العباسي[5]، إضافة إلى النقود الذّهبية فقد كان للمرابطين نقود فضية تعرف باسم القراريط (جمع قيراط)، لكنّها كانت قليلة الاستعمال، وكان لهذه القراريط أجزاء مثل النصف والربع والثمن وذلك لتسهيل العمليات التجارية البسيطة كما أشرنا سابقا، ومن خصائص دراهم المرابطين عدم ذكر تاريخ الضَّرب، وخُلوِّها من الهوامش الكتابية إلّا نادرا[6].

أمّا دولة الموحدين فقد استحدثت طرازا جديدا في مجال المسكوكات المغربية ولا سيما الفضّية، حيث تمثّل هذا الابتكار الجديد في تغيّير الشكل الخارجي للدّرهم، من الاستدارة إلى التّربيع[7]، وكان المهدي بن تومرت هو أوّل من استحدث ذلك في بلاد المغرب حسب ما جاء في

1- الآية 281 من سورة البقرة.

2- ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 235.

3- حسن إبراهيم حسن، الحضارة الإسلامية، ص ص: 225-226.

4- الآية 85 من سورة آل عمران.

5- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج4، ص: 46.

6- بن قربة صالح، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه الدور الثالث في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، 1983/1982، ص: 497.

7- العمري يحياوي، السجل الزخرفي الموحدي على المسكوكات الفضية ودلالاته الرمزية والفنية، دراسات في آثار الوطن العربي

رواية البيدق في قوله: "فقال الفقيه ابن وهيب لعلي بن يوسف ثقّفه يا أمير المسلمين، لأنّ هذا هو صاحب الدّرهم المركّن، اجعل عليه كبلًا، كي لا تسمع له طبلاً!"[1]، فقد وصف ابن وهيب المهدي بن تومرت بصاحب الدّرهم المركّن أي المربّع، وكانت العملة الموحدية تقوم أساسا على الدّينار والدّرهم، وكانوا يضربون عملة صغرى أساسها الدّرهم منها نصف درهم وربع وثمن، أمّا الدّينار فقد ظلّ مدوّرا ولكنّ الموحدين جعلوا في وسطه شكلا مربّعا[2]، وكانت الكتابة فيه قريبة المعنى ولا تكاد تختلف العبارات إلّا قليلا، ومن أمثلة ما كانوا يكتبونه في أحد الوجهين عبارة "لا إله إلّا الله، الأمر كلّه لله، لا قوّة إلّا بالله"، وعلى الوجه الآخر في سطور ثلاثة "الله ربّنا، محمد رسولنا، المهدي إمامنا"، غير أنّ المأمون الموّحدي أسقط عبارة "المهدي إمامنا" لمّا أسقط رسوم المهديّة وحلّت مكانها عبارة "القرآن إمامنا"[3].

ويرجّح أنّ أوّل من ضرب الدنانير الموحدية هو عبد المؤمن بن علي، والذي نسبت إليه العملة فأطلق عليها العملة المؤمنية[4]، كما كانت هناك العملة اليوسفية والتي تنسب إلى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي، حيث أصدر عملته ونقش على الدنانير اسمه[5]، والدنانير اليعقوبية التي تنسب إلى أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، المنصور الموحدي[6]، كما ظهرت في هذه الفترة الدنانير والدراهم المسمّاة بالجشمية، والدراهم الجشمية تعني الدراهم الرديئة، ويبدو أنّ بعض الخلفاء الموحدين كانوا يصنعون من النحاس ما يعطونه زيفا اسم الدينار الذهبي[7].

أصبح للعملة الموحدية أجزاء لتسهيل التعاملات التجارية، قام بضربها عبد المؤمن بن علي، وهذا ما يؤكده النص التاريخي الذي أفرده عبد الواحد المراكشي فيقول: "بلغني من طرق عدّة أنّ يحي بن العزيز كان في مجلس عبد المؤمن يوما، فذكروا تعذّر الصَّرْف، فقال يحي: أمّا أنا فعليّ من

18، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ص: 832.

1- البيذق، أخبار المهدي، ص: 27.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص: 295.

3- عمر موسى عز الدين، الموحدون، ص ص: 294-295.

4- حسن إبراهيم حسن، الحضارة الإسلامية، ص: 228.

5- ابن خلكان، الوفيات، ج7، ص: 130.

6- ابن خلكان، المصدر نفسه، ص ص: 3، 12.

7- حسن إبراهيم حسن، المصدر السابق، ص: 229.

هذا كلفة شديدة، وعبيدي في كل يوم يشكون إليّ ما يلقون من ذلك، ويذكرون أنّ أكثر حوائجهم تتعذّر لقلة الصرف –وذلك أنّ عاداتهم في بلاد المغرب أنّهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخاريب، فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم– فلمّا قام يحي بن العزيز من ذلك المجلس، أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف"[1].

ب-السكّة والنقود في الأندلس:

استخدم المسلمون الأوائل في الأندلس مع بداية دخولهم العملة الرومانية أو القوطية، ثم قاموا بسكّ عملة نقش على أحد وجهيها عبارة "لا إله إلا الله أحد لا شريك له"، وفي عهد الوالي الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفي (98هـ/716م)، تمّ سكّ نقود حملت اسم الأندلس، ويبدو أنّ تلك المسكوكات لم تكن تكفي للتداول، فظلّت العملة البيزنطية المصنّعة في الأندلس متداولة[2].

وخلال بداية عصر الإمارة الأموية لم تكن الدولة تملك الإمكانيات الكافية لضرب العملة، خاصة مع انشغال الأمير عبد الرحمن الداخل في توطيد أركان دولته، وتوجد هناك إشارات على قيام عبد الرحمن الداخل ومن بعده بضرب عملة في رواية ذكرها ابن حيان نقلا عن الرازي، غير أنّ الإمارة لم تكن بتلك القوة التي تسمح لها بالاستمرار في الضرب[3]، فقد كان الأمير عبد الرحمن الداخل والأمراء الذين جاءوا من بعده يعتمدون في ضرب السكّة على دور السكّ القديمة، والتي لم تكن منظمة بشكل يعطيها تلك القوة النقدية التي حصلت عليها لاحقا في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، ولذلك فقد توقّفت دار السكّة عن الضرب وإصدار النقد[4].

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط استحكم أمر السكّة، حيث قام باستحداث دار السكّة في قرطبة، وكان أوّل ولاة السكّة للأمير عبد الرحمن هو عبد الرحمن بن أبي سهل، ويروي لنا ذلك ابن حيان نقلا عن الرازي فيقول: "وفيها أيضا اتخذت بقرطبة السكّة، وقام فيها بضرب الدراهم منقوشة باسمه، مُقدّرة على عياره، ولم يكن بها دار ضرب منذ فتحها العرب، وكان أهلها

1- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص: 153.

2- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص ص: 251-252.

3-ابن حيان القرطبي حيان بن خلف، السفر الثاني من كتاب المقتبس، تح وتق وتع: محمود علي مكي، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 2003، ص: 290.

4- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص: 255.

يتعاملون بما يحمل إليهم من دراهم أهل الشرق ودنانيرهم، فالمال قلّ لديهم وعدم عندهم..."[1]، فبالرغم من إنشاء الأمير عبد الرحمن الأوسط دار للسكّة إلّا أنّ الضرب كان مقتصرا على الدراهم دون الدنانير، وأنّ التعامل في عهد الإمارة كان يعتمد على الدراهم المسمّاة بالدّراهم القاسمية[2].

اختلفت سياسة الدولة الأموية خلال عصر الخلافة عمّا كانت عليه خلال عصر الإمارة، بدليل قيام الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة (316هـ/928م) –بعد إعلانه للخلافة– بإنشاء دار للسكّة في مدينة قرطبة لضرب العَيْن من الدنانير والدّراهم من خالص الذّهب والفضّة[3]، بعد أن كانت الدولة تضرب الدراهم الفضية فقط، وبذلك لم تظهر عملية سكّ النقود في بلاد الأندلس بشكل بارز وواضح ومستقل وكبير إلّا زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر، الذي استثمر وجود دار السكّة في قرطبة، والتي كانت تصدر النّقد الفضّي لمدة محدودة، فقام الناصر بتجديد دار الضرب[4]، "وولّى الخطّة أحمد بن موسى بن حُدَيْر، يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وأقام الضرب فيها من هذا التأريخ من خالص الذهب والفضة، وصحّح في ذلك أحمد بن موسى وتحفّظ، وكانت مَثاقيلُه ودراهمه عيارا مَحْضا"[5]، وكانت خزائن قرطبة، بعد وفاة الخليفة الناصر، تحتوي على خمسة ملايين دينار، أي ما يعادل مائتان وخمسون قنطارا من الذهب المضروب، وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر بلغ دخل بيت المال ما يعادل الأربعين مليون دينار[6].

وبعد تراجع نفوذ بني أميّة وسطوتهم، وذلك منذ أن تولّى هشام المؤيد منصب الخليفة واستبداد المنصور بن أبي عامر بالحُكْم، ظهرت الدّنانير العامرية[7]، حيث أمر المنصور بضرب اسمه

1- ابن حيان، المقتبس، ص: 291.

2- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 231. يرى المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال أنّ الدرهم القاسمي ينسب إلى شخص غير معروف اسمه قاسم، وأنّ هذا الدرهم كان متداولا بكثرة أيام الدولة الأموية، لدرجة أنه قد ورد ذكره في بعض دساتير مملكة ليون، مما يدل على رواجه في إسبانيا المسيحية أيضا. ينظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص: 59 (ينظر إلى الهامش).

3- ابن حيان، المقتبس، تح، شالميتا، ص: 243.

4- الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية، ص ص: 256-257.

5- ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص: 198.

6- لومبار موريس، الإسلام في مجده، ص: 178.

7- المراكشي، المعجب، ص: 37.

في الدينار والدرهم إلى جانب اسم الخليفة المؤيد[1]، وكان لزوال الخلافة الأموية أثر واضح على العملة، فقد تعدّدت العملات المتداولة ودور الضرب بتعدّد دويلات الطوائف، ولعلّ أكثر العملات انتشارا هي الدنانير العبّادية والدنانير الشرقية، والتي بقيت متداولة حتى في الفترة المرابطية[2]، وقد قام ملوك الطوائف، من بني عبّاد وبني ذي النون وبني جهور وبني حبّوس وغيرهم، بوضع أسمائهم وألقابهم على العملة التي كان معظمها أجزاء الدّينار، وكان يعيب دنانير تلك الفترة أنّها كانت تُضرب بنوع رديء من الذّهب مشوب أكثره بالنحاس، ممّا يدلّ على تدهور الحالة الاقتصادية والسياسية حينذاك[3].

انتعشت دور الضرب الأندلسية انتعاشا كبيرا خلال فترة حكم الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، حيث ضربت النقود المرابطية في معظم مدن الأندلس على غرار مدينة المرية وغرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية ومالقة ودانية وشاطبة وغيرها[4]، وكان الدافع من ذلك هو التنافس الكبير بين ملوك المسلمين وملوك النصارى، حيث تفوّقت العملة المرابطية على جميع العملات، فكان وزن الدينار المرابطي تقريبا أربع غرامات، أي حوالي 3.96غ[5]، مصنوع من الذهب الخالص، حيث أفتى العلماء بعدم جواز مراطلة الدّينار المرابطي الخالص مع غيره من الدنانير المشوبة بالنحاس كالدنانير العبادية والشرقية[6]، وظلّ الدينار المرابطي الذهبي، وكان يعرف باسمهم، مستخدما لعدّة قرون كأهمّ عملة ذهبية في الغرب الإسلامي[7].

وفي عصر الموحّدين تميّزت العملة بارتفاع قيمتها وبصفة خاصة الدينار المؤمني والدّرهم المؤمني، نسبة إلى عبد المؤمن بن علي[8]، وعمل أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بمضاعفة وزن الدينار للرفع من قيمته لعظمة الدولة الموحدية وضخامتها، وفي سياق ذلك يقول ابن عذاري

1- ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص: 62.

2- ابن رشد أبو الوليد، مسائل أبي الوليد بن رشد (الجَدّ)، تح: محمد الحبيب التجكاني، م2، بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط2، 1993، ص: 818.

3- العناسوة محمد، المسكوكات، ص: 163.

4- العناسوة محمد، المسكوكات، ص: 163.

5- حسن إبراهيم حسن، الحضارة الإسلامية، ص: 227.

6- ابن رشد، مسائل ابن رشد، ج2، ص: 830.

7- لويس أرشيبالد، القوى البحرية، ص: 387.

8- العناسوة محمد، المرجع السابق، ص: 164.

المراكشي: "ولم تزل همّة المنصور تتبع جزيئات المملكة بالتفخيم، ويجيل النظر فيما بقي منها للتكميل والتتميم، فرأى أنّ الدينار القديم يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية، وأنّ جرمه يقل عمّا عارضه من المناظر الفخمة الجارية، فعظّم جرمه ورفع قدره بالتضعيف وسومه"[1]، وكان الدينار الموحدي ضعف الدّينار العادي في الوزن، ولهذا عرف باسم dobla عند النصارى، وضرب الموحدون على أيام المنصور الموحدي نصف دينار موحدي يزن دينارا عاديا[2]، فأصبح بذلك وزن الدينار الموحدي 4.729 غ، متفوّقا بذلك على العملة المرابطية وسابقاتها[3]، وكانت دور الضرب الموحدية منتشرة بعدّة مدن بالأندلس على غرار مدينة إشبيلية وقرطبة ومالقة والمرية[4].

3-المكاييل والأوزان:

استخدمت المكاييل والأوزان على نطاق واسع في بلاد المغرب الإسلامي وبلاد الأندلس، وذلك لحاجة الناس إليها في حياتهم اليومية وكذلك لارتباطها بالشريعة الإسلامية مثل الزكاة والصدقات والكفّارات والخراج في البلاد الإسلامية، كما اهتمّوا بضبط مقاديرها وأوزانها وذلك لقمع الغش والتدليس، وقد تنوّعت المكاييل والمقاييس في بلاد المغرب وبلاد الأندلس، كما اختلفت في مقاديرها من قطر إلى آخر.

أ-المكاييل:

يُعرّف الكَيْلُ والمِكْيَال لغة أنّه ما يُكَالُ به سواء كان حديدا أو خشبا، ومعنى كِيلَ الشيء أي وُزِنَ وعُرِفَ مقْداره[5]، أمّا اصطلاحا فهو تلك الوسائل التي تستعمل في كيل مختلف المواد السائلة والصلبة، وقد تعدّدت أنواعه وأحجامه، وهي تختلف من بلاد إلى أخرى، وقد اعتبر المُدُّ والصَاع من الوحدات الأساسية في المكاييل، وهما مفتاح معرفة باقي المكاييل[6].

1- ابن عذاري، البيان المغرب: قسم الموحدين، ص: 182.
2- أبو الحسن الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص: 111.
3- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص: 229.
4- العناسوة محمد، المرجع السابق، ص: 165.
5- ابن منظور، لسان العرب، ص: 3968.
6- الكردي محمد نجم الدين، المقادير الشرعية والأحكام الفقهية المتعلقة بها، القاهرة، ط2، 2005، ص: 135.

عُرف الكَيْل منذ القدم وقد اعتبر عنصرا أساسيا من عناصر المبادلات اليومية في البلاد الإسلامية، وقد وَرَد ذكر الكيل والمكيال في مواضع عدّة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾[1]، وفي قوله أيضا: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾[2]، ومن أشهر المكاييل المستعملة في المغرب الأوسط والأندلس:

المُدّ: وهو من المكاييل المشهورة في بلاد المغرب وبلاد الأندلس، ومقداره هو رُبع صَاعٍ، وهو قَدْر مُدِّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم، وأصل المدّ مقدّر بأن يمدّ الرجل يديه فيملأ كفّيه طعاما[3]، فمقداره ملء اليدين المتوسطتين من غير قبضهما[4]، ويذكر البرزلي أنّ المُدَّ قد غُيِّر في غيْر ما بلد وغيْر ما زمان، واختلف في ذلك اختلافا كثيرا لأجل الموازين والزيادة فيها والنقصان منها، فلم يجد لها معيارا أقوى ولا أصحّ من أنّ المدّ حفنة باليدين جميعا من رجل وسط في الرجال[5]، وقد جُلِب المُدُّ من المدينة المنوّرة إلى بلاد المغرب والأندلس، فمازال متعارفا عند الناس أنّ مقدار المدّ ليس أكبر من رطل ونصف ولا أقلّ من رطل وربع أو رطل وثلث، ولا يستغنى عنه في زكاة الفطر وفي الصدقات[6].

ظهرت العديد من الأمْداد في بلاد المغرب والأندلس واختلف في تحديد مقاديرها من مكان إلى آخر، فقد ظهر المُدُّ القَرَوِيّ، نسبة إلى مدينة القيروان، والذي يبدو أنّه كان شائعا في بلاد المغرب خصوصا في القرون الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي، ومقداره أقلّ بقليل من المدّ النبويّ، حيث أنّ المدّ النبويّ يساوي مدّا وثمن مدّ قروي[7]، وكان لأهل تيهرت مُدٌّ خاص بهم حيث يذكر البكري أنّ: "مُدُّهم الذي يكتالون به خمسة أقفزة ونصف قرطبية"[8]، كما ظهر في

1- سورة الإسراء الآية: 35.
2- سورة هود الآية: 85.
3- ابن منظور، لسان العرب، ص ص: 4158-4159.
4- محمد علي جمعة، المكاييل والموازين الشرعية، القاهرة: دار القدس، ط2، 2001، ص: 63.
5- البرزلي، جامع مسائل الأحكام، ج2، ص: 102.
6- الونشريسي، المعيار المغرب، ج1، ص: 399.
7- الونشريسي، المصدر نفسه، ج2، ص: 73.
8- البكري، المغرب، ص: 154.

العهد الموحدي المُدُّ المراكشي، وكان يصل سعر المدّ المراكشي من القمح والشعير زمن الحرب إلى ثلاثة دراهم[1].

الصّاعُ: وهو مِكْيال لأهل المدينة، مقداره أربعة أمْداد[2]، جمعه أَصْوُعٌ وصِيعَانٌ، وصاع النبيّ صلى الله عليه وسلم خمسة أرطال وثلث[3]، حيث يذكر المقريزي أنّ: "عمر بن حبيب القاضي قال: حججت مع أبي جعفر المنصور، فلما قدم المدينة قال: ائتوني بصاع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتي به، فعايره فوجده خمسة أرطال وثلثا برطل أهل العراق"[4].

والصاع كما المدّ من المقادير المجلوبة من المدينة إلى بلاد المغرب والأندلس، حيث يذكره الدرجيني كأداة للكيل، وجاء ذكره في سياق حديثه عن المهدي النفوسي، فيقول: "فَكَالَهُم بِصَاعِهِم لم يُطَفِّف ولم يَبْخَس"[5]، وكان أهل تلمسان يكتالون بصاع يعرف بالتاشفيني ثم استبدل بصاع أكبر يعرف بالوهراني[6]، كما كان الصاع مشهورا في الأندلس، ففي نازلة عرضت للفقيه أبي عبد الله الحفّار عن مقدار صاع زكاة الفطر بغرناطة، أجاب أنّ مقداره أربع حفنات بكلتا اليدين من القمح أو غير ذلك، فهو مقدار الصاع الشرعي[7].

القَفِيز: وهو مِكْيال تَتَوَاضَعُ الناس عليه، جمعه أَقْفِزَةٌ وقُفْزَانٌ[8]، والقفيز من المكاييل القديمة حيث كان معروفا قبل الإسلام، وكلمة قفيز من أصل آرامي مشتقة من كلمة "قَفِيزا"، وقد أقرّت الدولة الإسلامية الناس بتداول القفيز، فقدّرت به كميات خراج الأرض وزكاتها[9]، ويستعمل القفيز في

1- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص: 420-421.

2- ابن منظور، لسان العرب، ص: 2526.

3- حلاق محمد صبحي بن حسن، الإيضاحات العصرية للمقاييس والمكاييل والأوزان والنقود الشرعية، صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، 2007، ط1، ص ص: 84-85.

4- المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، الأوزان والأكيال الشرعية، تح وتع: سلطان بن هليل بن عيد المسمار، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 2007، ص: 71.

5- الدرجيني، طبقات المشائخ، ج2، ص: 314.

6- العقباني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التلمساني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تح: علي الشنوفي، 1967، ص: 236.

7- الونشريسي، المعيار المغرب، ج1، ص: 398.

8- ابن منظور، لسان العرب، م5، ص: 3701.

9- حلاق محمد صبحي، الإيضاحات العصرية، ص: 100.

كيْل الحبوب والسوائل ويختلف مقداره من قطر إلى آخر، ويعتبر القفيز أهم وحدة للكيل استعملت في تجارة الحبوب بالحوض الغربي للمتوسط، رغم الاختلاف الكبير في وزنه بين مناطق بلاد المغرب[1].

فالقفيز المعروف في بلاد المغرب هو القفيز القيرواني، ويذكر المقدسي أنّ: "قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثُمْنا، والثُمن ستّة أمْدَاد بمُدّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم"[2]، ويعطينا البكري شرحا أكثر تفصيلا حول مقدار القفيز القيرواني فيقول: "والقفيز بالقيروان وأعمالها ثماني وِيبَات، والوِيبَة أربعة أَثْمان، والثُمْنَة ستّة أمْداد بِمُدٍّ أَوْفَى من مُدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومقدار تلك الزيادة في القفيز كلّه اثنا عشر مدّا، فصار القفيز القروي مائتي مدّ وأربعة أمداد بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذلك بكيل قرطبة خمسة أَقْفِزَة غير ستّة أمداد"[3]، ويستعمل القفيز كذلك لكيْل السوائل خاصة الزيت، ففي حديث الدبّاغ عن سخاء القاضي أبي العباس بن طالب[4]، يذكر أنّه أمر بإعطاء خمسين قفيزا من الزيت لرجل كان قد سأله شيئا من الزيت[5]، ويبدو أنّ مقدار قفيز الزيت يختلف عن مقدار قفيز الحبوب وذلك لاختلاف طبيعة المادة، حيث يذكر البكري أيضا أنّ: "قفيز الزيت عندهم –أي بالقيروان– ثلاثة أرطال فُلْفُلِيَّة"[6]، أي حوالي 1.23 كيلوغراما[7].

ويختلف القفيز الأندلسي عن القفيز القرويّ، حيث يذكر المقدسي أنّ: "قفيز الأندلس ستّون رطلا، والربع ثمانية عشر رطلا، وفَنِيقَة نصف قفيز"[8]، وللقفيز أجزاء تعامل الناس بها منها

1- نشاط مصطفى، جنوة وبلاد المغرب، ص: 218.

2- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 240.

3- البكري، المغرب، ص: 108.

4- **أبو العباس بن طالب**: هو القاضي أبو العباس عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي المالكي، كان عدلا في قضائه، حازما في جميع أموره، عالما بما اختلف فيه، ولي قضاء القيروان سنة 259هـ، توفي رحمه الله سنة 275هـ. ينظر: الدبّاغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج2، تع: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تح: محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، القاهرة: مكتبة الخانجي، تونس: المكتبة العتيقة، 1972، ص ص: 159-173.

5- الدباغ، المصدر نفسه، ص: 166.

6- نفسه، ص: 108.

7- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص ص: 185-186.

8- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 240.

نصف القفيز وقد ذكره القاضي عياض في إشارته للبهلول بن راشد[1] الذي أمر "أن يُشترى له ربع نصف القفيز"[2] من الطعام، كذلك يوجد ربع القفيز[3]، وربع النصف وكانوا يطلقونها للدلالة عن ثمن القفيز، وتوجد إشارة عند الدرجيني على أنّ استعمال ثمن القفيز كان متداولا في بلاد المغرب في قوله: "فخرج الغلام فأعطى كل رجل من أهل الرفقة ثُمُنَيْن قمحا برسم زاد الطريق"[4]، كذلك إشارة المقدسي في المقولة التي ذكرناها سابقا: "قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمنا، والثمن ستة أمداد بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم"[5]، وكان ثمن القفيز من أكثر المكاييل استعمالا في كل من عنابة والقلّ وقسنطينة، وكان يطلق عليه "الثُّمْنَة"، وسعته تتراوح ما بين 20 إلى 23 لترا[6].

الوَيْبَةُ: وهي من المكاييل المستعملة في بلاد المغرب والأندلس لكيل الحنطة والشعير والدقيق والتمر، وذلك ما نستشفه من بعض نوازل الونشريسي أين ورد استعمال الويبة كمكيال، فيقول: "فلا بد أن يأخذ وَيْبة قمح ونصف ويبة دقيق أو شعير أو تمر..."[7]، ويذكر البكري أنّ "الوَيْبَة أربعة أثمان والثُّمنة ستة أمْداد بمدّ أوفى من مدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم"[8]، إذن فالويبة أربعة وعشرون مدّا قرويّا حسب ما ذكره البكري، وحسب ما كان متعارفا عليه في بلاد المغرب، إلّا أنّ جودت عبد الكريم يوسف ذكر نقلا عن البكري أنّ مقدار ويبة مدينة باغاية يختلف عن مقدراها في باقي المناطق فيقول: "كيل الطعام بباغاية بالوَيْبة وهي أربعة وستون مدّا بمد النبيّ صلى الله عليه

1- **البهلول بن راشد:** هو أبو عمرو البهلول بن راشد من أهل القيروان، كان ثقة مجتهدا وَرِعًا مستجاب الدعوة، سمع من الإمام مالك وكان من أصحابه، كما سمع من سفيان الثوري وغيرهم، توفي رحمه الله سنة 183هـ. ينظر: القاضي عياض، تراجم أغلبية، تح: محمد الطالبي، تونس: الجامعة التونسية، 1968، ص ص: 27-40.

2- القاضي عياض، المصدر نفسه، ص: 30.

3- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص: 186.

4- الدرجيني، طبقات المشائخ، ج1، ص: 116.

5- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 240.

6- برشفيك روبار، تاريخ إفريقية، ص: 262.

7- الونشريسي، المعيار المغرب، ج5، ص: 75.

8- البكري، المغرب، ص: 108.

وسلم، وتساوي بكيل أهل قرطبة قفيزا ونصفا"[1]، والقفيز الأندلسي حسب ما ذكر المقدسي "ستّون رطلا، والربع ثمانية عشر رطلا، وفَنِيقَة نصف القفيز"[2].

ويذكر المقدسي كيلا فاطميا يسمّى "الدَّوَّار" وهو نفسه الويبة، ويصفه فيقول: "ومكاييل الفاطميّ الدوّار، وهي التي تشفّ على ويبة مصر بشيء يسير، قد أُلجم رأسها بعارضة من حديد، وأُقيم عمود من قاعها إلى العارضة، فوقه حديد يدور على رأس الويبة، فإذا أَترعها أدار الحديدة فمسحت فم الويبة وصحّ الكيل"[3].

الصَّحْفَة: وهي من المكاييل المستعملة في بلاد المغرب الأوسط، حيث يذكر البكري أنّ كيْل أهل مدينة تَنَس يسمّى الصحفة "وهي ثمانية وأربعون قادوسا، والقادوس ثلاثة أمداد بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم"[4]، أي أنّ الصحفة الواحدة تساوي 144 مدّا بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، كما خصّ بالذكر أيضا صَحْفَة أهل بلد نكور، والتي يبدو أنّها تقلّ في مقدراها كثيرا عن صَحفة أهل تنس، فيقول: "وكيْل نكور يسمّونه الصَحْفَة وهي خمسة وعشرون مدّا بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويسمّون نصف الصحفة السُّدُس"[5].

كما ورد ذكر الصَّحْفَة في عدد من المصادر، لكن ليس ككيل وإنّما وردت بمعنى إناء للأكل، فالصَّحْفَة لغة وعاء يشبه القَصْعة، وهي مسطحة الشكل وعريضة، تُشْبع خمسة أشخاص ونحوهم، والجمع صِحَافٌ[6]، ويوردها الدرجيني بمعنى وعاء للثريد في قوله: "فلمّا أكلنا من ذلك ما اشتهينا أحضر صحفة ثريد"[7]، والأمر نفسه عند البيدق في قوله: "وذلك أنّه رأى صحفة من طعام على ركبتيه يأكل الناس منها"[8] وغيرها من المواضع.

1- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ص: 187.
2- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 240.
3- المقدسي، المصدر نفسه، ص: 240.
4- البكري، المصدر السابق، ص: 147.
5- البكري، المصدر نفسه، ص: 177.
6- ابن منظور، لسان العرب، ص: 2405.
7- الدرجيني، طبقات المشايخ، ج2، ص: 507.
8- البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص: 14.

الوَسْقُ: أو الوِسْقُ مِكيال معلوم، وهو حِمْل بعير، وهو ستّون صاعا بصاع النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو خمسة أرطال وثُلث، وخمسة أَوْسُقٍ هي خمسة عشر قَفيزا[1]، والوَسْقُ جمعه أَوسُقٌ وأَوْسَاقٌ، وهو من وَسَقْتُه بمعنى جمعته، ومقداره "ستّون صاعا والصاع أربعة أمداد، والمدّ رطل وثلث"، وفي الوسق أربعمائة رطل[2]، والوسق من المكاييل الشائعة الاستعمال في بلاد المغرب الأوسط، وكانت تكال به الحبوب والزبيب، وتحدّد به مقادير الزكاة.

كما شاع استعمال الوسق في بلاد الأندلس، حيث يذكر العزفي أنّ أبا الوليد بن رشد، وهو قاضي الجماعة بقرطبة، قال: "لا اختلاف أنّ الوسق ستّون صاعا، وأنّ خمسة الأوْسُقِ ثلاث مائة صاع، وكذلك لا يُختلف أيضا أنّ الصاع أربعة أمداد بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم، فمدّنا مدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وكيلنا كيله، وقفيزنا اثنا عشر صاعا، فالوسق بكيلنا خمسة أقفزة، والنِّصاب خمسة وعشرون قفيزا"[3].

المُدْيُ: من المكاييل المعروفة، وهو مكيال ضخم لأهل الشام وأهل مصر، جمعه أَمْدَادٌ، والمُديُ هو القفيز الشامي، وهو غَيْرُ المُدِّ، يسع خمسة وأربعين رطلا[4]، فالمدي في الأصل مكيال لأهل الشام وأهل مصر، وجلب إلى الأندلس وتمّ تغيير مقداره، حيث يذكر ابن غالب أنّ المدي القرطبي زنته ثمانية قناطير، والستة أقفزة هي نصف المدي، أي أربعة قناطير[5].

ب-الأوزان:

تعتبر وحدات الأوزان ضرورية لتسهيل التعامل بين الناس في الحالات التي لا يصلح فيها الكيل أو العدّ[6]، فاتخذ الناس في الغرب الإسلامي وحدات خاصة للأوزان، اختلفت مقاديرها من منطقة إلى أخرى، ولقد سهّلت هذه الأوزان على الناس معرفة مقادير الزكاة والجباية، كما سهّلت

1- ابن منظور، لسان العرب، ص: 4836.

2- الشميني ضياء الدين عبد العزيز، كتاب النيل وشفاء العليل، محمد بن يوسف أطفيش، شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج3، جدة: مكتبة الإرشاد، بيروت: دار الفتح، ليبيا: دار التراث العربي، ط2، 1972، ص ص: 18-20.

3- العزفي أبو العباس أحمد بن محمد السبتي، إثبات ما ليس منه بدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تخ ودر: محمد الشريف، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 1999، ص ص: 56-57.

4- ابن منظور، المصدر السابق، ص: 4162.

5- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ص: 30، 35.

6- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ص: 178.

عليهم عمليات التبادل التجاري، ويُعتبر الدرهم والدينار الوحدتان الأساسيتان لاستخراج باقي الموازين بعد معرفة وزنهما، سواء أكانت هذه الموازين من أجزائهما أم من مضاعفاتهما[1]، وقد عرفت بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس العديد من وحدات الأوزان أهمّها:

الدّرهم: هو اسم لما ضرب من الفضة على شكل مخصوص، وهو وحدة نقدية من مسكوكات الفضة، معلومة الوزن، وأصل كلمة درهم أعجمية عربت عن اليونانية (دَرَاخْمَا ودَراخم)[2]، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾[3].

يعتبر الدرهم من أكثر وحدات الوزن رواجا في كل من المغرب الأوسط والأندلس، كما اختلفت قيمته من منطقة إلى أخرى، وذلك نظرا لتغيّر الدول والأحوال، حيث كان درهم الكيل يعادل درهم النقد[4]، وعلى العموم يقدّر وزن الدرهم عند جمهور الفقهاء بستّة دَوَانِق، والدَّانِق ثمان حبّات وخُمْسَا حبة[5]، فالدرهم خمسون حَبَّة وخُمسَا حَبَّة[6]، أي حبّة شعير معتدلة غير مقشورة ومقطوع طرفيها، وهو بالغرام ما بين 2.33 غراما[7] إلى 2.97 غراما[8]، أمّا درهم الموحدين، وهو درهم السكّة المربع فزنته ثمانية وعشرين حبّة[9] فقط، أي 1.652 غ.

وقد خصّ البكري بالذكر درهم أهل تنس وأهل أرشقول، وذلك ربّما راجع إلى اختلاف درهم المدينتين عن باقي الدراهم في أنحاء البلاد، فيقول عن درهم أرشقول: "ودرهمهم ثماني خَرَاريب والخَرُّوبَة أربع حَبَّات"[10]، أي اثنان وثلاثون حبّة، وإذا اعتبرنا أنّ وزن حبة الشعير يساوي

1- الكردي محمد نجم الدين، المقادير الشرعية، ص: 22.
2- محمد علي جمعة، المكاييل والموازين الشرعية، ص: 19.
3- سورة يوسف الآية 20.
4- روجي إدريس الهادي، الدولة الصنهاجية، ج2، ص: 263.
5- العزفي، إثبات ما ليس منه بدّ، ص: 139.
6- الكردي محمد نجم الدين، المرجع السابق، ص: 41؛ حلاق محمد صبحي، الإيضاحات العصرية، ص: 204.
7- محمد علي جمعة، المكاييل والموازين الشرعية، ص: 19.
8- حلاق محمد صبحي، الإيضاحات العصرية، ص: 168.
9- الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص: 83.
10- البكري، المغرب، ص: 165.

0.059غ[1] مضروبة في اثنان وثلاثون حبّة، أي 0.059×32=1.888غراما، وهو أقلّ بكثير مقارنة بوزن الدرهم الشرعي الذي يزن خمسين حبة وخمسا، كما ذكرنا، والتي تساوي2.97 غراما، ويقول البكري أيضا عن درهم تنس: "ودرهمهم اثنتا عشرة صقلية عددا"[2]، ويرجّح أنّ وزن درهم تنس يساوي وزن درهم أرشقول وذلك لتساوي وزن الرطل عندهما، على حسب ما ذكر جودت عبد الكريم يوسف، أي أنّ درهم تنس يساوي كذلك 1.888 غراما[3]، كما أنّ للدرهم أجزاء ذكرها البكري وهي ثلث درهم وهو القيراط وربع درهم وصِقْل وصِقْلِيَّة[4]، ويبدو أنّ صقلية وحدة وزن كانت معروفة لدى أهل تنس[5]، فإذا صحّ أنّ وزن درهم أهل تنس هو 1.888غ، والذي يساوي اثنتا عشرة صقلية عددا، فإنّ وزن الصقلية هو 1.888÷12=0.157غ.

المِثْقال والدِّينار: المِثْقَالُ وزن معلوم قدره، وهو في الأصل مقدار وزن أيّ شيء كان من قليل أو كثير، والناس يطلقونه في العُرف على الدينار خاصة وليس كذلك، وزنة المثقال المتعامل به درهم واحد وثلاثة أسباع درهم[6]، ويعرّف المثقال أيضا أنّه اسم لما له ثقل سواء كبر أو صغر، وغلب عُرفه على الصغير، وصار في عرف الناس اسما للدِّينار[7]، وقد ذكر المثقال في عدّة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[8]، إذن فالمثقال أصبح اسما للدينار حتى ولو لم يكن كذلك.

أمّا الدِّينار فيعرّف بأنّه المثقال من الذهب، وهو اسم للقطعة من الذهب المضروبة المقدّرة بالمثقال[9]، والدينار اسم أعجمي معرّب أدخلته العرب في كلامها مدخل أسماء الأجناس، وأصله دِنّارٌ[10]، ويقدّر وزن الدِّينار باثنتين وسبيون حبّة من شعير، ولم يختلف الأوزان في الدِّينار كما

1- برشفيك روبار، تاريخ إفريقية، ج2، ص 261.
2- البكري، المغرب، ص 147.
3- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ص: 181.
4- البكري، المصدر السابق، ص: 147.
5- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص: 181.
6- ابن منظور، لسان العرب، ص ص: 493-494.
7- المقريزي، الأوزان والأكيال الشرعية، ص: 62.
8- سورة التكاثر، الآية 7
9- جمعة علي محمد، المكاييل والموازين الشرعية، ص: 19.
10- العزفي، الإثبات، ص: 140.

اختلفت في الدراهم، غير أنّ ابن حزم قال أنّ وزن الدينار اثنتان وثمانون حبّة وثلاثة أعشار حبّة[1]، والدِّينار درهم وثلاثة أسباع درهم وهو سُبع العشرة، والعشرة دراهم سبعة دنانير[2]، ويقدّر وزن الدينار كذلك بأربعة وعشرين قيراطا[3]، ويبلغ وزنه بالغرام 4.25غ[4]، وفي العهد الموحّدي بلغ وزن الدِّينار 4.72غ، وأصبح يسمّى الدَّبلون[5]، حيث كان وزن الدِّينار اليعقوبي[6] من حبّ الشعير أربعا وثمانين حبّة[7].

الدّانِقُ: من الأوزان هو سُدُس الدِّينار والدِّرهم، جمعه دَوَانِق[8]، ويقال بأنّه سدس الدّرهم فقط، وبما أنّ الدرهم خمسون حبة وخمسا حبة، فإنّ الدانق ثمان حبّات وخمسا حبة من الشعير[9]، ووزنه بالغرام 0.4082غ[10].

الخَرّوبَةُ: وتسمّى أيضا الخَرْنُوبَة، جمعها خَرَارِيبُ، وهي من الأوزان التي يذكرها البكري عند حديثه عن درهم أرشقول، فيقول: "ودرهمهم ثماني خراريب والخرّوبة أربع حبّات"[11]، فوزن الخروبة حسب البكري هو أربع حبّات شعير، ووزن حبة الشعير الواحدة 0.059غ، إذن فوزن الخرّوبة بالغرام هو 0.059×4=0.236غ، غير أنّ فالتر هنتس يختلف عن البكري في تقديره لوزن الخروبة، حيث يذكر بأنّها تعادل وزن القيراط أي 24/1 من المثقال والتي تساوي 0.195غ[12]، ويضيف المقدسي بأنّ الخروبة أو الخرنوبة هي نصف ثمن الدِّرهم[1].

1- المقريزي، الأوزان والأكيال، ص ص: 61-62.

2- حلاق محمد صبحي، الإيضاحات العصرية، ص: 203.

3- الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص: 80.

4- محمد علي جمعة، المرجع السابق، ص: 18.

5- برشفيك روبار، تاريخ إفريقية، ج2، ص: 260.

6- **الدينار اليعقوبي**: نسبة إلى الخليفة الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي، المعروف بالمنصور الموحدي، توفي سنة 595هـ/1199م. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص ص: 3-15.

7- الحكيم، المصدر السابق، ص: 83.

8- ابن منظور، لسان العرب، ص: 1433.

9- المقريزي، المصدر السابق، ص: 63.

10- حلاق محمد صبحي، الإيضاحات العصرية، ص: 191.

11- البكري، المغرب، ص: 165.

12- هنتس فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسيلي، عمّان: منشورات الجامعة

القِيرَاطُ: من الوزن معروف، وهو نصف دانق، وأصله قِرَّاطٌ لأنّ جمعه قَرَارِيطٌ، والقيراط جزء من أجزاء الدِّينار وهو عُشره في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزء من أربعة وعشرين[2]، وقد اختلفت المذاهب في مقداره[3]، غير أنّ الكثيرين يقولون بأنّ وزن القيراط ثلاث حبّات من وسط حبّ الشعير[4]، أي 0.059×3=0.177غ، ويشير البكري إلى قيراط أهل تنس فيقول: "ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة"[5]، فإذا كان دينار أهل تنس يساوي 1.888غ كما ذكرنا، فإنّ وزن قيراطهم هو 1.888÷3=0.629غ، وهو مختلف عن الوزن المتداول للقيراط الذي هو 0.177غ، كما نرى من خلال قول البكري تساوي وزن قيراط تنس وقيراط قرطبة، وذلك ربّما راجع إلى العلاقات المتينة التي ذكرناها بين مدينة تنس والأندلس.

الأُوقِيَّةُ: وهي زِنَة سبعة مثاقيل، وزنة أربعين درهما، جمعها أَوَاقِيُّ وأَوَاقٍ، ويقال أنّ الأوقية هي نصف سُدُس الرِّطْل، وهي جزء من اثني عشر جزءا، وتختلف باختلاف اصطلاح البلاد[6]، والأوقية من أشهر الموازين التي كانت سائدة في الجزيرة العربية[7]، وقد ورد ذكرها في الحديث النبوي الشريف، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنّه قال: سألت عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم: كم كان صَدَاق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: كان صَداقُه لأزواجه ثِنْتَيْ عشرة أوقيَّة ونَشًّا. قالت: أتدري ما النَّشُّ؟ قال: قلت: لا. قالت: نِصف أوقية، فتلك خمسمائة درهم[8]. وقد تمّ تحديد المقدار الشرعي للأوقية من حديث عائشة رضي الله عنها، حيث ذكرت أنّ مقدار الاثنتي عشرة أوقية ونصف أوقية هو خمسمائة درهم، أي 500÷12.5=40 درهما، أمّا وزن الأوقية بالغرام، فـ: 40×2.975=119غ.

الأردنية،1970، ص: 29.

1- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 240.

2- ابن منظور، لسان العرب، ص: 3591.

3- محمد علي جمعة، المكاييل والموازين الشرعية، ص: 23.

4- الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص: 82.

5- البكري، المغرب، ص: 147.

6- ابن منظور، المصدر السابق، ص: 4903.

7- محمد علي جمعة، المكاييل والموازين الشرعية، ص: 20.

8- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح: باب الصداق، الحديث رقم: 1424، ص: 1042.

وقد استعملت الأوقية في بلاد المغرب كوحدة للوزن[1]، لكنّ وزنها كان يختلف عن الوزن الشرعي لها، حيث يذكر روبار برشفيك أنّ وزن الأوقية المستعملة في أفريقية كان يبلغ 31.48غ، وأنّها كانت محدّدة منذ القرن 2هـ/8م في المشرق من قِبل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[2]، ويبدو أنّ وزن الأوقية قد اختلف كثيرا باختلاف الأماكن والأزمنة، فالمقدسي يذكر أنّ الأوقية اثنا عشر درهما[3]، أمّا القلقشندي فيذكر أنّها تزن في بلاد المغرب واحدا وعشرين درهما[4]، ويذكر أبو الحسن الحكيم أنّ الأوقية المغربية من الدراهم الموحدية المربعة عشرون درهما، وفيها أيضا ستة دنانير وثلثا دينار من الدنانير المغربية الموحدية، لأنّ الدينار الموحدي يزن ثلاثة دراهم مربعة موحدية[5].

الرِّطْل: معيار يوزن به، وهو مكيال أيضا، وإذا أطلق في الفروع الفقهية فالمراد به رطل بغداد أو الرطل العراقي[6]، وقد اختلف في الرطل هل هو كيل أو وزن؟ والأصل أنّ الرطل وحدة من وحدات الأوزان، فهو ثقل وليس حجم، ولكن تقدير الرطل البغدادي بالكيل أكثر أهمية من تقديره بالوزن، لأنّ الفقهاء ربطوا الأحكام بالرطل على أنّه كيل وعلى أنّه جزء من المدّ والصاع والوسق، وقد أعتبر الرطل معيارا للوزن والكيل أيضا[7].

اختلف وزن الأرطال وذلك بحسب المادة التي توزن بها، فيقال رطل فُلْفُلِي ورطل اللحم وغيرهما[8]، وزنة الرطل عند جمهور العلماء مائة وثمانية وعشرون درهما[9]، وبالأوقية هو اثنتا عشرة أوقية ووزن الأوقية عشرة دراهم وثلثا درهم، فذلك مائة درهم وثمانية وعشرون درهما، وهو الرطل العراقي البغدادي، وهو الرطل الفلفلي[10]، ووزنه بالغرام هو 128×2.975=380.8غ.

1- الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، ص: 108.
2- روبار برشفيك، تاريخ أفريقية، ج2، ص: 260.
3- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 240.
4- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص: 177.
5- الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص ص: 83-84.
6- محمد علي جمعة، المرجع السابق، ص: 29.
7- الكردي محمد نجم الدين، المقادير الشرعية، ص: 165.
8- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ص: 178.
9- أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تق ودر وتح: محمد عمارة، بيروت: دار الشروق، ط1، 1989، ص: 625.
10- المقريزي، الأوزان والأكيال الشرعية، ص: 72.

أمّا عن الأرطال في بلاد المغرب فيذكر المقدسي أنّها كانت بغدادية وذلك في العهد الفاطمي، حيث يقول: "وأمّا الأرطال فكانت بغدادية في الإقليم كلّه، إلّا الذي يوزن به الفلفل فإنّه يشفّ على البغدادي بعشرة دراهم، والآن هو مستعمل في أعمال الفاطمي بالمغرب كلّه"[1]، إذن فالرطل المستعمل في الكيل هو البغدادي، ما عدا الرطل الخاص بالفلفل (البهار)، إذ يفوق الرطل الفلفلي الرطل البغدادي بعشرة دراهم كيل، وهذا الرطل هو الرائج عهدئذ في بلاد المغرب التابعة للخليفة الفاطمي[2].

ويذكر البكري بعض الأرطال المتداولة في بلاد المغرب الأوسط، منها الرطل المستعمل في تنس فيقول: "ورطل اللحم بها سبع وستّون أوقية، ورطل سائر الأشياء اثنتان وعشرون أوقية"[3]، وعن رطل أهل أرشقول يقول: "ورطلهم اثنتان وعشرون أوقية"[4]، ونلاحظ من خلال قول البكري أنّ وزن الرطل اختلف باختلاف السلع الموزونة وكذا اختلف من مدينة إلى أخرى، كما نرى أنّه كان للّحم رطل خاصّ به وهو يختلف عن رطل باقي الأشياء، ويقول بخصوص أهل تيهرت: "ورطل اللحم عندهم خمسة أرطال"[5]، وهو يقصد بها أرطالا قرطبية[6]، حيث أنّ رطل اللحم بالأندلس تسعة أرطال ونصف بالفلفليّ، والفلفليّ خمس عشرة أوقيّة بالبغداديّ[7]، بينما يذكر ابن غالب أنّ رطل اللحم بالأندلس ستة وثلاثون أوقيّة[8]، وذلك لتغيّر الزمان والأحوال، وعلى العموم هو أمر مبالغ فيه وربّما هذه المبالغة هي التي لفتت نظر البكري فذكره في كتابه[9].

وممّا سبق يمكننا أن نستنتج أنّ الأرطال اختلفت وتنوّعت باختلاف البلاد وتنوّع المواد الموزونة، فهناك الرطل ذو الستّة عشرة أوقية البالغ وزنه 504غ، وهو ما يعرف باسم "الرطل العطّاري"، وهو يستعمل لوزن الذهب والمواد الثمينة والمعادن المختلفة، وهناك الرطل ذو الثمانية

1- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 240.
2- روجي إدريس الهادي، الدولة الصنهاجية، ج2، ص: 264.
3- البكري، المغرب، ص: 147.
4- البكري، المصدر نفسه، ص: 165.
5- البكري، المغرب، ص: 154.
6- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ص: 180.
7- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 263.
8- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 296.
9- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص: 180.

عشرة أوقية البالغ وزنه 567غ، وقد كان مستعملا لوزن المواد الغذائية ويسمّى "الرطل السوقي"[1]، بالإضافة إلى رطل اللحم الذي ذكرناه.

القِنْطَارُ: لغة: هو جملة كثيرة من المال، وهو بالسُّرْيانِيَّة مِلْءُ مَسْكُ ثَوْرٍ ذهبًا أو فضّة[2]، وهو كذلك اسم لمعيار يوزن به، وقد اختلف أهل العلم في تحديده[3]، فقيل أنّ القنطار ألف ومائة دينار، وقيل مائة وعشرون رطلا، وقال أبو عبيد أنّه: ألف ومائتا أوقيّة، وقال ابن عبّاس: هو ثمانون ألف درهم، وقال السُّدِّيُّ: مائة رطل من ذهب أو فضة[4]، والمشهور أنّه ألف ومائتا أوقيّة[5]، وقد ذكر القنطار في القرآن الكريم في عدد من المواضع، منها قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا**﴾[6].

وكان القنطار السائد في بلاد المغرب يساوي مائة رطلا ذات ست عشرة أوقية، أي 50.4كغ، ويختلف وزن القنطار باختلاف المادة الموزونة، فبالنسبة إلى بعض المواد مثل الفواكه الجافة أو الأقمشة، يقتضي العرف المعمول به في التجارة أن يسلّم البائع 102 أو 105 أو 110 رطلا بالنسبة للقنطار الواحد[7]، وكان لقنطار الزيت وبعض المواد الأخرى بتيهرت وزن خاصّ به، حيث يقول البكري: "وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث"[8]، وهو يعني بوزن قرطبة، فالبكري كثيرا ما نراه يقارن الأوزان التي يذكرها بالأوزان المعروفة في بلده الأندلس، فقنطار الزيت بقرطبة حسب قول ابن غالب يعدل قنطاران ونصف قنطار[9]، بينما الراجح أنّه يساوي مائة

1- برشفيك روبار، تاريخ إفريقية، ج2، ص: 261.
2- ابن منظور، لسان العرب، ص: 3753.
3- محمد علي جمعة، المكاييل والموازين الشرعية، ص ص: 24-25.
4- ابن منظور، المصدر السابق، ص: 3753.
5- حلاق محمد صبحي، الإيضاحات العصرية، ص: 213.
6- سورة آل عمران، الآية: 75.
7- برشفيك روبار، تاريخ إفريقية، ج2، ص: 261.
8- البكري، المغرب، ص: 154.
9- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 299.

وثمانية وعشرين رطلا[1]، فإذا اعتبرنا أنّ الرطل 380.8غ فإنّ القنطار القرطبي يساوي 48.74 كلغ، ومنه فإنّ قنطار الزيت في تيهرت يساوي حوالي 81.24كغ، ويضيف البكري أنّ القنطار من الفلفل وغيره من المواد هو قنطار عدل[2]، فإذا اعتبرنا قنطار عدل هو قنطار قرطبي[3]، فهذا يعني أنّ قنطار الفلفل في تيهرت يساوي 48.74كلغ.

1- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ص: 183.

2- البكري، المغرب، ص: 154.

3- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص: 183.

المبحث الثالث: السلع والبضائع المتبادلة بين المغرب الأوسط والأندلس

تمهيد:

شهدت بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس تقاربا اقتصاديا كبيرا منذ مطلع القرن 3هـ، والذي بلغ أوجّه خلال القرنين 4هـ/10م و5هـ/11م، حيث لم تثن العوامل السياسية تجّار كلا الإقليمين من ممارسة نشاطاتهم التجارية، فساهم التجار –خاصة الأندلسيين منهم– في خلق فضاء اقتصادي تتمّ فيه مختلف عمليات التبادل التجاري من تصدير واستيراد، وقد استغلّ التجار الأندلسيون مهاراتهم التجارية في توسيع علاقاتهم التجارية مع بلاد المغرب الأوسط خاصة، وقيامهم بتأسيس مدن على سواحلها، كانت بمثابة مراكز تجارية مثّلت نقطة انطلاقهم منها إلى باقي مناطق المغرب الأوسط، واستطاعوا من خلالها تسويق منتوجاتهم، وهذا ما نستشفّه من قول ابن حوقل حول مدينة تنس: "وهي أكبر المدن التي يتعدّى إليها الأندلسيون بمراكبهم، ويقصدونها بمتاجرهم، وينهضون منها إلى ما سواها"[1]، ويمكننا القول أنّ التجار الأندلسيين قد تمكّنوا من احتكار التجارة مع مدن المغرب الأوسط ابتداء من ق3هـ إلى غاية 5هـ.

ساعدت عدّة عوامل –والتي ذكرناها سالفا– في تسهيل المعاملات التجارية بين الإقليمين، فكانت البضائع تجلب عبر الموانئ ومن هناك تسوّق إلى باقي مدن المغرب الأوسط، وذلك من خلال الأسواق، حيث تنافس التجار في عرض مختلف البضائع والسلع، فيذكر الإدريسي أنّ بمدينة أشير يقام "سوق له يوم معروف يجلب إليه كل لطيفة، ويباع به كل طريفة"[2]، وقد ساهمت الطرق البحرية في ربط معظم موانئ الأندلس بموانئ المغرب الأوسط، وتسهيل عمليات النقل البحري للسلع والبضائع والأشخاص، مكوّنة شبكة تجارية ليس بين المغرب الأوسط والأندلس فحسب، بل شملت جميع الحوض الغربي للبحر المتوسط.

كما نرى أنّ بعض المدن الكبرى في المغرب الأوسط، والتي لم تكن على ساحل البحر، قد قامت باتخاذ بعض المراسي فرضة لها لتعزيز اتصالها بعالم البحر المتوسط، وكذلك للقيام بعمليات التبادل التجاري مباشرة دون الولوج إلى المناطق الداخلية من الإقليم، وربّما كان غرضها من ذلك أيضا الظفر بأكبر كميّة من السلع المستوردة، ومن أمثال هذه المدن مدينة تيهرت، حيث

1– ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 78.

2– الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 254.

يذكر البكري أنّ مدينة الغُزَّة[1] هي ساحل تيهرت[2]، كما يذكر اليعقوبي أنّ مراكب تيهرت كانت ترسو بمرسى فروخ، ولعلّ ما لفت انتباه اليعقوبي هو كثرة المراكب التيهرتية التي باتت تستحوذ على مرسى فروخ، ولا نستبعد أنّ تيهرت قد اتخذت هذا المرسى فرضة لها[3]، ونفس الأمر بالنسبة لمدينة تلمسان، فقد ذكرنا فيما سبق أنّها اتّخذت كُلّا من مدينتي أرشقول وهنين الساحليتين فرضة لها.

1-صادرات المغرب الأوسط إلى الأندلس:

تمثّلت منتجات بلاد المغرب الأوسط أساسا في الإنتاج النباتي والإنتاج الحيواني، فقد ساهم التنوّع المناخي للمغرب الأوسط وخصوبة أراضيه ومراعيه الشاسعة إلى وفرة في الإنتاج النباتي والحيواني، حتى زاد عن حاجة سكانه، فتمّ توجيهها إلى التصدير، وغالبا ما كانت تصدّر هذه المنتجات إلى بلاد الأندلس، بحكم العلاقات التجارية المتبادلة بين الإقليمين، ومن أشهر المنتوجات التي كانت تصدّرها بلاد المغرب الأوسط إلى بلاد الأندلس:

أ-المواد الغذائية:

لقد دفعت الاضطرابات السياسية التي شهدتها الأندلس طيلة الفترة الممتدّة من 3هـ/9م إلى 6هـ/12م إلى استيراد المواد الغذائية وعلى رأسها القمح من مدن العدوة المغربية، فكانت مدينة وهران هي المصدّر الرئيسي، حيث كانت الغلال تحمل منها إلى بلاد الأندلس[4]، والأمر نفسه بالنسبة لمدينة تنس فكانت تحمل منها الحنطة وسائر الحبوب في المراكب إلى كل الآفاق[5]، ويذكر الإدريسي أيضا أنّ الحنطة تجلب إلى مدينة أرزاو فيسير بها التجار ويحملونها إلى كثير من البلاد بما فيها بلاد الأندلس[6].

1- **الغُزَّة:** وهي مدينة صغيرة القدر فيها سوق مشهورة لها يوم معلوم، وبها حمام وديار حسنة ولها مزارع. ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 251.

2- البكري، المغرب، ص: 155.

3- اليعقوبي، البلدان، ص: 155.

4- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 79.

5- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 252.

6- الإدريسي، المصدر نفسه، ص: 271.

وقد زوّدت مدن المغرب الأوسط وهران وتنس وغيرهما من المدن، بلاد الأندلس بمختلف المواد الغذائية، خاصة في أيام الأزمات والحروب والفتن الداخلية، حيث يذكر الحميري أنّ الميرة كانت تجلب إلى مدينة بجّانة من العدوة[1]، وهذا ما يؤكّده الإدريسي بقوله أنّ من مدينة وهران أكثر ميرة ساحل الأندلس[2]، كما كان الطعام يحمل إلى الأندلس من تنس وذلك لكثرة الزرع عندهم[3]، ويذكر ابن الخطيب أنّ بعض المواد الغذائية كانت تجلب إلى مدينة المنكّب من مدن العدوة المغربية، فيقول: "والودك إليها مجلوب، والقمح بين أهلها مقلوب"[4].

كما توجد إشارة في فتاوى ابن عبدون إلى وصول مراكب محمّلة بالحنطة في الموانئ، والتي يبدو أنّها جلبت من أرض العدوة[5]، ويذكر ابن حيان كذلك أنّه كان للثائر ابن حفصون وأصحابه مراكب بحرية "يسفّرونها إلى أرض العدوة في المَيْر والتجارات، ويقضون بها الحاجات فيتّسعون بها أعظم التوسعة"[6]، وكانت أغلب هذه المير والمواد الغذائية تصله من قبل الفاطميين الذين كانوا يدعمونه ضد الخليفة عبد الرحمن الناصر[7].

واستورد الأندلسيون أيضا التمور من بلاد المغرب الأوسط، فنظرا للمناخ السائد في شبه الجزيرة الأندلسية، والذي لا يسمح بغراسة النخيل المنتج للتمور نظرا لبرودة الجو أو اعتداله، رغم بعض المحاولات لإنتاج النخيل في بعض المناطق من جنوب الأندلس، حيث يذكر القزويني أنّ النّخل لا ينجح بجميع بلاد الأندلس إلّا بمدينة ألْش[8]، إلّا أنّها لم تنجح في توفير الكمية المناسبة من التمور، لذلك فقد لجأ الأندلسيون إلى استيراده من مدن العدوة المغربية، خاصة تمور بسكرة

1- الحميري، الروض المعطار، ص: 79.

2- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 252.

3- مجهول الاستبصار، ص 133.

4- لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح ودر: محمد كمال شبانة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية،2002، ص: 96.

5- ابن عبدون، رسالة ابن عبدون في الحسبة، ص: 47.

6- ابن حيان، المقتبس، ج5، ص: 87.

7- فيلالي عبد العزيز، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ط2، 1999، ص: 118.

8- القزويني، آثار البلاد، ص: 502.

المشهورة بجودتها ولذّه طعمها، وقد ذكر ابن خلدون أنّ التمر كان من ضمن الهدية التي أرسلها زيري بن عطية[1] إلى المنصور بن أبي عامر، حيث أرسل إليه من التمر ألف حمل[2].

ب-الماشية:

زوّدت بلاد المغرب الأوسط بلاد الأندلس في الكثير من الأحيان بالماشية، ويبدو أنّ انتاج الأندلسيين للماشية، خاصة الغنم، لم يكن يلبي كامل احتياجاتهم، لذا فقد اضطروا إلى استيرادها من مدن العدوة، حيث يذكر ابن غالب نقلا عن ابن النظّام أنّه كانت تجلب إلى مدينة قرطبة في أيام معلومة ما بين سبعين ألف رأس إلى مائة ألف رأس من الغنم[3]، ويبدو أنّ معظم هذه الأغنام كانت تجلب من تيهرت خاصة، وذلك ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار في قوله: "ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها"[4].

صدّرت مدن المغرب الأوسط البقر أيضا إلى بلاد الأندلس، حيث يذكر ابن حوقل أنّ أكثر تجارات أهل مدينة بونة في الغنم والصوف والماشية، وأنّ أكثر سوائهم البقر[5]، لذا لا نستبعد أن تكون مدينة بونة قد صدّرت الغنم والبقر إلى بلاد الأندلس، وما يثبت ذلك أكثر حديث ابن غالب الذي ذكرناه حول الماشية التي كانت تجلب إلى مدينة قرطبة، حيث يقول أنّه كان يدخل قرطبة من الماشية "ما بين سبعين ألف رأس إلى مائة ألف رأس حاشا البقر"[6]، ونرى أنّ قرطبة وأحوازها أو حتى الأندلس بأكملها لا تستطيع توفير هذا العدد الضخم من الماشية لكلّ مدينة من مدنها، لذا فقد اعتمدت على استيراد ما تحتاجه من الماشية من مدن العدوة المغربية.

كما استوردت الأندلس الخيول من بلاد المغرب الأوسط، فبالنظر إلى الحالة السياسية التي سادت الأندلس طوال الفترة الممتدة ما بين القرن 3هـ إلى 6هـ، والتي تميّزت بكثرة الفتن والثورات

1- **زيري بن عطية:** هو زيري بن عطية بن عبد الرحمن بن خَزَر أمير آل خزر ووارث ملكهم البدوي، وهو الذي مهّد الدولة بفاس والمغرب الأقصى وأورثها بنيه إلى غاية عهد المرابطين، كان تابعا لبني أمية في الأندلس. ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، ص: 39.

2- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص: 43.

3- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص: 296.

4- مجهول، الاستبصار، ص: 179.

5- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 77.

6- ابن غالب، المصدر السابق، ص: 296.

الداخلية، وكذا الحروب المستمرة ضد النصارى في الشمال، كل ذلك دفع حكومة الأندلس إلى استيراد الخيول من أرض العدوة لحاجتهم إليها في أوقات الحرب خاصة، وقد تكفّلت تيهرت بتصدير الخيول إلى الأندلس وذلك لتوطيد علاقات الصداقة بين حكامها وحكام الأندلس[1]، كما كانت الخيول ضمن الهدايا الثمينة التي أرسلها زيري بن عطية إلى المنصور بن أبي عامر[2]، وجلب المنصور بن أبي عامر في إحدى المرات من أرض العدوة ألف حصان، بالإضافة إلى البغال[3].

ج-المرجان:

اشتهرت مدينة مرسى الخرز باحتوائها على أجود أنواع المرجان في العالم، ولذا فقد كانت مقصدا للكثير من التجار، خاصة الأندلسيين منهم، حيث يذكر الهادي روجي إدريس أنّ التجار الأندلسيين كان تستهويهم تجارة المواد الشرقية المربحة إلى أبعد حدّ في المناطق الشرقية من المغرب الأوسط، وكان على رأسها المرجان، فعملوا على استخراجه والإتّجار به[4]، وقد عمل هؤلاء التجار على استئجار عمال لاستخراج المرجان، فيذكر الإدريسي أنّه خصّص لاستخراجه في كل الأوقات الخمسون قاربا أو أكثر، فيستخرجون منه الشيء الكثير ممّا يباع بالأموال الطائلة[5]، وقد عمل التجار الأندلسيين على استيراد هذه المادة الثمينة ثم تصديرها إلى سائر البلاد خاصة إلى الهند والصين[6].

د-الذهب:

شكّل الذهب السلعة الرئيسية في تجارة تيهرت مع بلاد التبر الواقعة بين نهر السنغال وفَالْمْ وبَافِنْجْ، حيث ظلّت بلاد السودان الغربي المموّل الرئيسي لبلاد المغرب والعالم المتوسطي لقرون عدّة[7]، وقد عمدت تيهرت على ربط علاقاتها التجارية مع ممالك بلاد السودان منذ إمامة عبد الرحمن بن رستم، وهذا ما نلمسه من قول ابن الصغير: "واستعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى

1- يوسف جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 164.
2- ابن خلدون، العبر، ج7، ص: 43.
3- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ص: 217.
4- روجي إدريس الهادي، الدولة الصنهاجية، ج2، ص: 294.
5- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص: 290-291.
6- مجهول، الاستبصار، ص: 126.
7- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص: 224.

جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة"[1]، وارتبطت تيهرت ببلاد السودان الغربي بطريقين رئيسيين، الأول طريق غربي يمرّ عبر سجلماسة، والثاني شرقي بالنسبة للأول يمرّ عبر ورجلان، وقد جذب ذهب غانة التجار التيهرتيين، فكان عليهم أن يقطعوا الطريق بين أودغست[2] وغانة[3]، استمرارا لطريق سجلماسة – أودغست للحصول على هذا المعدن الثمين[4].

وكان ذهب بلاد السودان يصل إلى تيهرت وغيرها من المدن المغربية عن طريق تجار القوافل، لكنّه لا يبقى فيها، وإنّما يمرّ بهذه المدن فقط، ليتمّ توجيهه وتوزيعه عبر الموانئ التابعة لهذه المدن إلى مختلف مراكز التجارة والصناعة والمراكز المحرّكة للاقتصاد في دول المتوسط وعلى رأسها الأندلس، وهكذا يتّجه ذهب بلاد السودان إلى مناطق الانتاج الكبيرة التي تعمل لتجارة التصدير، أين يوزّع منها إلى العديد من بلدان العالم، وهذا ما اختصره موريس لومبار في قوله: "وأمّا بلاد المغرب التي يمرّ بها ذهب بلاد السودان، فدورها ينحصر في إعادة توزيعه إلى مختلف المراكز الاقتصادية"[5].

ويعتبر الذهب من أكثر السلع طلبا في حوض البحر المتوسط خلال العصر الوسيط، وبحكم العلاقات التجارية المتبادلة بين المغرب الأوسط والأندلس فإنّ تيهرت كانت المزوّد الأول للأندلس بمادة الذهب[6]، حيث وصل ذهب بلاد السودان إلى عالم البحر الأبيض المتوسط عن طريق التجار المغاربة، الذين ساهموا وبشكل كبير في تدفّق الذهب إلى بلاد المغرب ثم إلى بلاد الأندلس[7]، وقد اعتمدت الأندلس على تيهرت كثيرا في هذا المجال، باعتبار تيهرت حلقة وصل بين بلاد الأندلس وبلاد السودان[8].

1- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص: 32.

2- **أودغست**: مدينة جليلة بين جبلين في قلب البر جنوبي مدينة سجلماسة، بينهما نيّف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز على مياه معروفة وفي بعضها بيوت البربر. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، م1، ص: 278.

3- **غانة**: من بلاد السودان، بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين، وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا. ينظر: الحميري، الروض المعطار،ص: 425.

4- يوسف جودت عبد الكريم، الدولة الرستمية وعلاقاتها الخارجية، ص ص: 248، 262.

5- لومبار موريس، الإسلام في مجده الأول، ص: 175.

6- Aurélien Montel, Perspectives andalouses sur le Sahara (2/7/11 siècle), p 110-111.

7- كونستبل أوليفيا، التجارة والتجار، ص: 253.

8- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص ص: 162، 164.

وقد عرفت الحركة التجارية بالأندلس انتعاشا كبيرا بسبب تدفّق ذهب بلاد السودان في الأسواق الأندلسية، وأصبحت قرطبة ذات ثراء عظيم بفضل ذهب السودان[1]، وتمتعت بلاد الأندلس كلّها بالرخاء الاقتصادي، وزادت ثروتها في ظل تدفّق ذهب السودان عليها، وغدت بذلك تجارة الأندلس مع شواطئ المغرب الأوسط على جانب كبير من الأهمية[2]، وخلال القرن 5هـ/11م عندما تمّت السيطرة على طرق تجارة الذهب بصورة قانونية من قبل المرابطين والموحدين، كان لموانئ الأندلس دور مهم في توزيع الذهب الخام والنقود الذهبية إلى المناطق الأخرى من البحر المتوسط[3].

هـ-العبيد:

ارتبطت تجارة العبيد بتجارة الذهب باعتبار أنّ مصدرهما واحد، وهو بلاد السودان، إذ شكّلتا بضاعتين رئيسيتين وأساسيتين في قائمة السلع التي يجلبها التجار المغاربة من بلاد السودان، وكان العبيد مثل الذهب من السلع التي يأتي التجار الأندلسيون لاقتنائها من بلاد المغرب[4]، وكان هؤلاء العبيد يباعون في أسواق النخاسة في بلاد السودان، ويبدو أنّ ثمنهم كان رخيصا بسبب كثرتهم، فلم يكن التجار يدفعون ثمنهم نقدا، وإنّما مقايضة بما حملوا إلى بلاد السودان من سلع[5].

وزاد إقبال تجار المغرب الأوسط على اقتناء العبيد السود بكثرة، ولكن ليس بهدف إغراق أسواق النخاسة بهم من أجل الاستعمال المحلّي، بل كانوا يصدّرونهم إلى مختلف الجهات، خاصة إلى الأندلس[6]، بسبب إقبال أمراء بني أميّة على اقتنائهم، وذلك لاتخاذهم ضمن الحرس الملكي[7]، كما عمل الإمام أفلح بن عبد الوهاب على توفير عدد لا بأس به من العبيد ليتّم إرسالهم إلى قرطبة، نظرا لحاجة الأمويين إليهم خاصة عبيد كوكو الذين تميّزوا بقوّتهم وشدّتهم[8]، فقد ذكر أبو

1- لومبار موريس، الإسلام في مجده الأول، ص: 126.
2- لويس أرشيبالد، القوى البحرية، ص: 332.
3- كونستبل أوليفيا، التجارة والتجار، ص: 253.
4- بورملة خديجة، التجارة الخارجية، ص: 141.
5- يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاجتماعية، ص: 227.
6- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع نفسه، ص: 227.
7- يوسف جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية، ص: 166.
8- جودت عبد الكريم، الأوضاع، ص: 227.

حامد الغرناطي أنّ "سائر السودان ينتفع بهم في الخدمة والعمل إلّا قوقو (كوكو) فلا خير فيهم إلّا في الحرب"[1].

و-الصوف والجلود:

صدّرت بلاد المغرب الأوسط إلى بلاد الأندلس الصوف والجلود، ونظرا لاحتوائها على ثروة حيوانية معتبرة، فقد مثّلت الجلود والصوف إحدى صادراتها ليس للأندلس فحسب بل حتى إلى بلاد السودان وأوروبا وبلاد المشرق، وقد أدّى تطوّر الصناعة النسيجية في الأندلس إلى كثرة الطلب على صوف وجلود المغرب الأوسط، فكانت السفن الأندلسية الراسية بموانئ المغرب الأوسط تبحر إلى الأندلس محمّلة بكميات كبيرة من الصوف والجلود، أين تصل إلى مصانع النسيج الأندلسية كمادة خام، ولا نستبعد أنّ تيهرت صدّرت عبر موانئها الصوف إلى الأندلس باعتبارها المصدّر الأساسي للماشية، كما يذكر الزهري أنّ تلمسان كانت أيضا تصدّر الصوف إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس[2].

2-واردات المغرب الأوسط من الأندلس:

كانت السفن التي تحمل السلع المصدّرة من المغرب الأوسط إلى الأندلس هي نفسها التي تحمل السلع المستوردة من الأندلس إلى المغرب الأوسط، وقد غلبت على الصادرات الأندلسية المواد المصنّعة وبعض المنتوجات الفلاحية الأندلسية، أهمّها:

أ-الحرير:

يعتبر الحرير من أشهر السلع التي كانت الأندلس تصدّرها ليس إلى المغرب الأوسط فحسب بل إلى مختلف بلدان العالم، فقد اشتهرت منطقة جنوب الأندلس بإنتاج كميات كبيرة من الحرير، ولعلّ نجاح الأندلسيين في صناعة الحرير راجع إلى توفيرهم للظروف الملائمة لإنتاج الحرير، فقد خصّصوا مزارعا كبيرة لغراسة أشجار التوت من أجل غذاء اليرقات، فقد كان في جيّان

1- أبو حامد الغرناطي محمد بن عبد الرحيم، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: علي عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2003، ص: 18.

2- الزهري، الجعرافية، ص ص: 113-114.

لوحدها أكثر من ثلاثة آلاف مزرعة لتربية دود الحرير[1]، كما طوّروا مهاراتهم التقنية في معامل الحرير، وذلك بجلبهم للآلات المناسبة وتوفيرهم لعدد كاف من الأيادي العاملة للحفاظ على مستويات مقبولة من الإنتاج[2]، حيث اشترك في جني وانتاج الحرير الرجال والنساء[3]، وحتى الأطفال كانوا مرغوبين بسبب صغر أناملهم لالتقاط أو فكّ الخيط الدقيق من شرنقة الحرير[4].

عرفت كورة إلبيرة بجودة حريرها وكثرته والذي يفضّل ويقدّم على غيره[5]، ويذكر الحميري أنّ "حرير فحص إلبيرة هو الذي ينتشر في البلاد ويعمّ الآفاق"[6]، ويشير ابن غالب أنّه كان يعمل بمدينة المرية في أواخر القرن 6هـ/12م من أنواع المنسوجات الحريرية "الوَشْيُ والسَّقْلاطوني والبغدادي وسائر أجناس الديباج وجميع ما يعمل من الحرير ما لم يُعمل مثله بصنعاء وعدن، ومنها كان يُسْفَن إلى جميع الآفاق، وكان يُعمل فيها الحلل الرفيعة القدر الكثيرة الأثمان"[7].

ويبدو أنّ بلاد المغرب الأوسط قد حظيت بنصيب أوفر من الحرير الأندلسي بحكم موقعها القريب من الأندلس، وكذا العلاقات الاقتصادية التي جمعت الإقليمين، فلا نستبعد أنّ التجار الأندلسيين كانوا يبحرون بسفنهم المحمّلة بشتّى أنواع الحرير –الخام والمنسوج– لترسو في موانئ المغرب الأوسط، فيسوّقونه عبر مراكزهم التجارية إلى باقي المناطق بالمغرب الأوسط، وربّما إلى بلاد السودان أيضا، ونظرا لارتفاع ثمن الحرير خاصة الموشّى بخيوط الذهب، فقد انحصر اقتناؤه على الحكّام والأغنياء.

ب-المعادن:

استوردت بلاد المغرب الأوسط بعض المعادن التي لم تكن موجودة في أرضها من بلاد الأندلس، حيث كانت تستورد بعضها على شكل مادة خام وبعضها الآخر على شكل مواد

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص: 203.
2- كونستبل أوليفيا، التجارة والتجار، ص: 262.
3- الزهري، الجعرافية، ص: 102.
4- كونستبل أوليفيا، المرجع السابق، ص: 264.
5- الأصطخري، المسالك والممالك، ص: 44.
6- الحميري، الروض المعطار، ص: 46.
7- ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ص: 14-15.

مصنّعة كالآلات والأدوات والأواني، فكانت تصل شحنات كبيرة منها إلى موانئ المغرب الأوسط، فيحملها التجار إلى ما نأى من المناطق.

وتذكر بعض المصادر أنّ الناس في المغرب الأوسط كانوا يقبلون على اقتناء الأدوات والأواني النحاسية الأندلسية خاصة فيما يخص جهاز العروس مثل المصابيح والطُّسُوت النحاسية وغيرها، وذلك نظرا لدقّة صنعها وجمال منظرها، وقد أظهرت هذه المصادر أنواعا كثيرة من النحاس المُصدّر من الأندلس إلى المغرب الأوسط بما في ذلك النحاس الملمع الصقيل والمطروق والمسبوك والمسحوق والمرن، حيث ذكرت إبحار سفينة محمّلة بشحنة من شتّى أنواع النحاس، أرسلت من المرية إلى تلمسان سنة 534هـ/1140م[1].

ويعتبر الزئبق من أشهر المعادن التي كانت تصدّرها الأندلس إلى مختلف بقاع العالم، وذلك لأنّه يتواجد في أرضها بكثرة، وقد ذكرت العديد من المصادر عن أماكن تواجد هذا المعدن في الأندلس كما تحدّثت عن طريقة استخراجه –كما ذكرنا سابقا– وتصديره إلى مختلف الأقطار، فيذكر البكري أنّ معدن الزئبق يوجد في جبل البرانس ومن هناك يتجهّز به إلى الآفاق[2]، أمّا الإدريسي فيذكر أنّه يتجهّز من قرطبة بمعدن الزئبق إلى جميع أقطار الأرض[3]، وكذا الزهري الذي يذكر أنّ الزئبق يستخرج من موضع يعرف بِبَطْروش، ومنه يجلب لجميع الأقطار[4]، ولهذا تعتبر الأندلس من أشهر المناطق إنتاجا للزئبق في العصر الوسيط، ومنها يصدّر إلى سائر بلاد الإسلام والكفر[5].

كانت أرض العدوة المغربية من أولى المناطق التي يصلها الزئبق الأندلسي، وتكمن أهمية الزئبق في استخداماته الكثيرة أهمّها تنقية الذّهب، واستخراج مشتقّاته خاصة كبريت الزئبق الذي ينتج عنه اللون القرمزي والذي يستعمل في الأصبغة والحبر والتلوين[6]، ولذلك لاقى الزئبق إقبالا

1- كونستبل أوليفيا، التجارة والتجار، ص ص: 279-280.
2- البكري، المسالك والممالك، ص: 898.
3- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ص: 213-214.
4- الزهري، الجعرافية، ص: 87.
5- المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 144.
6- كونستبل أوليفيا، التجارة والتجار، ص: 280.

كبيرا من طرف تجّار المغرب الأوسط الذين كانوا يقومون بدورهم في بيعه للصّاغة والصبّاغين وغيرهم.

ج-الوَرَق:

عرفت الأندلس بصناعة الكَاغِد (الورق) عالي الجودة، والذي كانت تصدّره إلى مختلف البقاع، وقد اشتهرت مدينة شاطبة بصناعة أفضل أنواع الكاغد والذي عرف فيما بعد بالشاطبي، ويتميّز عن باقي الورق بأنّه صقيل وناعم[1]، فيذكر الإدريسي أنّه يُعمل بشاطبة: "الكاغذ ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعمّ المشارق والمغارب"[2]، ويضيف ياقوت الحموي أنّه: "يُعمل الكاغد الجيّد فيها ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس"[3].

ولقد حرص الأندلسيون على صناعة أجود أنواع الورق والذي تميّزوا به عن غيرهم، لذا فقد كانت مراقبة الصنّاع تناط للمحتسبين لتفادي الغش في الصناعة، وذلك ما أشار إليه ابن عبدون في رسالته: "يجب أن يزاد في قالب الكاغيد وفي دلكه قليلا"[4]، وذلك حرصا على نظافة الورق وصقله بطريقة صحيحة، لأنّ الورق يعتبر بضاعة أندلسية مهمّة، بل ويعتبر من أكثر السلع الأندلسية الموجّهة للتّصدير.

لا توجد لدينا نصوص تذكر أنّ الأندلسيين صدّروا الكاغد للمغرب الأوسط، لكن هذا لا يعني أنّ تجار المغرب الأوسط لم يستوردوا الكاغد الأندلسي الذي بلغت شهرته الآفاق، خاصة إذا علمنا أنّه لم تكن بالمغرب الأوسط مصانع لصناعة الورق تذكر، ونظرا لحاجة الناس للكاغد فقد تمّت تغطية نقصه باستيراده من أقرب الأماكن لأرض المغرب الأوسط وهو أرض العدوة الأندلسية، وقد تعدّدت استخدامات الورق، فاستخدم لتدوين الكتب والسجلّات الحكومية، وفي كتابة الرسائل والوثائق العدلية وعقود الزواج ولوائح الملابس وغيرها[5].

1- كونستبل أوليفيا، التجارة والتجار، ص: 292.
2- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 192.
3- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص: 309.
4- ابن عبدون، رسالة ابن عبدون، ص: 48.
5- كونستبل أوليفيا، المرجع السابق، ص: 292.

د-الرّقِيق:

يمثّل الرقيق سلعة رئيسية كانت توزّع في أسواق الأندلس ومنها تصدّر إلى مختلف المناطق من العالم الإسلامي، ونقصد هنا الرقيق الأبيض أو ما عرف بالصقالبة في الأندلس وفي جميع العالم الإسلامي، والصقالبة هم من سكان شرق أوروبا، المجلوبين من أرض الصقالبة الواقعة ما بين القسطنطينية وبلاد الروس وبلاد البلغار[1]، وأصبح هذا المصطلح يطلق فيما بعد على جميع العبيد ذوو البشرة البيضاء والذين هم من أصل أوروبي.

اختلفت وتعدّدت روافد الاسترقاق، وتعتبر الحروب الرافد الأساسي للاسترقاق في الأندلس، خاصة في الفترة ما بين القرن 4هـ/10م إلى 6هـ/12م[2]، فكان للحملات التي شنتها الحكّام الأندلسيون على الممالك النصرانية في الشمال أثر كبير في تزايد أعداد الرقيق في الأندلس، كما تعتبر التجارة الرافد الثاني للاسترقاق في الأندلس، فمنذ ما قبل القرن 5هـ/11م كان التجار اليهود والمسلمون ينقلون الرقيق إلى الأندلس من شرق أوروبا ومن الممالك النصرانية في شمال الأندلس، ومن ثم يعيدون تصديره إلى المناطق الإسلامية الأخرى[3].

وكان الذكور من الرقيق يُخْصَوْنَ[4] قبل بيعهم، حيث يذكر المقدسي أنّ هؤلاء الغلمان الصقالبة يحملون إلى الأندلس إلى مدينة قرب مدينة بجّانة أهلها يهود فيُخصونهم، ثم يحملون ليباعوا في مصر وبلاد الروم[5]، ويزيد ابن حوقل على كلام المقدسي أنّ جميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخِصْيَان فمن جَلب الأندلس، لأنّهم عند قربهم منها يُخْصَون ويفعل ذلك بهم التجار اليهود، ويذكر ابن حوقل أيضا أنّ التجار الأندلسيين كانوا يخرجون بسلعهم والتي أشهرها الرقيق من الجواري والغلمان من سبي إفرنجة وجلّيقية والخدم الصقالبة لبيعها إلى مختلف الأقطار[6].

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص: 19-21.

2- بنمليح عبد الإله، الرق في بلاد المغرب والأندلس، بيروت: الانتشار العربي، ط1، 2004، ص: 127.

3- كونستبل أوليفيا، المرجع السابق، ص ص: 304-305.

4- لمعلومات أكثر حول ظاهرة الخِصْي في العصر الوسيط. ينظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص: 242.

5- المقدسي، المصدر نفسه، ص: 242.

6- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص: 105-106.

انتشرت تجارة الرقيق بين التجار اليهود الأندلسيين كما أشرنا، ونستطيع أن نقول أنهم احتكروا هذه المهنة، حيث وجدت إشارات عديدة في المصادر تتحدث على تولي التجار اليهود هذه المهنة، فمنها ما ذكره ابن خرداذبة أنّ التجار اليهود والذين كانوا يتكلّمون عدّة لغات منها العربية والرومية والصقلبية والأندلسية، كانوا يسافرون إلى المغرب بحرا أين يبيعون الخدم والجواري والغلمان[1]، وكان العبيد الصقالبة مطلوبين بكثرة في أسواق النخاسة بالأندلس والمغرب، ولعلّ ذلك راجع إلى اخلاصهم في واجباتهم المنزلية والحربية[2]، وكذلك الجمال الذي تميّز به الفتيان والجواري الصقالبة، حيث يذكر الأصطخري أنّ أسعار هؤلاء العبيد البيض المجلوبين إلى المغرب كانت باهضة في قوله: "...والخدم البيض من الأندلس والجواري المثمّنات، تأخذ الجارية والخادم عن غير صناعة على وجوههما ألف دينار وأكثر"[3]، ويبدو أنّ أكثر من حظي بهؤلاء الجواري والغلمان هم من أصحاب المال والمناصب.

هـ-واردات أخرى:

كما توجد بضائع أخرى كانت الأندلس تصدّرها إلى مختلف البلدان وعلى رأسها القطن، والذي نفترض أنّ بلاد المغرب الأوسط كانت تستورده من بلاد الأندلس، حيث يذكر العذري أنّ إشبيلية اشتهرت بزراعة القطن ومنها "يجتاز به المتجهّزون إلى إفريقية وما والاها"[4]، بالإضافة إلى القطن فقد صدّرت الأندلس الكتّان، حيث كان الكتان يحمل من كورة إلبيرة إلى أقاصي بلاد المسلمين[5]، فبالرغم من وجود مزارع للقطن والكتّان في بلاد المغرب الأوسط، إلّا أنّ انتاجها لم يكن يكفي لتلبية حاجيات السكان ممّا دفعهم إلى استيراد كميات من الأندلس، خاصة المنسوجات الكتّانية التي كانت تُنسج في بلنسية[6]، حيث يذكر المقري أنّها كانت تُسفَّر من بلنسية إلى أقطار بلاد المغرب[7].

1- ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص: 153.
2- كونستبل أوليفيا، التجارة والتجار، ص: 308.
3- الأصطخري، المسالك والممالك، ص: 45.
4- العذري، ترصيع الأخبار، ص: 96.
5- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 24.
6- الزهري، الجعرافية، ص: 102.
7- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 221.

اشتهرت الأندلس أيضا بزراعة الزّعفران في الكثير من أقاليمها كمدينة واد الحجارة وبلنسية وبيّاسة وطليطلة، حيث كان الزعفران المنتج بهذه الأقاليم من أجود أنواع الزعفران، كما تميّز بكثرته، وكان يوجّه ما فاض منه إلى التصدير حيث يذكر كل من الإدريسي والمقري أنّ الأندلس قد صدّرت الزعفران إلى سائر الآفاق والعمالات والجهات[1]، ونظرا لعدم وجود مزارع للزعفران في المغرب الأوسط فلا نستبعد أن يكون تجار المغرب الأوسط قد استوردوا بعضا من زعفران الأندلس.

كما صدّرت الأندلس معدن الإثْمِد الموجود بإحدى نواحي مدينة طرطوشة إلى جميع البلاد[2]، خاصة بلاد المغرب[3] وبلاد المشرق[4]، وصدّرت الكبريت الأحمر إلى أقطار الأرض كلّها وإلى العراق واليمن والشّام وحتى إلى الهند[5]، وكذلك الزنجفر[6]، ومعدن الطَّفْل الأندلسي[7]، إضافة إلى تصديرها للفراء والسمُّور وجلود الخزّ والسيوف[8].

وهكذا فقد كان للموانئ دور كبير في تنشيط الملاحة البحرية والحركة التجارية بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، فقد استطاع تجار المغرب الأوسط والأندلس خلق أجواء من عمليات التبادل التجاري بين الضفتين، بحكم التقارب الجغرافي والسياسي والثقافي بين العدوتين، وقد أدّى هذا التقارب إلى إنشاء مراكز تجارية ساحلية والمتمثلة أساسا في الموانئ، وظهور طرق بحرية ساهمت في ربط موانئ العدوتين وتسهيل عمليات الإبحار، وفي تنشيط الملاحة البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ويرجع الفضل في ذلك إلى ما قام به البحّارة الأندلسيون من إنشاء للمدن والثغور على طول ساحل المغرب الأوسط، حيث استقرت في هذه المدن جاليات أندلسية، والتي يرجع لها الفضل في تنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية في كل من المغرب الأوسط والأندلس.

1- الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص 189. المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 143.

2- البكري، المسالك، ص: 898.

3- الزهري، الجعرافية، ص: 96.

4- الزهري، المصدر نفسه، ص: 80.

5- نفسه، ص ص: 99، 31.

6- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 214.

7- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 111.

8- ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص: 153.

خاتمة

تعتبر دراسة تاريخ التجارة في الغرب الإسلامي من الموضوعات الكبيرة والمتشعّبة، ولعلّنا استطعنا في هذه الدراسة –إلى حدّ ما– تسليط الضوء على بعض جوانب التجارة البحرية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وعلى دور الموانئ في تنشيط التجارة بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس خلال الفترة الممتدة من القرن 3هـ إلى غاية القرن 6هـ، ويمكننا من خلالها أن نخلص إلى مجموعة من النتائج، يمكن حصرها في ما يلي:

–كان للموقع الجغرافي المتميّز لكلّ من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس دور مهمّ في تنشيط التجارة البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فتواجد الإقليمين ضمن المجال البحري للبحر الأبيض المتوسط، واحتوائهما على مجموعة من الموانئ، جعل من ربط سُبل التجارة ممكنة، وبالتالي أضحى الجزء الجنوبي الغربي من البحر المتوسط يشهد حركة ملاحية نشطة منقطعة النظير، ويرجع الفضل في ذلك إلى البحريين الأندلسيين.

–إنّ استخدام الشواطئ المتوسطية، سواء في المغرب الأوسط أو الأندلس، ساعد على تطوير موانئ تلك السواحل باتخاذ الخلجان والجبال والجزر وأودية الأنهار ستارا من الرياح، فظهرت مجموعة من المراسي التي اختلفت من حيث الكبر والأهمية، فهناك من المراسي من تميّز باتساعه وأمانه من الرياح والعواصف، ومنها من اتصف بضيق حجمه، وقرب قعره، وانكشافه أمام الرياح المهيمنة.

–تميّزت كل من بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس بامتداد شاطئهما الكبير، وبتركّز عدد كبير من مدنهما على السواحل، ممّا أدّى إلى وجود عدّة منافذ بحرية تربطهما بعالم البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت هذه المنافذ عبارة عن مراسي صغيرة لتتحول الكثير منها في العهود اللّاحقة إلى مدن وموانئ كبيرة، وقد احتوت بلاد المغرب الأوسط على عدد كبير من الموانئ والمراسي الصغيرة، اختلفت مهامها وأوقات استقبالها للسفن، كما احتوى الجانب الشرقي للأندلس والذي يطلّ على البحر المتوسط على مجموعة من الموانئ المهمّة، التي كان لها الفضل في تنشيط التجارة البحرية بين العدوتين.

–شهد الغرب الإسلامي نشاطا ملاحيا كبيرا منذ بداية القرن 3هـ، فقد استطاع البحّارة المسلمون تعلّم الكثير من تقنيات وأساليب الملاحة والإبحار في البحر المتوسط، وكان ذلك نتيجة لخبرتهم

الطويلة في ركوب البحر، كما استفادوا من تجارب الشعوب السابقة، حيث تمكّنوا من قياس المسافات البحرية، ووضعوا قواعد ووحدات قياسية متعارفة لتحديدها، واستخدموا المدة الزمنية للدلالة على المسافة البحرية، وتعرّفوا على أثر المناخ على الملاحة، فاسترشدوا بالريّاح وأوقات هبوبها وأفادوا منها فائدة كبيرة في الملاحة.

-امتلكت بلاد المغرب الأوسط العديد من المقوّمات التي ساهمت في تطوير اقتصادها وفي تنشيط الحركة التجارية الداخلية والخارجية بها، فكان لشساعة أراضيها وخصوبة تربتها وتنوّع مناخها، أثر في تنوّع وتعدّد المنتجات الزراعية المختلفة، حيث كانت الحبوب والثمار أهمّ منتجاتها الزراعية، إضافة إلى توفّرها على ثروة حيوانية معتبرة والمتمثلة في الخيل والغنم والبقر والإبل، فكانت مصدر دخل للعديد من الأفراد والقبائل من خلال حرفة الرعي، كما لا ننس أنّ أرض المغرب الأوسط غنيّة بالمعادن، ممّا ساهم في تطوّر الصناعة، خاصة الصناعات المعدنية وصناعة السفن.

- تتميّز بلاد الأندلس بكبر مساحتها وتنوّع تضاريسها ومناخها، وقد أدّى هذا التنوّع الجغرافي والمناخي إلى ازدهار الفلاحة بها وتنوّع المحاصيل الزراعية، وقد أبدى الأندلسيون اهتماما كبير بالفلاحة، فظهرت مؤلّفات عديدة اهتمّت بالفلاحة وبعلم النّبات، ممّا ساهم في تطوير الإنتاج الفلاحي وتنوّعه، خاصة الحبوب والأشجار المثمرة، كما طوّروا زراعة الرَّياحين والتوابل والنباتات الطبية المستجلبة من الهند وذلك بتوفير شروط غراستها، فنجحوا في غراسة الكثير منها، حتى أن الأندلس صارت تصدّر بعضها إلى الكثير من الأقطار.

-تزخر الأندلس كذلك بثروة معدنية هائلة، حيث لا يكاد يخلو إقليم من أقاليمها من شتّى أنواع المعادن وحتى الأحجار الكريمة، حيث استغلّها المسلمون منذ فتحهم للأندلس، واعتمدوا في عملية استخراجها على السكّان المحليّين، وأخذوا عنهم الخبرة في استخراج هذه المعادن والأحجار النفيسة، وتعلّموا طريقة تصفيتها وتنقيتها من الشوائب وصقلها، ولعلّ من أكثر المعادن الموجودة بأرض الأندلس معدن الزئبق، حيث اشتهرت الأندلس بتصديره إلى مختلف بقاع الأرض، وتوجد بالأندلس معادن أخرى على غرار الفضة والنحاس والحديد والذهب...، كما اشتهرت الأندلس بأنواع عديدة من الأحجار الكريمة أشهرها الياقوت واللازورد والعقيق.

-عرفت بلاد الأندلس تقدّما صناعيا كبيرا، حيث اهتمّت الدول التي تعاقبت على حكمها بالصناعة اهتماما بالغا، وكان لوفرة عوامل النهوض الصناعي من مواد أولية وأيد عاملة أثر كبير في تطوّر الصناعة بالأندلس، حيث ساير حكّامها التطوّر الصناعي في المشرق وذلك بجلب العمّال والصنّاع وتشجيعهم ودعمهم، فتعدّدت وتنوّعت الصناعات في بلاد الأندلس، وظهرت العديد منها، ولعلّ من أشهرها الصناعة النسيجية، فنظرا لإنتاج الأندلسيين لمادة الحرير بكميات هائلة، احتلّت صناعة المنسوجات الحريرية مكانة بارزة في المجتمع الأندلسي، إضافة إلى المنسوجات الصوفية والكتانية، كما اشتهرت الأندلس بالصناعات المعدنية باختلاف أنواعها، وبحكم أنّها شبه جزيرة محاطة بالمياه من ثلاث جوانب وما تفرضه طبيعتها البحرية عليها، فقد اشتهرت أيضا بصناعة السفن، سواء سفن الأسطول أو سفن التجارة، إضافة إلى اشتهارها بالصناعات الغذائية.

-كان للموانئ دور كبير في تنشيط الملاحة البحرية والحركة التجارية بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، فقد استطاع تجار المغرب الأوسط والأندلس خلق أجواء من عمليات التبادل التجاري بين الضفتين، بحكم التقارب الجغرافي والسياسي والثقافي بين العدوتين، وقد أدّى هذا التقارب إلى إنشاء مراكز تجارية ساحلية والمتمثلة أساسا في الموانئ، وظهور طرق بحرية ساهمت في ربط موانئ العدوتين وتسهيل عمليات الإبحار، وفي تنشيط الملاحة البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ويرجع الفضل في ذلك إلى ما قام به البحّارة الأندلسيون من إنشاء للمدن والثغور على طول ساحل المغرب الأوسط، حيث استقرت في هذه المدن جاليات أندلسية، كان لها الدور الكبير على حركة التجارة الداخلية والخارجية في كل من المغرب الأوسط والأندلس.

-أدّت كثافة التنقلات البحرية بين موانئ المغرب الأوسط والأندلس إلى ظهور طرق بحرية عديدة تربط بين موانئهما، حيث ارتبط كل ساحلين متقابلين من أرض العدوتين بطريق بحري أو أكثر، كما صار لزاما على التجار توفير وسائل نقل أكبر وأفضل لإبحار أكثر أمانا، لذا نرى أنّ البحرية في أرض العدوتين قد عملت على تطوير الأسطول التجاري وتزويده بسفن أكثر متانة وأكبر حجما، حتى أنّ وحدات الأسطول الحربي قد سخّرت في أوقات السلم لأغراض تجارية والعكس صحيح، إلّا أنّ الرحلة البحرية قد واجهتها معيقات كان من شأنها أن تقلّص من حجم نشاطها الملاحي، ولعلّ من أبرز هذه المعيقات القرصنة واعتراض العدو، كما لا ننس المعيقات الطبيعية كالعواصف والأعاصير والتيارات البحرية والمعابر المائية الخطرة.

-تتمّ المعاملات التجارية عن طريق آليات ووسائل تحدّدها وتنظّمها، حيث تعتبر الأسواق، باختلاف أنواعها، المجال الذي تتمّ فيه عملية التبادل التجاري من بيع وشراء، وقد عرف كل من المغرب الأوسط والأندلس بكثرة الأسواق وانتشارها وتوفّرها على مختلف السلع والبضائع، وقد استعمل الناس في الضفتين النقود خلال عمليات التبادل التجاري، وتتمثّل النقود أساسا في قطعتين نقديتين هما الدينار والدرهم، بالإضافة إلى عملات نقدية صغيرة من أجزاء الدينار والدرهم...، وكانت هذه النقود في تغيّر مستمر من حيث الوزن والشكل، وذلك بتغيّر الدول والحكام، كما أنّ العملية التجارية تحتاج إلى استخدام المكاييل والأوزان، والتي كانت مقاديرها وأوزانها تتغيّر من قطر إلى آخر.

-تنوّعت وتعدّدت البضائع والسلع المتبادلة بين المغرب الأوسط والأندلس، فقد شهدت العدوتين تقاربا اقتصاديا كبيرا منذ مطلع القرن 3هـ، والذي بلغ أوجّه خلال القرنين 4هـ و5هـ، وقد ساهمت الطرق البحرية في ربط معظم موانئ الأندلس بموانئ المغرب الأوسط، وتسهيل عمليات النقل البحري للسلع والبضائع والأشخاص، مكوّنة شبكة تجارية ليس بين المغرب الأوسط والأندلس فحسب، بل شملت جميع الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد تمثّلت صادرات بلاد المغرب الأوسط أساسا في الإنتاج النباتي والإنتاج الحيواني، والتي كانت الأندلسيون يقبلون على استيرادها كثيرا، وذلك لحاجة مصانعهم إلى المواد الخام، كما كانت الأندلس تحتاج في أيام الحروب والصراعات إلى قدر كاف من المواد الغذائية، فكانت تستورد المؤن الكافية من مدن المغرب الأوسط، إضافة إلى حاجتها للسلع المجلوبة من بلاد السودان كالذهب والعبيد، والتي كانت تصلها في الغالب عن طريق تجار المغرب الأوسط.

-كانت بلاد المغرب الأوسط في حاجة إلى الكثير من المنتجات الصناعية، حيث لم يكن بها من مصانع كفاية لتلبية حاجيات السكان، ممّا اضطر التجار المغاربة إلى تأمين هذه السلع من أكثر الأراضي قربا من أرض العدوة، وهي الأندلس، وكان على رأس هذه السلع المنسوجات، خاصة المنسوجات الحريرية التي عرفت بها الأندلس، إضافة إلى استيرادها لبعض المعادن كمادة خام أو مصنّعة، ولعّل من أكثر ما استورد المغاربة من الأندلس الرقيق الأبيض، والمتمثل في الجواري والفتيان الصقالبة، إضافة إلى استيرادها إلى منتوجات أخرى على غرار الكاغد وبعض التوابل.

-وفي الأخير يمكننا أن نختتم كلامنا بأنّه نشأت بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد الأندلس علاقة استثنائية، كانت وليدة ظروف سياسية خاصة، منذ أيام الدولة الرستمية في المغرب الأوسط والدولة الأموية في الأندلس، وقد أدّى هذا التقارب السياسي إلى تقارب اقتصادي وثقافي، كانت بداياته في سماح حكام المغرب الأوسط لبعض البحارة الأندلسيين بالنزول في شواطئ المغرب الأوسط، ليقوم هؤلاء ومن جاء من بعدهم بتأسيس مراكز تجارية في السواحل الغربية من المغرب الأوسط والقريبة من أرض الأندلس، ثم ليتوسّعوا بعدها على طول الشريط الساحلي للمغرب الأوسط، ونتيجة لاستفادة القبائل المحلية من نشاط هؤلاء البحارة والتجار، عملوا على استقبال عائلاتهم، والتي شكّلت فيما بعد جالية أندلسية بأرض المغرب الأوسط، ففسحت المجال لانتعاش التجارة، خاصة التجارة الخارجية للمغرب الأوسط، وانفتاحها على عالم البحر المتوسط.

الملاحق

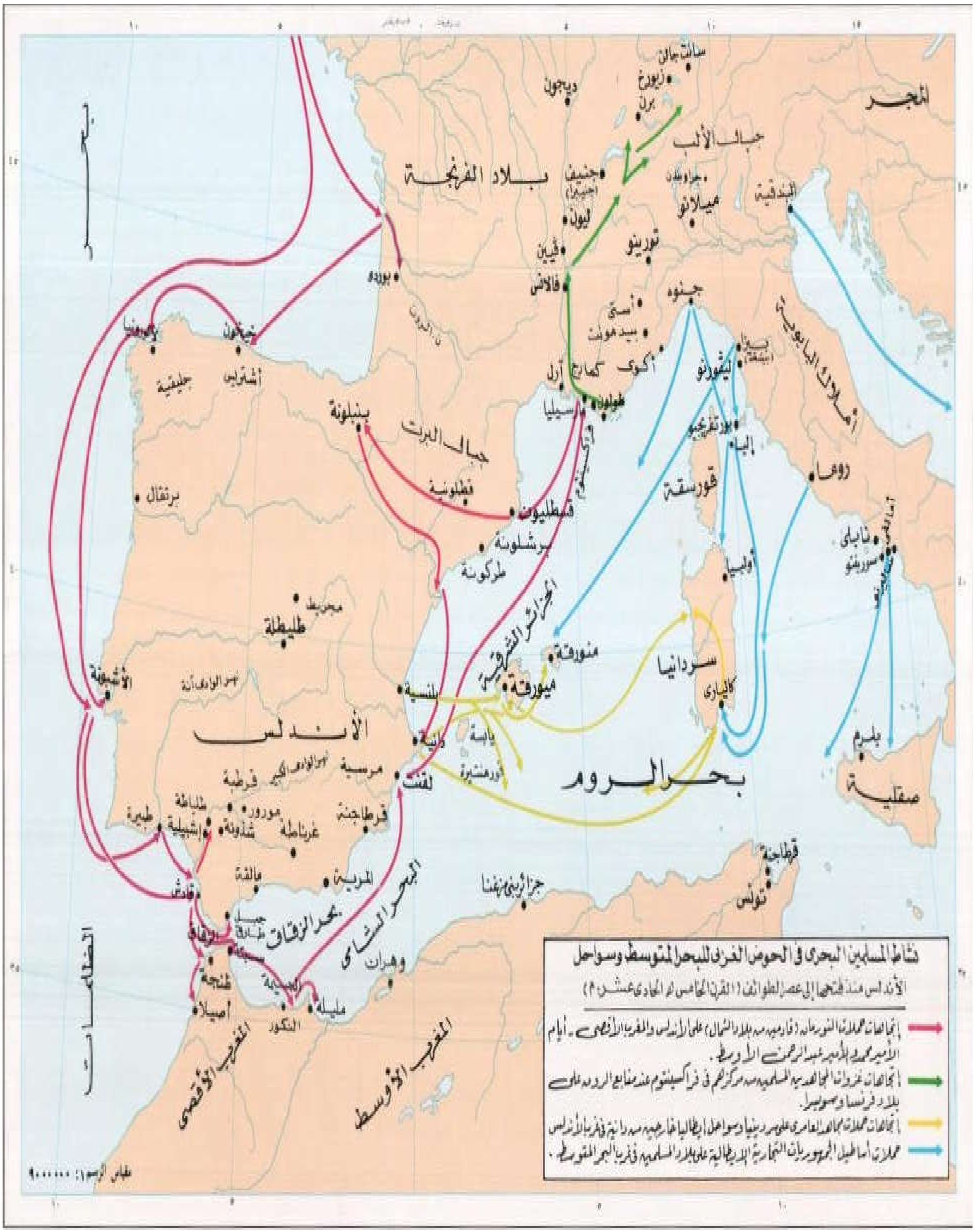

الملحق رقم 06: نشاط المسلمين البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط

–حسن مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1987، ص: 281.

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

-المصادر:

1. الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيراء، تح وتع: حسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، ط2، 1985.
2. الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، مر وتح: محمد يوسف الدقاق، بيروت: دار الكتب العلمية، ط4، 2003.
3. //، الكامل في التاريخ، م8، مر وتص: محمد يوسف الدقاق، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1987.
4. الإشبيلي أبو الخير، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ج1، تق وتح: محمد العربي الخطابي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1995.
5. الإشبيلي أبو زكريا يحي بن محمد بن أحمد بن العوام، تح: أنور أبو سويلم وآخرون، عَمّان: منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط1، 2012.
6. الأصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، مسالك الممالك، ليدن: مطبع بريل، 1927.
7. الأندلسي يحي بن عمر، أحكام السوق، تح: محمود علي مكي، مصر.
8. الباروني أبو الربيع سليمان، مختصر تاريخ الإباضية، طرابلس.
9. البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف، فتاوى البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام، تق وتح: محمد الحبيب الهيلة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002، ج 6.
10. ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى، الصلة، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1989.

11. ابن بطوطة محمد بن عبد الله الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تق وتح: محمد عبد المنعم العريان، مر: مصطفى القصّاص، بيروت: دار إحياء العلوم.

12. البيطار ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، بيروت: دار الكتب العلمية.

13. البغدادي صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، م3، تح وتع: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، ط1، 1992.

14. البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، المسالك والممالك، تح وتق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992.

15. //، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تح: حماه الله ولد سالم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2013.

16. البلنسي أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تح وتق: علي كنعان، دمشق: مركز تحقيقات كامبيوتري علوم إسلامي، ط1، 2008.

17. //، رحلة ابن جبير، بيروت: دار صادر.

18. البلوي خالد بن عيسى الأندلسي، رحلة البلوي المسماة: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج1، تح: الحسن السائح، المغرب: مطبعة فضالة.

19. البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971.

20. التجيبي محمد بن أحمد بن عبدون، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، نشرت ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.

21. التلمساني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تح: علي الشنوفي، 1967.

22. الثميني ضياء الدين عبد العزيز، كتاب النيل وشفاء العليل، ومحمد بن يوسف أطفيش، شرح كتاب النيل وشفاء العليل، جدّة: مكتبة الإرشاد، بيروت: دار الفتح، ليبيا: دار التراث العربي، ط2، 1972.

23. الجزائري عبد الرزاق بن أحمد بن حمدوش، كشف الرموز في بيان الأعشاب، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1928.

24. الجوذري أبو منصور العزيزي، سيرة الأستاذ جوذر، تق وتح: محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي.

25. الحكيم أبو الحسن علي بن يوسف، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكّة، تح: حسين مؤنس، مجلّة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 5، العدد 12، مدريد، 1958.

26. ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح ودر: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، القاهرة: دار الصحوة للنشر.

27. الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، 1977.

28. الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تح وتع: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، تونس: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2008.

29. الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، صفة جزيرة الأندلس؛ منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتص وتع: ليفي بروفنسال، بيروت: دار الجيل، ط2، 1988.

30. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط2، 1984.

31. ابن حيان القرطبي حيان بن خلف بن حيان، السفر الثاني من كتاب المقتبس، تح وتق وتع: محمود علي مكي، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 2003.

32. //، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح: محمود على مكي، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1994.

33. //، المقتبس، ج5، اعتنى بنشره: ب.شالميتا، تح: ف.كورينطي وم.صبح، مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، 1979.

34. ابن خاقان الإشبيلي أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح: محمد علي شوابكة، بيروت: دار عمار مؤسسة الرسالة، ط1، 1983.

35. //، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح وتع: حسين يوسف خريوش، الأردن: مكتبة المنار، ط1، 1989.

36. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن: مطبع بريل، 1302هـ.

37. ابن خفاجة إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الهواري، ديوان ابن خفاجة، شر وتق: عمر فاروق الطباع، بيروت: دار القلم.

38. ابن خلدون أبو زكرياء يحي، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، م1، الجزائر: مطبعة بيير فونطانا الشرقية، 1903.

39. ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2000.

40. //، مقدمة ابن خلدون، در: أحمد الزعبي، الجزائر: دار الهدى، 2009.

41. //، مقدمة ابن خلدون، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2001.

42. ابن خلكان أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر.

43. الدبّاغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج2، تع: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تح: محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، القاهرة: مكتبة الخانجي، تونس: المكتبة العتيقة، 1972.

44. الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد، طبقات مشائخ المغرب، تح: إبراهيم طلاي، الجزائر: مطبعة البعث.

45. الدمشقي ابن عماد شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، م4، تح وتع: محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دمشق: دار ابن كثير، ط1، 1986.

46. الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، كتاب الأنواء في مواسم العرب، القاهرة: دار الكتب المصرية.

47. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، ق20، تح وتع: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1983.

48. الرشاطي أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الأندلسي، إقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار، وضع حواشيه: محمد سالم هاشم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1999.

49. ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد، مسائل أبي الوليد بن رشد (الجَدّ)، تح: محمد الحبيب التجكاني، دار الجيل، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط2، 1993.

50. الزبيدي أبو بكر محمد بن حسن بن مذحج، لحن العوام، تح: رمضان عبد التواب، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 2000.

51. الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، الجعرافية، تح: محمد حاج صادق، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

52. الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق وتح: المهدي بوعبدلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.

53. السبتي أبو العباس أحمد بن محمد العزفي، إثبات ما ليس منه بدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تخ ودر: محمد الشريف، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 1999.

54. السبتي أبو العباس العَزفي، دعامة اليقين في زعامة المتقين، تح: أحمد التوفيق، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.

55. السّقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي، آداب الحسبة، اعتنى به: كولان وليفي بروفنسال، باريس.

56. الشريف الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

57. //، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس: مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، ليدن: مطبع بريل، 1863.

58. الشنتريني أبو الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، م1، تح: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1997.

59. شيخ الربوة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر، لايبزيغ، 1923.

60. ابن صاحب الصلاة عبد الملك، المن بالإمامة، تح: عبد الهادي التازي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987.

61. الصدفي صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، ج3، تح: أحمد الأرناؤوط وتزكي مصطفى، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 2000.

62. الصنهاجي عبد الله بن بكلين بن باديس بن حبوس، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحر: علي محمد، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2006.

63. الصيرفي أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان المصري، الإشارة إلى من نال الوزارة، تح وتع: عبد الله مخلص، القاهرة: مطبعة المعهد الفرنسي الخاص بالعادات الشرقية، 1924.

64. الضبِّي أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1989.

65. ابن عبد الرؤوف أحمد بن عبد الله، رسالة ابن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحتسب، نشرت ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.

66. أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تق ودر وتح: محمد عمارة، بيروت: دار الشروق، ط1، 1989.

67. العذري أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تح: عبد العزيز الأهوازي، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية.

68. العمري شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2010.

69. ابن غالب محمد بن أيوب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس، اعتنى به: لطفي عبد البديع، مجلة المخطوطات العربية، م1، عدد1، جامعة الدول العربية، 1955.

70. الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح وتع: عادل نويهض، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط2، 1979.

71. الغرناطي أبو حامد محمد بن عبد الرحيم بن سليمان المازني القيسي، المعرب عن بعض عجائب المغرب، وضع حواشيه: محمد الأمين ضنّاوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1999.

72. الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: علي عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2003.

73. الفاسي علي بن عبد الله بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.

74. أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، بيروت: دار صادر.

75. الفرضي أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصير الأزدي المعروف، تاريخ علماء الأندلس، مر: يخلف شلحة، الجزائر: استوديو الترقية.

76. القاضي النعمان أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي، افتتاح الدعوة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 2005.

77. //، المجالس والمسايرات، تح: الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليغلاوي، بيروت: دار المنتظر، ط1، 1996.

78. القاضي عياض أبو الفضل عياض من موسى بن عياض بن عمرو السبتي اليحصبي، تراجم أغلبية، تح: محمد الطالبي، تونس: الجامعة التونسية، 1968.

79. القرطبي أبو الحسن عريب بن سعيد الكاتب، التقويم في قرطبة، ليدن: مطبع بريل، 1961.

80. القروي أبو القاسم خلف بن أبي فراس الإفريقي، أكرية السفن، در وتح: عبد السلام الجعماطي، الرباط: دار الأمان، ط2، 2017م.

81. القزويني زكرياء بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر.

82. //، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، برلين، 1848.

83. القلصادي أبو الحسن علي الأندلسي، رحلة القلصادي، در وتح: محمد أبو الأجفان، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1978.

84. القلقشندي أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، ج5، القاهرة: دار الكتب الخديوية، 1915.

85. ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف، تاريخ افتتاح الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط2، 1989.

86. كربخال مارمول، إفريقيا، ج3، تر: محمد حجي وآخرون، الرباط: مكتبة المعارف، 1984.

87. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، تح: أحمد مختار العبادي، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1971.

88. الكلبي أبو الخطّاب عمر بن حسن بن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، مر: طه حسين، بيروت: دار العلم للجميع.

89. اللخمي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام، المدخل إلى تقويم اللسان، تح: حاتم صالح الضامن، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 2003.

90. لسان الدين ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تح: سيد كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2003.

91. //، أعمال الأعلام، ق3، تح وتع: أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1964.

92. //، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 1973.

93. //، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تص: محب الدين الخطيب، القاهرة: المطبعة السلفية، 1347هـ.

94. //، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، جمعه: أحمد مختار العبادي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1983.

95. //، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح ودر: محمد كمال شبانة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.

96. المالكي ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح وتع: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

97. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تع: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

98. مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط1، 1979.

99. مؤلف مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، تح: عبد القادر بوباية، الجزائر: مؤسسة البلاغ، 2013.

100. المراكشي ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ومر: كولان وليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة، ط2، 1980.

101. //، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ومر: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ط3، 1983.

102. //، البيان المغرب: قسم الموحدين، تح: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1985.

103. المراكشي أبو محمد الحسن بن علي الكتامي ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تق وتح: محمود علي مكي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990.

104. المراكشي محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به: صلاح الدين الهواري، بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 2006.

105. المراكشي محي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ليدن، 1881.

106. المغربي أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، الجغرافيا، تح وتع: إسماعيل العربي، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1970.

107. //، المغرب في حلى المغرب، تح وتع: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، ط4، 1995.

108. المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، ط2، 1902.

109. المقري أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1968.

110. المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، 1996.

111. المقريزي، الأوزان والأكيال الشرعية، تح وتع: سلطان بن هليل بن عيد المسمار، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 2007.

112. ابن منظور أبو الفضل جمال محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي الرويفعي، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف.

113. النصيبي أبو القاسم بن حوقل، صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992.

114. النيسابوري أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2003.

115. الورجلاني أبو زكريا يحي بن أبي بكر، سير الأئمة وأخبارهم، تح: إسماعيل العربي، الجزائر: المكتبة الوطنية، 1979.

116. الوردي سراج الدين، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح: أنور محمود زناتي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2008.

117. الوزان الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الافريقي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط2، 1983.

118. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج8، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981.

119. اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، البلدان، ليدن: مطبع بريل، 1820.

المراجع:

120. أبو رميلة هشام، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الأندلس، عمان: دار الفرقان، ط1، 1984.

121. إدريس الهادي روجي، الدولة الصنهاجية، تر: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992.

122. أرسلان شكيب، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، بيروت: دار مكتبة الحياة.

123. أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، تر: أحمد محمد عيسى، مر وتق: محمد شفيق غربال، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

124. إسماعيل بن نعمان، مدينة دلس دراسة تاريخية وأثرية خلال العهد الإسلامي، الجزائر: دار الأمل.

125. أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس فب عهد المرابطين والموحدين، ج1، تر وتع: محمد عبد الله عنان، تق وتن: سليمان العطار، المركز القومي للترجمة القاهرة، 2014.

126. أميلي حسن، المعجم البحري والملاحي، منشورات الرباط: المعهد الجامعي للبحث العلمي.

127. برنشفيك روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، تع: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988.

128. بروفنسال ليفي، الحضارة العربية في إسبانيا، تر: الطاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف، ط3، 1994.

129. البكر خالد بن عبد الكريم بن حمود، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ط1، 1993.

130. بن عميرة محمد ولطيفة بشاري، تاريخ بجاية في ظل مختلف الأنظمة السياسية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين، الجزائر: دار الفاروق، ط1، 2015.

131. بنمليح عبد الإله، الرق في بلاد المغرب والأندلس، بيروت: الانتشار العربي، ط1، 2004.

132. بني ياسين يوسف أحمد، بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية، الإمارات ع.م: مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، 2004.

133. بوباية عبد القادر وآخرون، مصادر ومراجع تاريخ المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، الجزائر، 2014.

134. بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1977.

135. بوعزيز يحي، مدينة وهران عبر التاريخ، الجزائر: عالم المعرفة، 2009.

136. الجبوري خليل خلف، الموانئ الأندلسية في عصري الإمارة والخلافة، دار صفحات، دمشق، 2016.

137. الجعماطي عبد السلام، النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316هـ/483م)، الرباط: دار الأمان، ط1، 2010.

138. الجعماطي، دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2012.

139. جيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، بيروت: دار مكتبة الحياة، ط2، 1965.

140. الحجي عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، بيروت: دار القلم، ط2، 1981.

141. الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160-296هـ)، الكويت: دار القلم، ط3، 1987.

142. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، القاهرة: مكتبة الخنابجي بمصر، ط1، 1980.

143. حلاق محمد صبحي بن حسن، الإيضاحات العصرية للمقاييس والمكاييل والأوزان والنقود الشرعية، صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، ط1، 2007.

144. الخليفة حامد محمد، انتصارات يوسف بن تاشفين، الشارقة: مكتبة الصحابة، ط1، 2004.

145. الدراجي بوزياني، دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، الجزائر: دار الكتاب العربي.

146. دندش عصمت عبد اللطيف، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين: عصر الطوائف الثاني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988.

147. دوروثي دينين فولو وجيمس إم فولو، عصر الملاحة البحرية، تر: خلود الخطيب، مر: سامر أبو هواش، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط1، 2012.

148. دوزي رينهارت، المسلمون في الأندلس، تر وتع: حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.

149. //، ملوك الطوائف ونظرات في الإسلام، تر: كامل كيلاني، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2012.

150. الزركلي خير الدين، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002.

151. زيتون عادل، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دمشق: دار دمشق، ط1، ص 1980.

152. سالم سيد عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1984.

153. سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1997.

154. سالم عبد العزيز وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، 1969.

155. السامرائي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط1، 2004.

156. الصلابي علي محمد، دولة الموحدين، عمان: دار البيارق، 1998.

157. الصوفي خالد، تاريخ العرب في إسبانيا نهاية الخلافة الأموية، حلب: مكتبة دار الشرق، ط1، 1963.

158. الطمار محمد، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.

159. الطويل طاهر، المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط من النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن 5 هـ، الجزائر: المتصدر للترقية الثقافية والعلمية، ط1، 2011.

160. طويل مريم قاسم، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1994.

161. عبادة عبد الفتاح، سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام، مصر: مطبعة الهلال، 1913.

162. عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، عمان: دار الشروق، ط2، 1997.

163. عبد العليم أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978.

164. عبد الله محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، القاهرة: دار الثقافة، 1991.

165. العشاب خليل حسن إبراهيم الحموي، شفاء الأمراض الجلدية والمعدية بواسطة الأعشاب، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.

166. عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، الجزائر: دار ريحانة، ط1، 2002.

167. عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس، العصر الثاني، ق1، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط4، 1997.

168. عويس عبد الحليم، دولة بني حماد، القاهرة: دار الصحوة، ط2، 1991.

169. عيسى أحمد، تاريخ النبات عند العرب، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

170. فاليرين دومينيك، بجاية ميناء مغاربي (1067-1510م)، تر: عمار علاوة، الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية، 2014.

171. الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة.

172. فيلالي عبد العزيز، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ط2، 1999.

173. القنّوجي صدِّيق بن حسن، أبجد العلوم المسمى الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، أعدّه للطبع ووضع فهارسه: عبد الجبار زكّار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط2، 1978، ج1.

174. الكردي محمد نجم الدين، المقادير الشرعية والأحكام الفقهية المتعلقة بها، القاهرة، ط2، 2005.

175. كولان ج.س، الأندلس، تر: إبراهيم خورشيد وآخرون، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1980.

176. كونستبل أوليفيا ريمي، التجارة والتجار في الأندلس، تع: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكات.

177. لعروق محمد الهادي وسمير بوريمة، أطلس الجزائر والعالم، الجزائر: دار الهدى.

178. لومبار موريس، الإسلام في مجده الأول، تر وتح: إسماعيل العربي، المغرب: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط3، 1990.

179. ماهر سعاد، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، مصر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

180. محمد بحر عبد المجيد، اليهود في الأندلس، القاهرة: المكتبة الثقافية، 1970.

181. محمد علي جمعة، المكاييل والموازين الشرعية، القاهرة: دار القدس، ط2، 2001.

182. مزاري توفيق، النشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحدين، الجزائر: الجسور، ط1، 2011.

183. مورينيو مانويل جوميث، الفن الإسلامي في إسبانيا، تر: السيد عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

184. موسى عز الدين عمر، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

185. مؤنس حسين، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1987.

186. // ، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة: دار الرشاد، ط 5، 2000.

187. // ، موسوعة تاريخ الأندلس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1996، ج2.

188. الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق وتص: محمد الميلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج2.

189. النجار عبد المجيد، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، فرجينيا و.م.أ: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1995.

190. نشاط مصطفى، جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ/1212م إلى سنة 759هـ/1358م، الرباط: مطابع الرباط نت.

191. نصر الله سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، ط1، 1985.

192. نعنعي عبد المجيد، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس: التاريخ السياسي، بيروت: دار النهضة العربية.

193. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، 1982.

194. هنتس فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسيلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية، 1970.

195. هونكه زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ط8، 1993.

196. يوسف جودت عبد الكريم، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 34هـ/910م، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

197. //، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

المقالات والدوريات:

198. بلعربي خالد، "**الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني**"، دورية كان التاريخية، تصدر العدد السادس، ديسمبر، 2009، ص ص: 32-38.

199. بلهواري فاطمة، "**التبادل التجاري بين مدن بلاد المغرب خلال القرن 4هـ/10م**"، مجلة إنسانيات، العدد 42، الجزائر، 2008، ص ص: 62-81.

200. الخليفات محمد عطا الله: "**أسواق الأندلس في عصر الدولة الأموية 138-422هـ/755-1030م**"، مجلة المشكاة، المجلد الأول، جانفي، 2014.

201. العمري يحياوي، "**السجل الزخرفي الموحدي على المسكوكات الفضية ودلالاته الرمزية والفنية**"، دراسات في آثار الوطن العربي 18، الصادرة عن جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان. ص ص: 830-850.

202. العناسوة محمد، "**المسكوكات مصادر وثائقية للمعلومات في التاريخ الإسلامي: دراسة تحليلية للعملات الأندلسية والفاطمية والمرابطية والموحدية في المغرب العربي**"، مجلة دراسات، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن، العلوم الإنسانية، المجلّد 43، العدد 1، 2016، ص ص: 157-170.

203. غنيمات مصطفى عبد الله، "**ابن بصال رائد البحث الفلاحي التجريبي في الثقافة الإسلامية**"، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات، كلية الآداب، جامعة الإسراء، مجلد 10، العدد 01، 2003، ص ص: 113-149.

204. مراحة خالد، "**الملاحة البحرية في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط: دراسة في كتاب أكرية السفن لمؤلفه أبو القاسم القروي**"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 89، 2015، الإمارات العربية المتحدة.

الملتقيات والندوات:

205. بشاري لطيفة، النقل البحري في إمارة بني عبد الواد من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13-16م)، من أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا، جامعة الجزائر 2، 2009، ص ص: 431-452.

206. ذنون طه عبد الواحد، التبادل التجاري بين الموانئ الجزائرية والأندلس في القرنيين الخامس والسادس للهجرة، ضمن أعمال الملتقى الدولي "الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا"، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر) إلى نهاية العهد العثماني جامعة الجزائر، 2009، ص ص: 403-430.

الرسائل الجامعية:

207. البشري السعد عبد الله، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، بإشراف: أحمد السيد دراج، 1986/1985م.

208. بلغيث محمد الأمين، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي، جامعة الجزائر، بإشراف: عبد الحميد حاجيات، 1987/1986م.

209. بن قربة صالح، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه الدور الثالث في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، بإشراف: رشيد بورويبة، 1983/1982م.

210. بورملة خديجة، التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط من ق6 إلى ق7 الهجري/ 1215م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، جامعة أحمد بن بلة –وهران، بإشراف: عبد القادر بوباية، 2017 /2018م.

211. خزعل ياسين مصطفى، بنو أمية في الأندلس ودورهم في الحياة العامة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في فلسفة التاريخ الاسلامي، جامعة الموصل، بإشراف: صالح ناطق مطلوب، 2004.

212. الزغول محمد حسين، التاريخ الاقتصادي للدولة الأموية في الأندلس 138-422هـ/756-1031م، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، الأردن، بإشراف: سعيد الحلاق، 2016.

213. عشي علي، التوجه البحري للمغرب الأوسط وأثره في طرق التجارة والمواصلات (210هـ/816م)، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة باتنة 1، قسم التاريخ وعلم الآثار، بإشراف: مسعود مزهودي، 2017/2016م.

214. المزايدة عمر زعل محمد، الحياة الاقتصادية في الأندلس في عهد الخليفة الناصر، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة مؤتة، الأردن، بإشراف: حسين فلاح الكساسبة، 2009.

215. هواري موسى، تقنيات الزراعة ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين (من ق1هـ/7م إلى القرن 7هـ/13م)، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، بإشراف: محمد بن عميرة، 2016/2015.

المراجع الأجنبية:

216. Dufoureq. (ch.E) : L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIV e siècle. Paris. 1966.
217. Marcais (G) : Honain, Recherches d'archeologie musulmane. Revue Africaine. 4eme trimestre 1928, Alger 1928.
218. Aurélien Montel : Perspectives andalouses sur le Sahara (2/7/11 siècle), p 101-120.
219. Dominique Valérian : Réseaux d´échanges et littoralisation de l´espace au Maghreb (7-11 siècle, p : 87-105.
220. Dominique Valérian , « La diaspora andalouse et le commerce des ports maghrébins (11-15 siècle) », Les Cahiers de Framespa [En ligne], 2014.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة.....	04
الفصل التمهيدي: **المغرب الأوسط والأندلس: قراءة جغرافية وسياسية (ق 3هـ-6هـ)**	22-74
المبحث الأول: التحديد الجغرافي والوضع السياسي بالمغرب الأوسط	22-25
1-الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط من ق3 إلى 6هـ.....	26
أ-الدولة الرستمية.....	26
ب-إمارة بني سليمان.....	27
ج-الدولة الفاطمية.....	27
د-الدولة الحمادية.....	28
هـ-دولة المرابطين.....	29
و-الدولة الموحدية.....	31
المبحث الثاني: التحديد الجغرافي والوضع السياسي بالأندلس ما بين القرنين 3هـ و6هـ	35
1-التحديد الجغرافي لبلاد الأندلس	35
2-الأوضاع السياسية بالأندلس من ق3 إلى 6هـ.....	37
أ-الدولة الأموية.....	37
ب-ملوك الطوائف.....	47
ج-دولة المرابطين في الأندلس.....	66
د-دولة الموحدين في الأندلس.....	70
الفصل الأول: **الموانئ ودورها في رسم خطوط الملاحة البحرية بين المغرب الأوسط والأندلس**.....	75-136
المبحث الأول: الموانئ واتصالها بضفتي المغرب الأوسط والأندلس.....	76
1- أصناف الموانئ.....	76
2- موانئ المغرب الأوسط.....	79
3- الموانئ الأندلسية.....	110
المبحث الثاني: الأساليب الملاحية والتأثيرات المناخية على الملاحة البحرية...	124
1- أساليب وتقنيات الملاحة البحرية.....	124

أ-أسلوب التقوير.....	124
ب-أسلوب الروسية.....	125
ج-أسلوب التلجيج.....	125
2- التأثيرات المناخية على الملاحة البحرية.....	126
أ-الرياح وأثرها على الملاحة.....	126
ب-الأوقات المناسبة للملاحة.....	129
المبحث الثالث: قياس المسافات البحرية بين موانئ العدوتين.....	131
1-المسافات البحرية بين بعض موانئ المغرب الأوسط والأندلس.....	132
2-المسافات البحرية بين مراسي المغرب الأوسط.....	134
الفصل الثاني: الحياة التجارية ومقوماتها بالمغرب الأوسط والأندلس	137-197
المبحث الأول: مقومات الحياة التجارية بالمغرب الأوسط.....	138
1-الموارد الزراعية والحيوانية.....	138
أ-الموارد الزراعية.....	138
-الحبوب.....	140
-الفواكه والخضر.....	141
-القطن والكتان.....	142
ب-الموارد الحيوانية.....	143
-الماشية.....	143
-الخيل والبغال والحمير.....	145
-تربية النحل.....	147
2-الثروة المعدنية.....	148
3-الصناعة.....	150
أ-صناعة النسيج.....	150
ب-الصناعة المعدنية.....	153
ج-صناعة السفن.....	155

د-الصناعة الغذائية.....	158
هـ-الصناعة الطبيّة.....	161
المبحث الثاني: مقومات الحياة التجارية بالأندلس.....	163
1-الفلاحة.....	164
أ-الحبوب.....	165
ب-الأشجار المثمرة.....	166
ج-محاصيل أخرى.....	170
د-التوابل والأفاويه والنباتات الطبية والعطرية.....	172
2-الموارد المعدنية.....	174
أ-المعادن.....	174
ب-الأحجار الكريمة.....	181
3-الصناعة.....	182
أ-صناعة النسيجية.....	184
ب-الصناعات المعدنية.....	189
ج-الصناعات السفن.....	193
د-الصناعات الغذائية.....	195
الفصل الثالث: **دور الموانئ في تنشيط الملاحة البحرية والحركة التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس**.....	200-264
المبحث الأول: النقل البحري.....	200
1-الطرق البحرية.....	200
أ-دور الأندلسيين في ربط موانئ العدوتين.....	200
ب-أهم الطرق البحرية بين العدوتين.....	203
2-أساليب ووسائل النقل البحري.....	209
أ-السفن.....	209
ب-العاملون في النقل البحري.....	215
3-عوائق الرحلة البحرية وأخطارها.....	217

أ-أهوال البحر.....	217
ب-القرصنة واعتراض العدوّ.....	219
المبحث الثاني: الأسواق وآليات التعامل التجاري.....	221
1-الأسواق.....	221
أ-الأسواق بالمغرب الأوسط.....	222
ب-الأسواق الأندلسية.....	225
2-السكّة والنقود.....	228
أ-السكة والنقود في المغرب الأوسط.....	228
ب-السكة والنقود في الأندلس.....	233
3-المكاييل والأوزان.....	236
أ-المكاييل.....	236
ب-الأوزان.....	242
المبحث الثالث: السلع والبضائع المتبادلة بين المغرب الأوسط والأندلس.....	251
1-الصادرات المغرب الأوسط إلى الأندلس.....	252
2-الواردات المغرب الأوسط من الأندلس.....	258
خاتمة.....	266-270
الملاحق.....	272-274
قائمة المصادر والمراجع.....	275-294
فهرس الموضوعات.....	296-299

ملخص:

تشكّل الموانئ والمراسي أحد المرافئ الحيوية لاقتصاد الدولة، إذ هي المنفذ الاستراتيجي الذي تمرّ منه صادرات وواردات التجارة الخارجية، فالموانئ تعكس صورة الازدهار والنمو الاقتصادي الخارجي فضلا على أنّها تمثّل حلقة وصل ما بين المدن البحرية، وباعتبار البحر المتوسط مركز التجارة العالمية فقد ساهم المسلمون منذ الفتح الإسلامي لبلاد الغرب الإسلامي على بعث وإنعاش التجارة العالمية في البحر المتوسط، فأنشأوا الموانئ وأعادوا تنشيط المسالك التجارية من جديد، أين برز دور التجار الأندلسيين الذي سعوا إلى توثيق صلتهم مع بلاد المغرب الإسلامي عن طريق ربط سواحل الأندلس بسواحل المغرب الأوسط.

الكلمات المفتاحية: الموانئ؛ الحركة التجارية؛ المغرب الأوسط؛ الأندلس، الأنشطة الاقتصادية.

summary:

Ports and marinas are one of the vital ports of the state economy, as they are the strategic port from which exports and imports of foreign trade pass. Ports reflect the image of prosperity and external economic growth as well as a link between maritime cities, and as the Mediterranean World Trade Center, Since the Islamic conquest of the Islamic West, Muslims have contributed to the revitalization and revitalization of world trade in the Mediterranean, establishing ports and revitalizing trade routes again, where the role of Andalusian traders who sought to strengthen their connection with the countries of the Mediterranean has emerged. The Islamic Maghreb by connecting the coasts of Andalusia to the coasts of the Middle Maghreb.

Keywords: Ports; Commercial Movement; Middle Maghreb; Andalusia, Economic Activities.